القَوْلُ الجَبِيرُ مِنْ مِنْبَرِ المَسْجِدِ الكَبِيرِ (١)

المَنْهَلُ العَذْبُ النَّمِيرُ في سِيرَةِ السِّرَاجِ المُنِيرِ

إعداد
الدكتور/ وليد بن محمد بن عبد الله العلي
إمام وخطيب المسجد الكبير

دار البشائر الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

المَنْهَلُ العَذْبُ النَّمِيرُ
في
سِيرَةِ السِّرَاجِ المُنِيرِ

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

شركة دار البشائر الإسلامية

لِلطِّباعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوزِيعِ ش.م.م

أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧

فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

تقـــديم

بقلم معالي وزير العدل
ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الله معتوق المعتوق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، والقائل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

والصَّلاة والسَّلام الأتمان الأكملان على سيد الخلائق أجمعين، سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

يقول ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فلا وسيلة إلى الله إلاَّ عن طريق سيد الأصفياء، وإمام الأتقياء؛ سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى آله.

والوسيلة إليه: بحبه وتعظيمه وتوقيره واتباع سنّته؛ وآله الأطهار، وصحابته الأبرار؛ الذين ساروا على منهجه، واتبعوا طريقه.

قال تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾، قال القرطبي رحمه الله: (والهاء فيهما للنبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم،

وهنا وقف تام، ثم تبتدىء: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾. أي تسبحوا الله)[١].

وطريقة اتِّباعه: تعلم سنَّته، وقراءة سيرته العطرة؛ التي فاح شذاها في العالمين، وملأت أنوارها الكونين.

وقد أحسن الشيخ الدكتور وليد محمد العلي حفظه الله حين جعل موضوع خطبه في المسجد الكبير بدولة الكويت: «سيرة الحبيب الشفيع المشفَّع يوم الفزع الأكبر صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم»؛ لتكون منارة هداية، وعلم هدى لمن أراد الاقتداء بخير الورى عليه وعلى آله أطيب الصلاة والتسليم؛ فهو إمام الحكام، ومرشد الآباء، ومعلم الأزواج، وشيخ العباد، وقدوة المعلمين؛ لا تبحث في جانب من جوانب سيرته إلاَّ رجعت ببغيتك وزيادة، وأغنتك عن البحث في غيرها.

نسأل الله تعالى أن يتقبل عمله بيمينه، وأن ينميه له، ليلقاه أحسن ما تمنى، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ فيه حب الله، وحب رسوله، وحب آل بيته وصحابته وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وزير العدل

والأوقاف والشؤون الإسلامية

د. عبد الله معتوق المعتوق

---

(١) الجامع ١٦/ ١٧٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
مكتب الوزير

MINISTRY OF AWQAF AND ISLAMIC AFFAIRS
Minister's Office

/ /٢٠٠٦م   الرقم: و.أ/م.و/   /٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ "

والقائل " وإنك لعلى خلق عظيم " والصلاة والسلام والأتمان والأكملان على سيد الخلائق أجمعين ، سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

يقول ربنا عز وجل " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " فلا وسيلة إلى الله إلا عن طريق سيد الأصفياء وإمام الأتقياء سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وعلى آله ، والوسيلة إليه بحبه وتعظيمه وتوقيره وإتباع سنته والأطهار وصحابته الأبرار ، الذين ساروا على منهجه واتبعوا طريقه.

قال تعالي "لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا " ، قال القرطبي- رحمة الله - والهاء فيهما للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهنا وقف تام ثم تبتدئ .. وتسبحوه "أي تسبحوا الله [1].

وطريقة إتباعه تعلم سنته ، وقراءة سيرته العطرة ، التي فاح شذاها في العالمين ، وملأت أنوارها الكونين .

وقد أحسن الشيخ الدكتور / وليد محمد العلي- حفظة الله - حين جعل موضوع خطبة في المسجد الكبير بدولة الكويت سيرة الحبيب الشفيع المشفع يوم الفزع الأكبر صلى الله عليه وعلى آله

(١) الجامع ١٧٧/١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
مكتب الوزير

MINISTRY OF AWQAF AND ISLAMIC AFFAIRS
Minister's Office

وسلم لتكون منارة هداية وعلم هدى لمن أراد الاقتداء بخير الورى عليه وعلى آله أطيب الصلاة والتسليم ، فهو أمام الحكام ، ومرشد الآباء ، ومعلم الأزواج وشيخ العباد ، وقدوة المعلمين ، لا تبحث في جانب من جوانب سيرته إلا رجعت ببغيتك وزيادة وأغنتك عن البحث في غيرها.

نسأل الله تعالى أن يتقبل عمله بيمينه ، وأن ينميه له ليلقاه أحسن ما تمنى

"يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" ، فيه حب الله ، وحب رسوله ، وحب آل بيته وصحابته وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وزير العدل
والأوقاف والشئون الإسلامية

د. عبد الله معتوق المعتوق

صورة كلمة معالي الوزير

مقـدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهدُ أنْ لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

أمـا بعـد:

فهذه معشر الأحبة: أربعون خطبة، بعدد سنيِّ عمر الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، يوم بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وشاهداً على الخلائق أجمعين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠ ـ ٧١.

جمعت رواياتها من الصَّحِيحَيْن، وما جاء مسنداً في الكتب الخمسة[١]؛ بلا ريب ولا مَيْن، وقرَّبتُ دراياتها للقارىء كأنه يراها رأي عَيْن.

وقد ألَّفتُ بين هذه الروايات اللُّمع؛ بما يتناسب مع خطب الجمع، ولم أثقل متنها ولا حاشيتها بالإحالة؛ دفعاً للسآمة والملالة.

وكان الائتمام في جمع سيرة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: بخطى الحافظ الذهبي رحمه الله في كتابه: (تاريخ الإسلام).

كما كان الاسترشاد: بما زبره تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه: (زاد المعاد).

وكانت الهداية إلى اختلاف الرواية: بما نقله تلميذه الحافظ ابن كثير رحمه الله في كتابه: (البداية والنهاية).

ثم رجعت بعد ذلك للأصول؛ لأستوثق من صحة هذه النقول.

وقد اكتفيتُ في تفسير الغريب: بالإشارة التي يكتفي بها الحُرُّ اللبيب.

وكلمات هذا القول الحبير[٢]: قد ألقيتها من منبر المسجد الكبير.

وسمَّيتها:

(المنهل العذب النمير في سيرة السراج المنير)[٣]

---

(١) أي: مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، ومُجتبى النسائي، وسنن ابن ماجه.

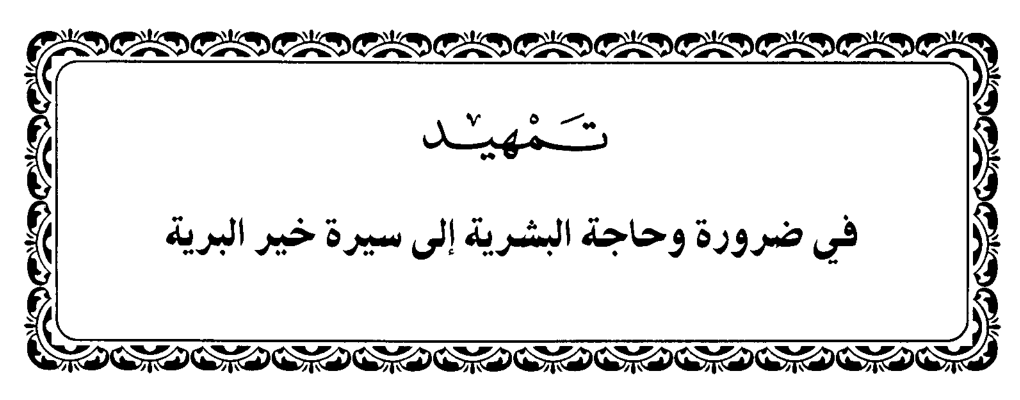
(٢) **تحبير القول**: تحسينه.

(٣) (**المنهل**): الموضع الذي فيه المَشْرَبُ. و(**العذب**): المستساغ الشُّرْب. و(**النمير**): الشَّرَابُ الزاكي الكثير، الناجع في الرِّيِّ.
وقد جاء وصف البشير النذير بـ(**السراج المنير**) في قول اللطيف الخبير:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥ ـ ٤٦].

واللهُ سبحانه وتعالى المسؤولُ فضله العظيم، والمأمول نفعه العميم: أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، مُدنياً لجامعه وقارئه من جنَّات النَّعيم، وأن يجعلَه حجَّة لهم لا عليهم، وأن ينفع به من انتهى إليهم.

ومن الله الاستمداد، وإليه الملجأ والاستناد، وعليه التَّوكل والاعتماد، فإنَّه لا يخيب من توكَّل عليه، ولا يضيع من لاذ به وفوَّض أمره إليه؛ إنَّه سبحانه خير مسؤولٍ، وأكرم مأمولٍ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حبره بكلمه؛ وزبره بقلمه:
أفقر الورى إلى غنى ربِّه العليِّ
وليد بن محمد بن عبد الله العلي
غفر الله له ولوالديه
ولزوجه ولذريَّته ولسائر المسلمين
يوم الجمعة ٧ رمضان ١٤٢٧هـ
الموافق ٢٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م



تَمْهيد

في ضرورة وحاجة البشرية إلى سيرة خير البرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين، ولا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له؛ إلـه الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين.

لا فوز إلاَّ في طاعته، ولا عزَّ إلاَّ في التذلل لعظمته، ولا غنى إلاَّ في الافتقار إلى رحمته.

إذا أُطيع شكر، وإذا عُصِيَ تاب وغفر، وإذا دُعِيَ أجاب، وإذا عُومِلَ أثاب.

شَهِدَتْ له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرَّتْ له بالإلـٰهية جميع مصنوعاته، وأذعنت بأنه الله الذي لا إلـه إلاَّ هو بما أودعها من عجائب صنعه وبدائع آياته.

سبحانه وبحمده عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ولا إلـه إلاَّ هو وحده لا شريك له في إلاهيته وربوبيته، ولا شبيه له في ذاته ولا أسمائه ولا صفاته.

تُسبِّح له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسُكَّانها، والبحار وحيتانها، والشجر والدَّواب والجبال، والآكام والحصى والرِّمال.

وأشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له؛ كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله الكرام، وشرع شرائع الأحكام، وبسببها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنَّة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى مؤمنين وكفار، وافترقوا إلى أَبْرَارٍ وفجار.

فعن كلمة الشهادة وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملَّة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله تعالى على جميع العباد؛ فهي كلمة الإسلام، ومفتاح الجنَّة دار السلام.

وعنها يسأل الله تعالى الأولين والآخرين: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾[1]؟ و ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]؟

فلا تزول قدما عبد بين يدي رب الأرباب، حتى يجيب عن هاتين المسألتين بمحض الصواب.

فجواب الأولى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟﴾: بتحقيق «لا إلـٰه إلاَّ الله»؛ معرفة وعملاً وإقراراً.

وجواب الثانية ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ؟﴾: بتحقيق «أن محمداً رسول الله»؛ اتباعاً وتأسياً وائتماراً.

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٧٥، ٩٢.

(٢) سورة القصص: الآية ٦٥.

وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُ الله ورسولُهُ، وأمينه على وحيِهِ وخيرتُهُ من خلقِهِ وخليلُهُ، المبعوثُ بـالـدِّيـنِ القويمِ، والمُرسلُ بالمنهجِ المستقيم؛ أرسلَهُ اللهُ بين يدي السَّاعةِ رحمةً للعالمينَ، وإماماً للمتَّقين، وحجةً على الخلائقِ أجمعينَ؛ وبعثه على حينِ فترةٍ من الرُّسلِ، فهدى بهِ إلى أقومِ الطُّرقِ وأوضح السُّبلِ.

وقد افترضَ اللهُ تعالى على العبادِ طاعتَهُ وتعزيرَهُ، ومحبَّتَهُ وتوقيرَهُ؛ وأمرَ بالقيامِ بحقوقِهِ، ونهى عن مخالفتِهِ وعقوقِهِ.

فصلَّى اللهُ وسلَّم على من شرح الله له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذِّلة والصَّغار على من خالف أمره.

وبعد: فاعلموا وفَّقكم الله لهداه، وجعل عملكم في رضاه، أنَّه بحسب متابعة الرَّسول ﷺ تكون العزَّة والكفاية والنُّصرة والقبول؛ كما أنَّه بحسب متابعته يكون في العاجلة الهداية والنجاح، وفي الآجلة النجاة والفلاح.

فالله سبحانه وتعالى علَّق سعادة الدَّارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدَّارين في مخالفته.

والرَّبُّ جلَّ جلاله يخلق ما يشاء ويختار؛ وهـذا الاختيـار والتخصيص: دالٌّ على ربـوبيـة الله تعـالـى ووحـدانيتـه، وكمـال حكمتـه وعلمـه وقـدرتـه بلا محيص.

وقد اختار الله تعالى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من ولد آدم، وهم أربعةٌ وعشرون ومائة ألف نبـيٍّ.

ثـمَّ اختـار منهـم الرُّسـل عليهم السَّلام، وهـم ثـلاثـة عشـر وثـلاثمائة رسول.

ثـمَّ اختـار منهـم أولـي العـزمِ؛ وهـم الخمسـة المـذكورون في سورتي (الأحزاب)[١] و (الشُّورى)[٢]: نوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمـدٌ صلَّى الله وسلَّم عليهم أجمعين.

ثمَّ اختار منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمداً صلَّى الله عليهما وعلى آلهما وسلَّم.

ثـمَّ اختـار منهما سيـد ولـد آدم: محمداً ﷺ، فهـو خيـارٌ من خيـارِ من خيـار.

وإن الألباب والعقول، مضطرةٌ لمعرفة سيرة الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه لا سبيل إلى السَّعادة والنَّجاح، والأنس والفلاح، في العاجلة والآجلة: إلاَّ في تصديق الرَّسول ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عمَّا نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلاَّ بما شرع وقرَّر.

فهـو الميـزان الـرَّاجـح الـذي تُـوزن بـه الأقـوال والأخـلاق والأعمـال، وبمتابعته يتميَّز الهدى من الضَّلال.

فالضَّرورة إلى معرفة هديه ودلِّه أعظم من ضرورة الأبدان إلى الأرواح، والعيون إلى النُّور الوضَّاح.

فأيُّ ضرورةٍ وحاجةٍ فرضها العباد؛ فضرورتهم وحاجتهم إلى معرفة سيرة رسول الله ﷺ يفوق الإحصاء والتَّعداد.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الآية ٧].

(٢) قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الآية ١٣].

فما ظنُّ المُحبِّ إذا غاب عنه هدي الحبيبِ وسيرته؟ لا جرم أن لبَّه سيفسد وتخبث سريرته!

فما حال المُعرضِ عن سيرة المصطفى ﷺ إلاَّ حال حوتٍ فارق الماء، ووُضع في مُقلاةٍ تحت الهواء.

هذا حال العقول إذا فارقت هدي الرَّسول ﷺ، بل أفظع وأشنع وأروع، ولكن لا يُحسُّ بهذا إلاَّ قلبٌ واعٍ، وأما قلبٌ في ظلم الخداع والضَّياع: فيراه النَّاظر بما صوَّره الشَّاعر:

من يهن يسهل الهوان عليه ــــ ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ(١)

وإذا كانت سعادة العبدِ في الدَّارين: معلَّقةً بمعرفة هدي النَّبيِّ ﷺ سيد الثقلين؛ وجب على كلِّ من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها، ورام نعيمها وسعادتها: أن يعرف مِن نبيِّه وحبيبه وخليله أخباره، حتى يقتفي سننه وآثاره.

والنَّاس في معرفة هدي النَّبيِّ المعصوم: ما بين مُستقلٍّ ومستكثرٍ ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وإذا أردتَ يا عبد الله أن تتعرَّف على نفسك وأنَّها على سنن أيِّ الطَّرائق الثلاث، حتى تُثير عزمك السَّاكن إلى الاتِّباع وتسير إلى مُتابعة حبيبك سير الحاثِّ؛ فاسمع إلى ما يُشنِّف الأسماع، ويُهذِّب الطِّباع، ويدعوه إلى الاتِّباع: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢).

---

(١) قال أبو الطيب المتنبي في أبيات يمدح فيها علي بن أحمد المري الخراساني.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

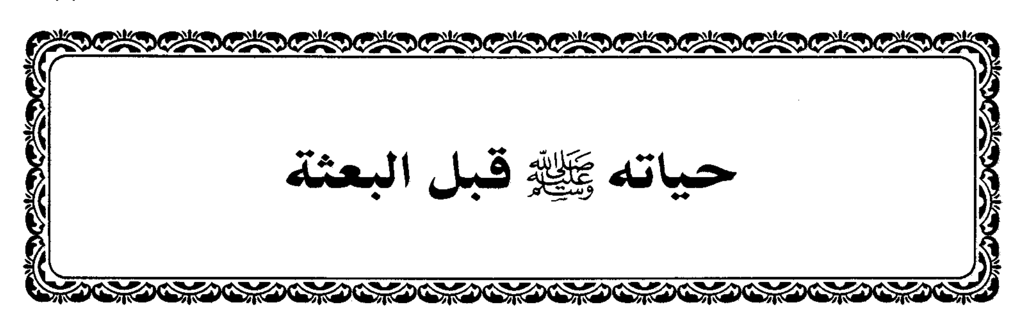
أهمية السيرة النبوية :

وقد جعل الرَّبُّ جلَّ ثناؤُه، وتقدَّستْ أسماؤُهُ، سنةَ نبيِّهِ وسيرتَهُ عِصمةً لمن لجأَ إليها، وجُنَّةً لمن استمسك بعروتِها الوثقى وعضَّ بالنواجذِ عليها.

فهي الحرمُ الذي من دخله كان من الآمنين، والحصنُ الذي من لاذَ به كان من الفائزين، ومن انقطع دونهُ كان من الهالكين.

وبين يديك سيرة النبـي المُتَّبِـع المطاع، التي تشنِّف الأسماع، وتهذب الطباع؛ تلك السيرة العطرة، والحياة النضرة، التي ما سمع التأريخ مثل خصالها، ولا رأى الدهر نظير خلالها؛ فالأفئدة لها واعية، والأسماع لها صاغية، والقلوب في شغف، والنفوس في لهف: إلى التعرف على سيرة نبيها المصطفى، والتبصُّر بحياة حبيبها المجتبـى ﷺ.

* * *



حياته ﷺ قبل البعثة

نسب النبـي ﷺ:

إن نبينا ﷺ هو خيرُ أهلِ الأرضِ نسباً على الإطلاق، فلِنَسبِهِ شرفٌ وعُلُوٌّ يُعانقُ السبعَ الطِّباق؛ فقومُهُ أشرفُ الأقوام، وقبيلتُه أشرفُ القبائلِ والفِئام.

فهو: محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطلب بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافِ بنِ قصيٍّ ابن كِلاب بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَي بنِ غالبِ بنِ فِهْر بنِ مَالك بنِ النَّضْرِ بنِ كنانةَ بنِ خُزَيمة بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَر بنِ نِزارَ بنِ مَعْدِ بنِ عدنان.

وأبوه عدنان: مـن ولـدِ إسماعيلَ صاحبِ القُربـان، ابـنِ إبراهيـمَ خليلِ الرحمـٰن.

وقـد أجرى اللهُ تعـالى العادةَ التي لا تتبـدَّل، والناموسَ الذي لا يتغيَّـر ولا يتحوَّل: أن من تركَ شيئاً لِلَّه عوَّضه الله خيراً منه.

وإبراهيمُ عليه السلام قد سأل ربَّه تبارك وتعالى بعدَ الكبَرِ الأولادَ؛ فوهَبَهُ الوهَّابُ سبحانه وتعالى بعدَ الثمانينَ إسماعيلَ عليه السلام حتى تملَّك حبُّه الفؤاد.

وقـد اتخـذ الله تعـالى إبـراهيـمَ خليـلاً، والخُلَّـةُ أعلـى مقـامـاتِ المحبـةِ ومراتبِها؛ وهي منصبٌ يقتضي توحيـدَ المحبوبِ بالمحبَّـةِ، وأن لا يتخـذَ معـه بديلاً.

فلما أخذَ إسماعيلُ الحليم شعبةً من شعبِ قلبِ والدِهِ الخليلِ إبراهيم عليه السلام؛ ابْتُلِـيَ الخليلُ برؤيا المنام، التي تَنفطِرُ لِهَوْلِها أفئدةُ الأنام، رؤيا ــ ورؤيا الأنبياءِ حقٌّ ــ لو سَمِعَها فاقد لوليدِهِ، ومُفارق لفقيدِهِ؛ لكانت لحُزْنِهِ سَلْوَة، ولمُصَابِهِ جَلْوَة.

فتدبَّر رعاكَ اللهُ ما قصَّهُ ربُّ الأرض والسماوات، على عبادِهِ في سورة الصَّافَّات، فقال ــ ومَن أصدقُ منه قيلاً ــ : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

وانظر إلى إبراهيمَ الخليل: لمَّا أراد أن يَبْتُرَ نسلَهُ امتثالاً لأمرِ ربِّهِ الجليل؛ بارك اللهُ تعالى له في نسلِهِ وجعلَهم خيرَ آلٍ، واختصَّهم بالنبوَّة والإرسال؛ وجعل جميعهم من ذريةِ إسحاقَ العليم، إلاَّ خاتَمهم وإمامَهم فهو من نسلِ إسماعيلَ الحليم.

فحُقَّ لبيتٍ هذا أهلُهُ: أن ينعقد على حُبِّهِ الجَنان، وأن يلهجَ بالصلاةِ والسلام عليه اللسان، ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[(٢)].

* * *

(١) سورة الصافات: الآيات ٩٩ ــ ١١١.

(٢) سورة هود: الآية ٧٣.

مولده ﷺ ونشأته:

وُلِدَ محمَّدٌ الخليل ــ عليه أفضل الصلاة والسلام والتبجيل ــ في عام الفيل، وتوفي أبوه عبد الله وهو حَمْلٌ في بطنِ أمِّه جنين، ثم توفيت أمه آمنةُ، ولم يستكمل لابنها إذ ذاك سبعُ سنين.

ثم كَفَلَهُ جدُّه عبدُ المطلب، فإذا بداعي الموت يدعوه ويجدُّ له في الطلب، وحفيده إذ ذاك قد ناهز الثمان، واليتمُ قَد أحاطَ بِهِ واشتدَّت منهُ الأركان.

فلا إلـه إلَّا اللهُ الملكُ الحقُّ، كيف حَفظَ هذا اليتيمَ وهو يركبُ طِبَاقَ اليُتْمِ طَبَقاً عن طَبَق.

وَجَدَه يتيماً فآواه، وضالاًّ فهداه، وعائلاً فأغناه؛ فشَرَحَ لَهُ الصَّدْر، ووَضَعَ عنه الوِزْرَ، ورَفَعَ لهُ الذِّكْر.

فما جَادت القرونُ ولا العقود ــ ولنْ تَراها أَبدَ الآبادِ تَجُود ــ بمثل هذا اليتيمِ المُباركِ المحمود.

يتيمٌ ولَكِنْ ليسَ كسائرِ الأيتام؛ فهو اليتيمُ الذي كَفَلَ الأرامل والأيتام، وهَدَى بإذن ربِّه الأنام، وأَخْرَجَهُمْ إلى النورِ بعدَ الظلام، ودعاهُم إلى الجنةِ دار السلام.

أَتَـى اليتيـمُ أبـو الأيتـامِ فـي قَـدَرٍ ... أنهـى لأُمتـهِ مـا كـان مـن يُتَـمِ
مِن رَقْدَةٍ في دِثَارِ الشِّرْكِ واللَّمَمِ ... مُحـرِّرُ العقـلِ بـاني المجدِ بـاعثُنـا(١)

فـإذا أردت يـا عبـد الله؛ أن يحفـظـك فـي ذريتـك بعـد مـوتـك الله: فاتق الله.

---

(١) قالهما الدكتور عائض القرني في (تاج المدائح).

قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾(١).

فانظر ــ رعاك الله ــ إلى إبراهيم وابنه إسماعيل، لما اتَّقيا ربَّهما الجليل؛ حفظهما في ابنهما محمدٍ الخليل.

وما قصةُ الرجلِ الصالحِ عنك ببعيد، وكيف حفظ الله تعالى لذريته الكنز التليد، كما قصَّ الله تعالى علينا نبأهُ في قصةِ موسى والخَضِر، في أعجب قصصٍ وخَبَر، فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(٢).

فمن حفظ الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه وزواجره: حفظه الله ورعاه، وبارك له فيما وهبه وأعطاه؛ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٣).

* * *

زواجه ﷺ من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

لما كمل لنبينا ﷺ من العمر خمسة وعشرين، تزوج خديجة بنت خويلد وهي ثيِّبٌ قد ناهزت إذ ذاك الأربعين، وهي أول حليلة سترها بلحافه وكسائه، وأول امرأة ماتت من نسائه، لم ينكح عليها ضرَّة، وكانت لعينه قُرَّة.

وقد أتى جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله؛ هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام

---

(١) سورة النساء: الآية ٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٣) سورة يوسف: الآية ٦٤.

من ربها ومني، وبشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[١].

فانظر رعاك الله؛ كيف جوزيت ربة بيت النبوة رضي الله عنها بهذا الجزاء، وكيف أكرمت بهذا العطاء.

والجزاء من جنس العمل.

فهي لم تُحْوِجِ النبي ﷺ في يوم من الأيام إلى رفع صوت ولا لجاج، ولا منازعة ولا حِجاج، بل أزالت عنه كل نصب، وأنسته كل وحشة وتعب، وهوَّنت عليه كل عسير، وخفَّفت عنه كل خطير.

* * *

أولاده ﷺ وذريَّته:

إن خاتم النبيين والمرسلين ــ صلَّى وسلَّم عليه رب العالمين ــ كما رزق الوداد لخديجة سيدة نساء العالمين، فقد رزق منها الأولاد من بنات وبنين.

فأكبر الابنين: القاسم وبه كان يكنى سيد الثقلين، ثم عبد الله الملقب بالطيب والطاهر، وقد ماتا صغيرين ونبي الله ﷺ على فراقهما محتسب وصابر.

فقال العاص بن وائل: قد انقطع نسل محمد فهو أبتر!

فتولى الله الدفاع عن نبيه ذي الوجه الأنور، والجبين الأزهر، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[٢].

لا تحزن يا محمد؛ فإن ذكرك مرفوع، وشانِئك هو الأبتر المقطوع، ومبغضك هو الأسفل الأرذل الموضوع.

---

(١) **القصب**: اللؤلؤ المُجوَّف والدرُّ والزبرجد الرَّطبُ المُرصَّع بالياقوت. **والصخب**: الصياح والجلبة وشدَّة الصوت. **والنصب**: التعب والكدُّ والجَهْد.

(٢) سورة الكوثر: الآيات ١ ــ ٣.

وأما بناته ﷺ الأربع، ذوات القدر العليِّ الأرفع: فأكبرهن زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة رضي الله عنهن.

فأما زينب رضي الله عنها: فقد زوجها النبي ﷺ لابن خالتها أبي العاص ابن الربيع رضي الله عنه، وأمه هالة بنت خويلد رضي الله عنها، وقد أنجبت له: عليًّا وأمامة.

وقد أرسلت زينب إلى أبيها المصطفى المختار، تدعوه ليوافي ابنها عليّاً في ساعة الاحتضار، فأرسل إليها رسوله يقرئها السلام ويدعوها إلى الاصطبار، وأمره أن يذكرها بما قدر الله وقضى، وأن يقول لها: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب.

فأرسلت زينب إلى أبيها، تقسم عليه أن يأتيها.

فقام ﷺ ـ ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم ـ فرُفِع إلى الجدِّ الحميد: الصبيُّ الحفيد، ونفسه تتقعقع؛ فإذا بعينه ﷺ تدمع!

فقال سعد: يا رسول الله؛ ما هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

فلما كانت السنة الثامنة: توفيت الكريمة بنت الكريم، فدخل عليها أبوها ﷺ وهو على فراقها محزون وكليم؛ فأعطى مُغَسِّلتها أم عطية رضي الله عنها إزاره المنيف، وأمرها أن تجعله في كفنها مما يلي جسدها الشريف.

وكان رسول الله ﷺ بعد أن فارقت زينب الحياة، ربما حمل ابنتها أمامة في الصلاة؛ فإذا سجد وضعها، وإذا قام رفعها.

وأمَّا رقية رضي الله عنها: فقد زوجها النبي ﷺ لعثمان بن عفان، ولنعم الزوج كان، وقد وهبها الله من عثمان ابنها عبد الله.

ثم مرضت رضي الله عنها بعد هجرتها إلى المدينة بعامين، فقام عثمان بتمريض زوجه ومن جعلت له قرة عين؛ فتوفيت ورسول الله ﷺ منصرفٌ منتصرٌ في غزوة بدر، لتمتزج حلاوة النصر بمرارة الصبر.

وأما أم كلثوم رضي الله عنها: فقد زوجها رسول الله ﷺ بعد موت أختها بستة أشهر لعثمان، فتوفيت عنه ولم تلد له، وكان ذلك سنة تسع في شعبان.

فكان عثمان يُسَمَّى: ذا النورين، لأنه استنار بشهابٍ قبسٍ من نور سيد الثقلين.

وقد حضر رسول الله ﷺ وفاتها، وشهد جنازتها، فجلس على القبر، وعيناه تدمعان، فقال: هل منكم رجل لم يقارف الليلة[١]؟

فقال أبو طلحة رضي الله عنه: أنا.

فقال رسول الله ﷺ: فانزل.

فنزل أبو طلحة في قبرها.

وأمَّا فاطمة رضي الله عنها ــ وهي أصغرهن ــ: فقد شرَّف بها رسول الله ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فكان له نعم الصهر، فدخل بها بعد غزوة بدر؛ وولدت له الحسن والحسين وزينباً وأم كلثوم.

وقد كانت فاطمة أحبَّ الناس إلى أبيها، فقد كان يقربها ويدنيها، حتى إنها أتت إلى أبيها ﷺ يوماً فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا عليٌّ ناكحٌ بنت أبي جهل.

فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فتشهد ثم قال: أما بعد: أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن

---

(١) أي: لم يجامع أهله.

يسوءها، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، ولكن والله، لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد.

فترك عليٌّ الخطبة.

وجميع بنات النبي ﷺ تُوُفِّينَ قبله، إلاَّ فاطمة رضي الله عنها فقد تُوُفِّيتْ بعده بستة أشهر لتكون للصابرين قبلة، وقد رفع الله تعالى درجتها في عِلِيِّين جزاء صبرها، حتى فضلت على نساء العالمين في دهرها.

وكان النبي ﷺ لفرط حبه لابنته فاطمة يحب ابنيها: الحسن والحسين رضي الله عنهما، وكانا ريحانتيه من الدنيا.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفة من النهار، لا يكلمني ولا أكلمه، حتى جاء سوق قينقاع، ثم انصرف، حتى أتى خِباء[١] فاطمة، فقال: أَثَمَّ لكع؟ أثَمَّ لكع[٢]؟.

فحبسته فاطمة تغسله وتلبسه سِخَاباً[٣]، فلم يلبث أن جاء الحسن يسعى، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه، فقال ﷺ: اللّـٰهُمَّ إني أحبه فأحبه، وأحبب من يحبه.

وقال سلمة بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه: قدت بنبي الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء، حتى أدخلتهم حجرة النبي ﷺ، هذا قدامه، وهذا خلفه.

وقد انقطع نسل سيد الثقلين، إلاَّ ما كان من جهة ابنيه الحسن والحسين.

---

(١) أي: بيت.

(٢) أي: ابنها الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٣) أي: قلادة من القرنفل والمسك والعود.

وجميع أولاد خاتم الأنبياء والمرسلين، من زوجه الودود الولود خديجة سيدة نساء العالمين.

إلاَّ ابنه إبراهيم فأمه مارية القبطية، وهي جارية خير البرية. وقد بَشَّر بمقدمه رسولُ الله ﷺ أحبابه، وأنبأ بمولده أصحابه، فقال: ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبـي إبراهيم.

وكان رسول الله ﷺ يدعوه ويضمه، ويقبله ويشمه.

حتى دخل عليه ذات يوم مع بعض جُلاَّسه، وإبراهيم يجود بأنفاسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان الدموع، حتى علته السكينة والخشوع!

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟!

فقال رسول الله ﷺ: يا ابن عوف! إنها رحمة؛ تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلاَّ ما يرضي ربنا؛ والله يا إبراهيم، إنا على فراقك لمحزونون.

فيا من ابتلي بهلاك وليده، أو فجع بموت حفيده، أو أصيب بفراق فقيده: هذا سيد العالمين، قد جعله ربه قبلة للصابرين، وجعل سيرته مهوى أفئدة المبتلين.

هنيئاً للصابر على بلواه، هنيئاً لمن لم يخمش وجهاً ولم يشق جيباً ولم يصرخ بأوَّاه.

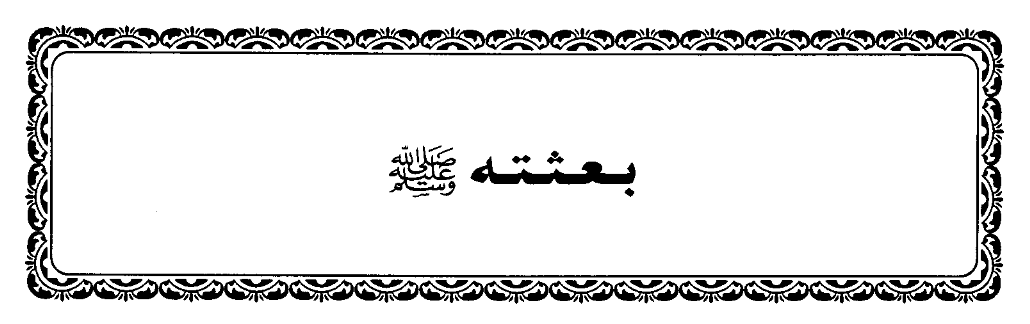
اسمع لبشرى المصطفى، ووعد المجتبى، المخفِّفة لكلِّ بلوى، يقول الله تعالى: «**ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه: إلاَّ الجنة**».

واعلموا أن رحمات ربكم الرحمٰن، إنما تستمطر سحائبها الوابلة برحمتكم ومحبتكم وشفقتكم وتقبيلكم للولدان.

فقد قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعنده الأقرع بن حابس التيمي جالساً، فقال الأقرع: إني لي عشرة من الولد، ما قبّلتُ منهم أحداً!

فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: من لا يَرحم لا يُرحم، أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك، فما ذنبي؟

* * *



بعثته ﷺ

لما كَمُلَ لخاتم النبيين ـ صلَّى وسلَّم عليه رب العالمين ـ تمام الأربعين، وهي سن الكمال، الذي تنضج فيه عقول الرجال: أُري في منامه رؤى الصلاح، التي كانت تقع كفلق الإصباح، ثم حُبِّبَ إليه الخلوة والتفرد، والتحنث لربه والتعبد؛ وقد بُغِّض إليه الأوثان والأصنام، وفطر على عبودية الملك العلام؛ فلم يزل على ذلك حتى أشرق عليه نور النبوة في غار حراء، وأكرمه الله تعالى بالرسالة والاصطفاء.

وكان مبعثه إلى الثقلين، في يوم الاثنين، كما كانت ولادته في هذا اليوم، الذي أحبَّ النبيُّ ﷺ لنفسه واستحب لأمته فيه الصوم.

فيا من رام احتفالاً بمولد النبي المصطفى، وابتهاجاً ببعثة الرسول المجتبى: عليك باقتفاء آثار النبي وسنته، وصيام هذا اليوم شكراً لله على مِنّته.

فلما فاجأ الوحيُ النبيَّ بـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]، أُرْتِجَ عليه فما أجاب ولا نطق؛ ورجع إلى خديجة يرجف جنانه، وترتعد أركانه؛ فدخل عليها، وأوى إليها، وأمرها أن تزمِّله بالكساء، وتدثِّره بالغطاء، وقال لها ـ فداه أبي ونفسي ـ: لقد خشيتُ على نفسي.

---

(١) سورة العلق: الآية ١.

فأجابت خديجة حِبَّها، ثقة بربها: كلاَّ والله، ما يخزيك الله أبداً، إنك لتَصِلُ الرحم، وتَحمل الكلَّ، وتكْسِب المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

فحُقَّ لامرأة هذا عقلها الرجيح، ومنطقها الفصيح: أن يحفظ لها الوداد، وأن يخالط حبها بشاشة الفؤاد.

تقول عائشة زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها؛ ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربَّما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلاَّ خديجة!!

فيقول النبي ﷺ: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد.

فيا متبعاً لهذا النبي الكريم، أين أنت من هذا الخلق العظيم، والسلوك القويم؟

أين خيريَّتك لأهلك وبنيك، كفاهم منك هجرك وتجافيك؛ عاشرهم لوجه ربك المَعْشَر الحسن، ولا يكن حظهم منك وقت الطعام والمنام والوَسَن.

واعلم أنك مسؤول عن هذه الأمانة وراعٍ؛ فسائل نفسك: هل أنت في رقيٍّ في درجات الحفظ أو في هُوُيٍّ في دركات الضياع؟!

بين أذى الأقربين وندى الأعجمين:

لقد هبَّت بعدَ بعثةِ النبيِّ المصطفى المختار، عواصفُ الأقضيةِ والأقدارِ؛ فتقلَّب لأجل ذلك الوجودُ أشدَّ من تقلُّبِ الليلِ والنهارِ.

فهَدَأتْ الرياحُ، ونبيُّ الله ﷺ يصيحُ في قومِهِ أشدَّ الصِّياح، ويُناديهم: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.

فإذا بعمِّ النبيِّ ﷺ عبدِ العُزَّى قد تبَّتْ يداه وتُوُعِّد بِصَلْيِ نارٍ ذاتِ لهبٍ وحريق، وعمِّه أبـي طالبٍ في لُجَّةِ تقليدِ مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ غريق.

وإذا بصُهيبٍ يقدم من الرومِ قد هُدِيَ سَواءَ الطريق، وسلمانُ يهرب من فارسٍ ليحظى من المصطفى ببشرى: سلمانُ مِنَّا أهلَ البيت فأكرمْ بهِ من تابعٍ ولَحيق.

فلا إلـه إلَّا اللهُ الملكُ الحقُّ المبين، نزَّل الروحَ الأمين بالكتابِ المبين، على قلبِ خاتمِ النبيِّينِ والمرسلين ليكونَ من المُنْذِرين؛ ليَشْرَح به صدورَ بعضِ الأعجمين، ويَصْرِفَ بهِ قلوبَ بعضِ العشيرةِ الأقربين.

وقد أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، فخرج رسولُ الله ﷺ حتى صَعِدَ الصفا، فهتف: يا صَبَاحاه!

فقالوا: من الذي يَهْتِفُ؟

فقالوا: مُحَمَّدٌ.

فاجتمعوا إليه.

فقال رسولُ الله ﷺ: أرأيتُكُم لو أخْبَرْتُكُم أنَّ خيلاً تخرجُ بسَفْحِ هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِـيَّ؟

قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً.

فقال رسول الله ﷺ: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ.

فقال أبو لهب: تبّاً لك! ألهذا جمعتنا؟!

ثم قام؛ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾(١).

وهذا عمُّ النبيِّ ﷺ أبو طالبٍ، يقتطعه قُطّاعُ طريقِ الحقِّ واللهُ على أمرِهِ غالبٌ؛ ينهى المشركين أن يُؤذوا الرسول، وهو يَنْأى ويبتعدُ عن الإجابةِ والقبول!!

لذا جاء في القرآن الكريم وصفُهُ بالهلاك، لأنه تعثّر بتقليدِ آبائه بالشِّراكِ والشِّباكِ، قال الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

فلما دنا من أبي طالب الأجل، وحانت ساعةُ طيِّ صحائفِ العمل، دخل عليه النبيُّ ﷺ فوجد عنده أبا جهلٍ وعبدَ الله بنَ أُميّةَ، فقال له النبيُّ ﷺ: أيْ عمِّ، قلْ: لا إله إلاَّ اللهُ، كلمةً أُحاجُّ لكَ بِها عندَ الله.

فقال صاحبا السُّوءِ له: يا أبا طالبٍ؛ ترغبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟!

وهكذا، حتى كان آخرُ شيءٍ كلَّمَهُم به: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ.

وقال لابن أخيه ﷺ: لولا أن تُعيِّرَني قريشٌ ـ يقولون: إنما حَمَلَهُ عليه الجزَعُ ـ؛ لأَقْرَرْتُ بها عَيْنَكَ.

فلما ماتَ قال رسولُ الله ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْكَ.

فنزلت هذه الآية: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٣ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ

---

(١) سورة المسد: الآيات ١ ـ ٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٦.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[١].

فلما بَخَعَ النبيُّ ﷺ نفسَه على آثارِ عمِّه إذ لم يُؤمن ببعثتِه أسَفاً، واشتدَّت حسرتُه على موتِه حتى كادَ يَهْلِكَ بِسَبَبِهِ تَلَفاً: نَزَلَت في العم، ما يُذهبُ الغمَّ والهمَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

فسبحانَ من أعمى بصيرةَ أبـي طالبِ القُرَشِيِّ العربـيِّ، وأقرَّ بالإِسلامِ عينَ سلمانَ الفارسيِّ الأعجميِّ.

❋ ❋ ❋

قصة إسلام سلمان رضي الله عنه:

فانظر إلى كلام سلمان، وهو يقصُّ علينا نبأ الإِسلام والإِيمان، فيقول:

كنت رجلاً من أهلِ فارسٍ، وكان أبـي دِهْقَانَ أرضِه[٣]، وكان يُحِبُّني حُبّاً شديداً، لم يُحِبُّه شيئاً من مالِهِ ولا ولدِهِ، فما زال به حبُّه إيايَ حتى حبَسَنِي في البيتِ كما تُحبسُ الجاريةُ!!

اجتهدتُ في المجوسيةِ حتى كنتُ قَطِنَ[٤] النَّار التي يُوقِدُها، فلا أترُكُها تخبو ساعةً.

فدعاني أبـي فقال: أي بُنَيَّ، انطلقْ إلى ضيعتي ولا تَحْتَبِسْ عليَّ؛ فإنك إن احتبستَ عني شغلني ذلكَ عن كلِّ شيءٍ.

فخرجتُ أُريدُ ضيعتَه، فمررتُ بكنيسةٍ للنَّصارى، فأعجبَني حالُهم، فوالله ما زلتُ جالساً عندهم حتى غربَت الشمسُ؛ وبعثَ أبـي في طلبـي في كلِّ وَجْهٍ، حتى جئتُه حين أمسيتُ، ولم أذهبْ إلى ضيعتِه.

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١١٣ ــ ١١٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٦.

(٣) أي: رئيس قومه.

(٤) أي: خادم.

فقال: أين كنتَ؟

فقلتُ: مررتُ بالنَّصارى فأعجبني صلاتُهم ودعاؤُم.

فقال: أي بُنَيَّ، دينُك ودينُ آبائِكَ خيرٌ مِنْ دينِهم.

فقلت: لا والله، ما هو بخيرٍ من دينِهم؛ هؤلاء قومٌ يعبدونَ الله، ونحنُ نعبدُ ناراً نُوقِدُها بأيدينا؛ إذا تركناها ماتَتْ.

فخاف أبـي عليَّ؛ فجعل حديداً في رجليَّ، وحبسني.

فبعثتُ إلى النصارى: فقلت: أين أهلُ هذا الدينِ الذي أراكم عليه؟

فقالوا: بالشام.

فقلتُ: إذا قَدِمَ عليكم من هناك ناسٌ فآذِنُوني بهم.

فقَدِمَ عليهم ناسٌ من تُجَّارِهم فآذنوني، فطَرَحْتُ الحديدَ من رِجلَيَّ ولحقتُ بهم، فقدمتُ معهم الشامَ، فقلتُ: مَنْ أفضلُ أهل هذا الدينِ؟

فلا يَزَالُ يُدَلُّ على خيرِ أساقِفَتِها، كلما أَوْشَكَ أَسْقُفٌ أن يَهْلِكَ، التمس سلمانُ منه أن يُوصي به إلى أفضل أهلِ دِيَانَتِهِ، فلا زال سلمانُ ينتقلُ من الشامِ إلى المُوصِلِ إلى نَصِّيبِينَ إلى عمُّوريةَ بالرُّوم، حتى أقام عند آخر عُبَّادِها سنينَ واكتسبَ، فكان له غُنيمةٌ وبُقيراتٌ، فلما احتضر كلَّمه سلمانُ أن يُوصِـي به إلى رجل آخرَ.

فقال له العابدُ: أيْ بُنيَّ، والله ما أعلمُ بقي أحدٌ على مثل ما كُنَّا عليه، ولكن قدْ أظلَّك زمانُ نبـيٍّ يُبعثُ من الحرم، مُهاجَرُهُ بين حرَّتينِ[1] في أرضٍ سَبِخَةٍ[2] ذاتِ نخلٍ؛ وإنَّ فيه علاماتٍ لا تَخْفَى: بين كتفيهِ خاتمُ النُّبوةِ، يأكلُ

(١) أي أرض صلبة غليظة، ألبست حجارة سود، كأنها أُحرقت بالنار.

(٢) أي: الأرض التي تُنبت الملح، وتسوخ فيها الأقدام.

الهديَّةَ ولا يأكلُ الصدقةَ، فإن استطعتَ أن تَخْلُصَ إلى تلك البلادِ فافعلْ، فإنَّهُ قد أظلَّك زمانُه.

قال سلمان: فلما وارِيناهُ أقمتُ حتى مرَّ بي رجالٌ من تُجَّارِ العربِ، فقلتُ لهم: تحملوني إلى أرضِ العربِ، وأنا أُعطيكم غُنيمتي وبقراتي؟

قالوا: نعم.

فأعطيتُهم إياها وحملوني، حتى إذا جاؤوا بي وادي القرى: ظلموني، فباعوني عبداً من رجلٍ يهوديٍّ، ثم قَدِمَ رجلٌ من بني قُريظةَ فابتاعني، فخرج بي حتى قدمنا المدينة؛ فوالله، ما هو إلاَّ أن رأيتُها: فعرفت نعتَها، فأقمتُ في رقِّي.

وبعث اللهُ رسولَه ﷺ في مكةَ، لا يُذكرُ لي شيءٌ من أمره، مع ما أنا فيه من الرِّقِّ، حتى قَدِمَ قُباءَ، وأنا في عملِ صاحبي في نخلِهِ؛ فوالله، إني لَفِيها إذ جاء ابنُ عمٍّ له فقال: يا فلانُ: قاتلَ اللهُ بني قَيْلَةَ[١]؛ والله، إنهم الآن مجتمعونَ على رجلٍ جاءَ من مكةَ يزعمونَ أنَّهُ نبيٌّ.

فوالله، ما هو إلاَّ أن سمعتُها فأخذتني العَرْواءُ[٢]، حتى ظننتُ لأسْقُطَنَّ على صاحبي، ونزلتُ أقول: ما هذا الخبرُ؟

فرفعَ مولايَ يدَهُ فلَكَمَني لكمةً شديدةً، وقال: ما لك ولهذا، أقبل على عملِك.

فقلتُ: لا شيءَ؛ إنما سمعتُ خبراً فأحببتُ أن أعْلَمَه.

---

(١) أي: الأوس والخزرج.

(٢) أي: الرعدة الشديدة.

فلما أمسيتُ وكان عندي شيءٌ من طعامٍ، فحملتُه وذهبتُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو بقباء، فقلتُ له: بَلَغَنِي أَنَّك رجلٌ صالحٌ، وأن معك أصحاباً لك غُرَبَاءَ، وقد كان عندي شيءٌ للصدقة، فرأيتُكم أحقَّ مَنْ بهذه البلاد؛ فهَاكَهَا، فكُلْ مِنْهُ.

فأَمْسَكَ رسولُ الله ﷺ، وقال لأصحابه: كُلُوا.

فقلتُ في نفسي: هذه واحدةٌ.

ثم رجعتُ، وتحوَّلَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ، فجمعتُ شيئاً ثم جئته به، فقلتُ: هذا هديةٌ.

فأكلَ رسولُ الله ﷺ وأكلَ أصحابُه.

فقلتُ: هذه خَلَّتان.

ثم جئتُه وهو يَتْبَعُ جنازةً، وعليَّ شَمْلَتان لي، وهو في أصحابه، فاستدرتُ لأنظرَ إلى الخاتم.

فلما رآني اسْتَدْبَرْتُه: عَرَفَ أني أَسْتَثْبِتُ شيئاً وُصِفَ لي، فوَضَعَ رداءَه عن ظهرِهِ، فنظرتُ إلى الخاتمِ بين كَتِفَيْهِ كما وَصَفَ لي صاحِبي، فأكْبَبْتُ عليه أُقَبِّلُه وأبكي.

فقال رسولُ الله ﷺ: تحوَّل يا سلمانُ هكذا.

فتحوَّلتُ فجلستُ بين يديه، وأحبَّ أن يسمعَ أصحابُه حديثي.

* * *

وكأني بنداءِ الحقِّ يطرقُ الأسماعَ، ليعتبر الأصحابُ والأتباعُ: يا محمدُ، أنت تريدُ عمَّك أبا طالب، والحقُّ لسلمانَ لاحِقٌ وطالب.

وعمُّك أبو طالب: إذا سُئِلَ عن اسمِهِ، قال: عبدُ مناف، وإذا دُعِيَ إلى

توحيدِ الله فهُوَ له ناف، وإذا انتَسَبَ افْتَخَرَ بعبدِ المُطَّلِبِ، وإذا ذُكِرَتْ الأموالُ عدَّ الإبلَ والذَّهَب.

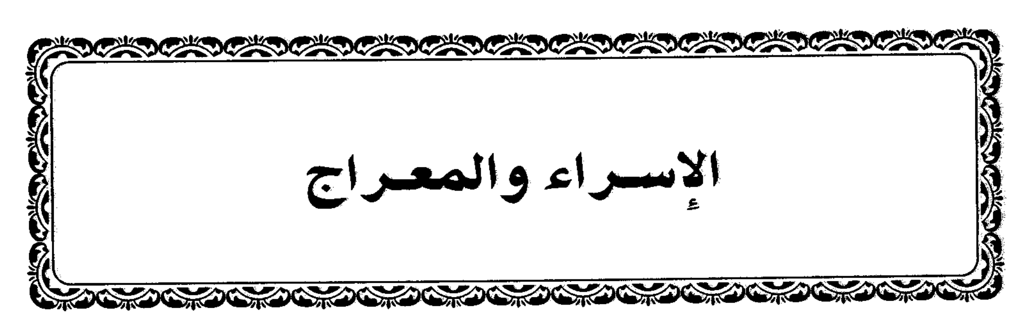
وصاحِبُكَ سلمانُ: إذا سُئِلَ عن اسمِهِ، قال: بعبدِ اللهَ تُنادِيني، وإذا ذُكِرَتْ الأديان قال: الإسلامُ ديني؛ فليس له مالٌ إلاَّ: الفقر، ولا كسبٌ إلاَّ: الصبر؛ لباسُه: التقوى، والمسجدُ: حانوتُه الذي إليه أوى.

وصدق الله العظيمُ إذ يقول: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٧٨ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[١].

* * *

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٧٨ ـ ١٧٩.



الإسـراء والمعـراج

لقد ابتلي نبيُّنا ﷺ بموتِ زوجِهِ وعمِّه في عامٍ واحدٍ، ليُفْتَحَ في وجههِ الكريمِ بابُ المصائبِ والفتنِ والمكائِدِ.

فسلَّى اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ برحلةِ الإسرى، من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، فأُسري بجسدِهِ وروحِهِ إلى الشام، ثم عُرِجَ به إلى الملكِ العلامِ.

فتأمل حديث المُصطفى الكريم، وهو يقصُّ علينا نبأَ مَسْرَاهُ ومِعْرَاجِهِ العظيم:

قال ﷺ: بينما أنا في الحِجرِ مُضطجعاً بين النائم واليقظان، إذ أتاني آتٍ، فشقَّ ما بين هذِهِ وهذِهِ[1]، فاستَخْرَجَ قلبي، ثُمَّ غَسَلَهُ بماءِ زَمْزَم، ثم أُتِيتُ بِطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسِلَ قلبي، ثُم حُشِيَ إيماناً وحكمة، ثم أُعيدَ.

ثم أُتِيتُ بدابَّةٍ دون البغلِ وفوقَ الحمارِ أبيض؛ وهو البُراقُ، يَضَعُ خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفِهِ، فَرَكِبْتُه حتى أَتَيْتُ بيتَ المَقدسِ، فربطتُه بالحَلقةِ التي يَرِبطُ به الأنبياءُ، ثم دخلتُ المسجدَ.

وقد رأيتُني في جماعةٍ من الأنبياءِ؛ فإذا بموسى قائمٌ يُصلِّي، فإذا رجلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كأنَّه من رجالِ شَنُوءَةٍ؛ وإذا بعيسى بنِ مريم قائمٌ يُصلِّي، أقربُ

(١) أي: ما بين ثُغْرَةِ نَحْرِه إلى شَعْرِ عانَتِه.

الناسِ به شَبَهاً عروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفيُّ؛ وإذا إبراهيمُ قائمٌ يُصلِّي، أشبهُ الناسِ به صاحِبُكُم[١].

فحانت الصلاةُ، فأَمَمْتُهُم؛ فلما فَرَغْتُ من الصلاةِ، قال قائلٌ: يا محمدُ، هذا مالكٌ خازنُ النارِ، فسلِّم عليه.

فالتفتُّ إليه، فبَدَأَنِـي بالسلامِ.

ثم جاءني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، وإناءٍ من عسل، فأخذتُ اللبنَ، فقال جبريلُ: هذه الفطرةُ، أنتَ عليها وأُمَّتُك.

فانطلق بـي جبريلُ حتى أتى السماءَ الدنيا، فقال لخازنِ السماء الدنيا: افْتَحْ.

فقيلَ: مَنْ هذا؟.

قال: جبريل.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدمُ!

فقال جبريلُ: هذا أبوكَ آدمُ، فسلِّمْ عليه.

فسلمتُ عليه؛ فردَّ السلامَ ثم قال: مرحباً بالابنِ الصالحِ، والنبـيِّ الصالحِ.

---

(١) أي: نفسه الشريفة.

فإذا على يمينِه أَسْوِدَةٌ، وعلى يسارِه أَسْوِدَةٌ، إذا نَظَرَ قِبَلَ يمينِه ضَحِكَ، وإذا نَظَرَ قِبَلَ يسارِه بَكَى.

فقال جبريلُ: هذه الأَسْوِدَةُ عن يمينِه وشمالِه: نَسَمُ بَنِيه، فأهلُ اليمينِ منهم: أهلُ الجنَّةِ، والأَسْوِدَةُ التي عن شمالِه: أهلُ النار، فإذا نَظَرَ عن يمينِه: ضَحِكَ، وإذا نَظَرَ قِبَلَ شمالِه: بَكَى.

ثمَّ صَعِدَ بـي حتى أتى السماءَ الثانيةَ، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ.

قيل: من هذا؟

قال: جبريلُ.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ إذا يحيـى وعيسى، وهما ابنا الخالةِ!

فقال جبريلُ: هذا يحيـى وعيسى، فسلِّم عليهما.

فسلمتُ؛ فردَّا ثم قالا: مرحباً بالأَخِ الصالحِ، والنبـيِّ الصالحِ.

ثم صَعِدَ بـي إلى السماءِ الثالثةِ، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ.

قيل: مَنْ هذا؟

قال: جبريلُ.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ إذا يوسفُ، فإذا هو قد أُعْطِـي شَطْرَ الحُسْنِ!

فقال جبريلُ: هذا يوسفُ، فسلِّمْ عليه.

فسلَّمتُ؛ فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخِ الصالحِ، والنبـيِّ الصالحِ.

ثمَّ صَعِدَ بـي حتى أتى السماءَ الرابعة، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ.

قيل: من هذا؟

قال: جبريلُ.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: أوقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ إذا إدريس!

فقال جبريلُ: هذا إدريس، فسلِّم عليه.

فسلمتُ عليه؛ فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخِ الصالحِ، والنبـيِّ الصالحِ، وهو قولُ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1].

ثمَّ صَعِدَ بـي حتى أتى السماءَ الخامسة، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ.

---

(١) سورة مريم: الآية ٥٧.

قيل: من هذا؟

قال: جبريلُ.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا هارون!

فقال جبريلُ: هذا هارون، فسلِّم عليه.

فسلمتُ عليه؛ فردَّ ثم قال: مرحباً بالأَخِ الصالحِ، والنبـيِّ الصالحِ.

ثمَّ صَعِدَ بـي حتى أتى السماءَ السادسة، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ.

قيل: من هذا؟

قال: جبريلُ.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا بموسى!

فقال جبريلُ: هذا موسى، فسلِّم عليه.

فسلمتُ عليه؛ فردَّ ثم قال: مرحباً بالأَخِ الصالحِ، والنبـيِّ الصالحِ.

فلما تجاوزتُ بكى موسى!

فقيل له: ما يبكيك؟

قال: أبكي لأنَّ غُلاماً بُعِثَ بَعْدي، يدخلُ الجنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أكْثَر مِمَّن يَدْخُلُها مِن أُمَّتي.

ثمَّ صَعِدَ بـي حتى أتى السماءَ السابعةَ، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ.

قيل: من هذا؟

قال: جبريلُ.

قيل: ومَنْ مَعَكَ؟.

قال: محمدٌ.

قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟

قال: نعم.

قيل: مَرحباً به، فنِعْمَ المَجيءُ جاء.

فَفُتِـحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا بإبراهيمَ!

فقال جبريلُ: هذا أبوكَ، فسلِّم عليه.

فسلمـتُ عليـه؛ فـردَّ السَّـلامَ وقـال: مـرحبـاً بـالابـن الصـالـحِ، والنبـيِّ الصالح.

ثُمَّ رُفِعَتْ لِـيَ سِدرةُ المُنتهى، فإذا نَبْقُها مِثلُ قلالِ هَجَرٍ[١]، وإذا وَرَقُها مثلُ آذانِ الفِيَلَة!

---

(١) أي: ثمارُها في الكِبَرِ مثلُ الجِرار.

فقال جبريلُ: هذه سِدرةُ المُنتهى.

فلما غَشِيَها من أَمْرِ الله مَا غَشِيهَا: تَغَيَّرَتْ، فما أَحَدٌ مِن خلقِ الله يستطيعُ أن يَنْعَتَها مِن حُسْنِها.

ثم أُدْخِلْتُ الجنةَ، فإذا فيها جنابذُ[١] اللُّؤلؤِ، وإذا تُرابُها المِسْكُ، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهرانِ باطنانِ، ونهرانِ ظاهرانِ.

فقلتُ: ما هذانِ يا جبريلُ؟

قال: أما الباطنانِ: فنهرانِ في الجنةِ، وأما الظاهرانِ: فالنيلُ والفراتُ.

ثم رُفِعَ لِيَ البيتُ المعمورُ، يَدخلُهُ كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجُوا لم يَعودوا آخرَ ما عليهم.

ثم عُرِجَ بي حتى ظَهَرْتُ لمُسْتَوَى أسمعُ فيه صريفَ الأقلامِ، فدنا الجبَّارُ ربُّ العِزَّةِ تباركَ وتعالى، فكان قابَ قوسينِ أو أَدْنَى، ففَرَضَ اللهُ عليَّ الصلواتِ، خمسين صلاةً كلَّ يومٍ.

فرجعتُ، فمَرَرْتُ على موسى فقال: بما أُمرتَ؟

قلت: أُمِرْتُ بخمسينَ صلاةٍ كلَّ يومٍ.

قال: أُمَّتُك لا تستطيعُ خمسينَ صلاةً كلَّ يومٍ، وإني والله جَرَّبْتُ الناسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجةِ، فارْجِعْ إلى ربِّك فاسْأَلْه التخفيفَ لأُمَّتِكَ.

فرجعتُ فوَضَعَ عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مِثْلَهُ، فرجعتُ فوَضَعَ عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مِثْلَهُ، فرجعتُ فأُمِرْتُ بعشرِ صلواتٍ كلَّ يومٍ، فرجعتُ إلى موسى، فقال مِثْلَهُ، فرجعتُ فأُمرتُ بخمسِ صلواتٍ كلَّ يومٍ.

---

(١) أي: القُبَبُ، وهي جمع قُبَّة.

فرجعت إلى موسى، فقال: بما أُمرتَ؟

قلت: أُمرتُ بخمسِ صلواتٍ كلَّ يومٍ.

قال: إن أُمَّتَكَ لا تستطيعُ خمسَ صلواتٍ كلَّ يومٍ، وإني قد جرَّبْتُ الناسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجةِ، فارْجِعْ إلى ربِّك فاسْأَلْهُ التخفيف لأُمَّتِكَ.

فقلت: سألتُ ربِّي حتى اسْتَحْيَيْتُ، ولكن أَرضى وأُسَلِّمْ.

فلما جاوزْتُ؛ نادى مُنادٍ: أَمضيتُ فريضتي، وخفَّفتُ عن عبادي، هُنَّ خمسٌ، وهنَّ خمسونَ، لكلِّ صلاةٍ عشرٌ، فذلك خمسونَ صلاةً، ومن هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعملها كُتِبَتْ له حسنةٌ، فإن عَمِلَها: كُتِبَتْ له عشراً، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يَعملها: لم تُكتب شيئاً، فإن عَمِلَها كُتبت سيئةٌ واحدةٌ.

* * *

موقف الناس من الإسراء والمعراج:

قال النبي ﷺ: وأصبحتُ بمكةَ؛ فَظِعْتُ بأمري، وعَرَفْتُ أنَّ الناسَ مُكَذِّبِيَّ، فقَعَدْتُ مُعتزِلاً حَزِيناً.

فمرَّ بي عَدوُّ الله أبو جهلٍ، حتى جَلَسَ إليَّ، فقال كالمُستهزىء: هل كان مِن شيءٍ؟

فقلتُ: نعم.

فقال: ما هُو؟!

قلتُ: إنه أُسري بي الليلةَ.

فقال: إلى أينَ؟!

فقلتُ: إلى بيتِ المقدسِ.

فقال: ثم أصبحتَ بين ظَهرانَيْنَا!!!

فقلتُ: نعم.

فلم يُرِهِ أبو جهلٍ أنه يُكَذِّبُه، مخافةَ أن يَجحدَه الحديثَ إن دعا قومَه إليه.

فقال: أرأيتَ إن دَعوتُ قومَك، تُحَدِّثُهُم ما حدَّثْتَنِي؟

فقلتُ: نعم.

فقال أبو جهلٍ: هيَّا معشرَ بني كَعبِ بنِ لُؤَيٍّ.

فانْتَفَضَتْ إليه المجالسُ، وجاؤوا حتى جلسوا إليه.

فقال أبو جهلٍ: حَدِّثْ قومَكَ بما حدَّثْتَنِي.

فقلتُ: إني أُسريَ بيَ الليلةَ.

قالوا: إلى أين؟

قلتُ: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحتَ بين ظَهْرَانَيْنَا؟!!

قلتُ: نعم.

فإذا بالقومِ ما بينَ مُصَفِّقٍ، وما بَينَ واضعٍ يدَه على رأسِهِ مُتعجباً.

فقالوا: هل تستطيعُ أن تَنْعَتَ لنا المسجدَ؟

وفي القومِ مَنْ قَدْ سَافرَ إلى ذلك البلدِ ورأى المسجدَ.

فذهبتُ أَنْعَتْ، فما زِلْتُ أَنْعَتُ حتى التبَسَ عليَّ بعضُ النَّعْتِ، فجيءَ بالمسجدِ وأنا أَنْظُرُ، حتى وُضِعَ دونَ دارِ عقيلٍ، فنَعَتُّهُ وأنا أنظرُ إليه.

فقال القوم: أما النَّعْتُ، فوالله لَقَدْ أصابَ.

فأصبحَ يتحدَّثُ الناسُ بذلكَ، فارتدَّ ناسٌ مِمَّنْ كانوا آمنوا وصدَّقوه.

وجاؤوا إلى أبـي بكرٍ فقالوا: هل لكَ إلى صاحبِكَ، يزعمُ أنَّهُ أُسرِيَ به الليلةَ إلى بيتِ المقدسِ!

قال: أوَ قالَ ذلكَ؟

قالوا: نعم.

قال: لَئِنْ كانَ قالَ ذلكَ، لقد صدق.

قالوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أنه ذهبَ الليلةَ إلى بيتِ المقدسِ وجاءَ قبلَ أن يُصبح؟.

قال: نعم، إني لأُصدِّقُهُ فيما هو أبعدُ من ذلكَ، أُصَدِّقُهُ بخبر السماء في غدوةٍ أو روحةٍ.

فلذلك سُمِّيَ أبو بكرٍ: الصديق.

* * *

ذهابه ﷺ لدعوة أهل الطائف:

ولقد أحاطت المصائبُ والفتنُ والأخطارُ، بالنبـيِّ المصطفى المختار، كما أَحاطتْ بالعنقِ القلادةُ وكما أحاط بالمعصمِ السِّوارُ؛ فازدادت قريشٌ على النبـي ﷺ حَنَقاً وغَيْظاً وعنَاداً وتكذيباً، وعلى صحابته المستضعفين تضييقاً وجرأة وتسفيهاً وتعذيباً.

هذا ونبـيُّ اللهِ ما فتَرَ عن دعوةِ قومِهِ ليلاً ولا نهاراً، وما ضنَّ بنصحهم سِرّاً ولا جِهاراً، فلم يَزِدْ قريشاً دعاءُ نبيِّها إلاَّ فراراً، ولم يُفِدها نُصحُه إلاَّ عُتُوّاً واسْتِكْبَاراً.

فقام النبـيُّ ﷺ بالموقفِ في موسم الحجِّ يعرضُ نفسَه على القبائل والأقوام، مُحتملاً ما ينالُه من أذى السُّفهاء والطَّغام[١]، ويقول: هل مِنْ رجلٍ يحملُني إلى قومِهِ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلِّغَ كلامَ ربِّـي.

---

(١) أي: أراذل الناس وأوغادهم.

ثمَّ ارتحلَ نبـي الله ﷺ أملاً في الإِيواء والتصديقِ إلى أهلِ الطائف، فرجعَ منهم إِثْرَ تكذيبِه وتعذيبِه وهو وجلٌ خائفٌ.

فتأمل يا عبد الله؛ إلى حديث نبـيِّ الله، وهو يُصَوِّرُ لكَ حقيقةَ هذه الحال، ويُقَرِّبُها لكَ بهذا المقال.

قالت عائشةُ رضي الله عنها: يا رسولَ الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحدٍ؟

فقال لها النبـيُّ ﷺ: لقد لقيتُ من قومِكِ ما لقيتُ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ، إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عَبْدِ ياليلِ بن عبدِ كُلالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ.

فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم استفقْ إلاَّ وأنا بقرنِ الثَّعالبِ، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إن اللهَ قد سمعَ قولَ قومِكَ لكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد بعثَ اللهُ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لتأمُرَهُ بما شئتَ.

فنَاداني مَلَكُ الجبالِ فسلَّمَ عليَّ، ثمَّ قال: يا محمد، إن اللهَ قد سَمِـعَ قولَ قومِكَ لك، وأنا مَلَكُ الجبالِ، وقد بعثني ربُّك إليكَ لتأمُرَني بأمرِكَ، فما شئتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين[١].

فقلت لـه: بل أرجـو أن يُخـرجَ الله مـن أصلابِهم مـن يعبـدُ الله وحـدَهُ، لا يشركُ به شيئاً.

فصلَّـى وسلَّـم الله علـى عبـده ومصطفـاه، ونبيِّـه ومجتبـاه، محمَّـد بـن عبد الله.

---

(١) أي: الجبلين.

فيا له مِنْ خُلُقٍ كريم، جُبِلَ عليهِ نبينا الرؤوفُ الرحيم، وتخلَّق به رسولُنا الصَّبورُ الحليم.

ليَكْفِكَ يا نبيَّنا ورسولَنا من كلِّ مِدحةٍ وثناءٍ: قولُ ربِّ الأرضِ والسماء: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ولْيَهْنكَ يا حبيبَنا وخليلَنا: ما وصفَك بِهِ ربُّ العالمين، بقوله في محكمِ الكتاب المبين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

* * *

الدعوة في أهل يثرب وبيعة العقبة:

لما كفرت قريشٌ ومن حولَها من الأعراب بنبوةِ خَاتَمِ النَّبيين، وجَحَدَتْ ببعثةِ من أقرَّت بملءِ فيها: أنه الصادقُ الأمين؛ وكَّل الله تعالى بهذا الخيرِ العميم، والفضل العظيم، قوماً ليسوا ببعثته بكافرين، فجاهدوا في نصرته بأموالهم وأنفسهم وكانوا من الصادقين؛ فساق الله تعالى الخيرَ إلى الأوسِ والخزرج، فيسَّر لهم قبول الآيات البينات والحجج.

قال جابرُ بنُ عبدِ الله الأنصاريُّ رضي الله عنهما: مَكَثَ رسولُ الله ﷺ بمكةَ عشرَ سِنينَ يتَّبعُ النَّاسَ في منازِلِهم، بعُكاظَ ومَجَنَّةٍ، وفي المواسمِ بمِنَى، يقول: من يُؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أُبلِّغَ رسالةَ ربِّي، وله الجنَّةُ.

حتى إن الرَّجلَ ليخرجُ مِنَ اليمنِ، أو مِنْ مصرَ، فيأتيه قومُهُ؛ فيقولونَ: احذرْ غُلامَ قريشٍ، لا يَفْتِنْكَ!

ويمشي ﷺ بين رجالِهم وهم يُشيرون إليه بالأصابع.

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

حتى بعثنا اللهُ له من يثربَ، فآويناهُ وصدَّقناهُ، فيخرجُ الرَّجلُ منَّا فيُؤمنُ به، ويُقْرِئُه القرآنَ؛ فينقلبُ إلى أهلِهِ فيُسلمونَ بإسلامِهِ، حتى لم يبقَ دارٌ من دورِ الأنصارِ إلاَّ وفيها رهطٌ من المسلمينَ يُظهرونَ الإِسلام.

ثم ائْتَمَروا جميعاً، فقالوا: حتى متى نَتْرُكُ رسولَ الله ﷺ يُطْرَدُ في جبال مكةَ ويُخافُ؟

فرحلَ إليهِ منَّا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسمِ، فواعدناه شِعَبَ العَقَبةِ، فاجتمعنا عنده من رجلٍ ورجلين حتى توافينا.

فقلنا: يا رسولَ الله، علامَ نُبايِعُكَ؟

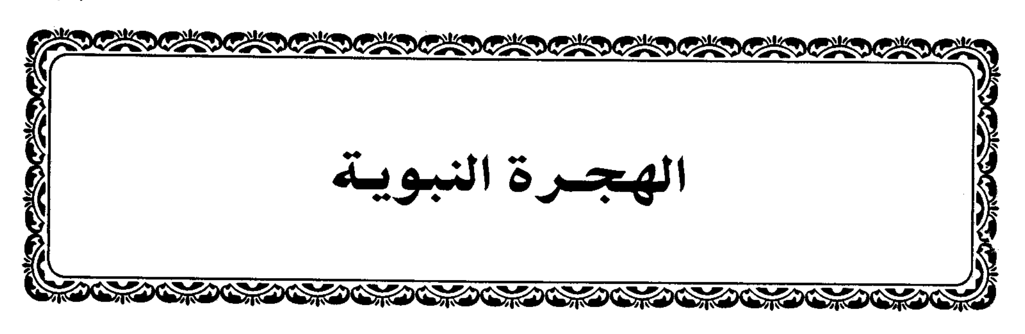
فقال رسولُ الله ﷺ: تُبايِعوني على السَّمعِ والطاعةِ، في النَّشاط والكَسَل، والنَّفقةِ في العُسر واليُسر، وعلى الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكرِ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومةَ لائم، وعلى أن تنصروني؛ فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعونَ منه أنفسَكُم وأزواجَكُم وأبناءَكم؛ ولكم الجنةُ.

فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعدُ بن زُرارةَ ــ وهو من أصغرِهم ــ فقال: رويداً يا أهلَ يثربَ، فإنا لم نضربْ أكبادَ الإِبلِ إلاَّ ونحن نعلمُ أنه رسولُ الله ﷺ، وأنَّ إخراجَه اليومَ مُفارقةُ العربِ كافةً، وقتلُ خيارِكم، وأن تَعضَّكُم السُّيوفُ، فإما أنتم قومٌ تَصْبِرونَ على ذلكَ وأَجْرُكُم على الله، وإما أنتم قومٌ تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً؛ بيِّنوا ذلك فهو أعذرُ لكم عندَ الله.

فقالوا: أَمِطْ عنَّا يا أسعدُ، فوالله لا ندعُ هذه البيعةَ أبداً، ولا نَسْليها أبداً.

قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشَرَطَ، ويُعطينا على ذلك الجنة.

* * *



الهجـرة النبويـة

قد خَلَتْ سنةُ ربِ العالمين؛ في الأولينَ والآخرينَ، أنَّه كلما استحكمتْ حلقاتُ المِحَن، واستوثقتْ عُرَى الفتن: كانَ نصرُ الله والفتحُ أسرعَ مما يلحقُ العينَ من الغَمْضِ واللَّمحِ؛ لأنَّ العادةَ الإلـٰهية التي لا تتبدَّلُ، والمشيئةَ الربانية التي لا تتحولُ: أنَّ العسرَ لا يغلبُ يُسرين، وأن تنجيةَ الله لرسلهِ ومَن معهم من المؤمنين صدقٌ بلا مَيْنٍ.

وقريشٌ لمَّا لمْ تَرْجُ لله وقاراً، وأصرَّت على كُفْرِها واستكبرتِ استكباراً، ومَكَرَتْ بنبيِّها مَكْراً كُبَّاراً؛ مَكَرَ اللهُ بها فأخرجَ نبيَّهُ من بينها إخراجاً، وسَلَكَ لهُ في أرضِهِ الواسعةِ سُبُلاً فِجَاجاً، ليُقِرَّ عَيْنَيْهِ بنصرِ الله وفتحِهِ ويُرِيَهُ دخولَ الناسِ في دينِ الله أفواجاً.

ولنتأمل معشرَ المسلمين؛ حديثَ أمِّ المؤمنينَ، عائشةَ رضي الله عنها، وهي تقصُّ علينا نبأَ هجرةِ سيدِ الأنبياءِ والمرسلينَ، فتقول: لم أَعْقِلْ أبويَّ قطُّ إلَّا وهما يَدينانِ الدِّينَ، ولم يمرَّ علينا يومٌ إلَّا يأتينا فيه رسولُ الله ﷺ طَرَفَي النَّهارِ ــ بُكرةً وعشيَّةً ــ .

فلما ابْتُلِـيَ المسلمونَ خرج أبو بكرٍ مُهاجراً نحوَ أرضِ الحبشةِ، حتى إذا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ: لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَـةِ ــ وهو من ساداتِ قومِهِ ــ فقال: أين تُريدُ يا أبا بكر؟

فقال أبو بكرٍ: أخرجني قومي، فأُريدُ أنْ أَسيحَ في الأرضِ وأَعْبُدَ ربِّـي.

فقال ابنُ الدَّغِنَةِ: فإنَّ مِثلَكَ يا أبا بكرٍ لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ، إنَّكَ تَكْسِبُ المعدومَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكلَّ، وتُقْرِي الضِّيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ، فأنا لك جارٌ، ارجعْ واعْبُد ربَّك ببلدِك.

فَرَجَعَ أبو بكرٍ وارْتَحَلَ معه ابنُ الدَّغِنَةِ، فطافَ عشيةً في أشرافِ قُريشٍ، فقال لهم: إنَّ أبا بكرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ ولا يُخْرَجُ، أَتُخرِجُونَ رجلاً يَكْسِبُ المعدومَ، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَحْمِلُ الكَلَّ، ويَقْرِي الضَّيْفَ، ويُعينُ على نوائبِ الحقِّ؟

فلمْ تُكَذِّبْ قُريشٌ بجوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ، وقالوا له: مُرْ أبا بكرٍ فلْيَعْبُدْ ربَّهُ في دَارِه، فلْيُصَلِّ فيها ولْيَقْرَأْ ما شَاءَ، ولا يُؤْذِينَا بذلك، ولا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فإنَّا نَخْشَى أن يَفْتِنَ نساءَنا وأبناءَنا.

فقالَ ذلك ابنُ الدَّغِنَةِ لأبـي بكر.

فلَبِثَ أبو بكرٍ بذلكَ يعبدُ ربَّه في دارِهِ، ولا يَستعلنُ بصلاتِه، ولا يقرأُ في غيرِ دارِهِ.

ثم بَدَا لأبـي بكرٍ فابْتَنَى مسجداً بِفِنَاءِ دارِه، وكان يُصلِّي فيه ويقرأُ القرآنَ، فيَنْقَذِفُ عليه نساءُ المُشركينَ وأبناؤُهم، وهم يَعْجَبُونَ منهُ ويَنْظُرونَ إليه؛ وكان أبو بكرٍ رجلاً بكَّاءَ، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إذا قرأ القرآنَ.

فأَفْزَعَ ذلك أشرافَ قُريشٍ مِنَ المُشركينَ، فأرسلوا إلى ابنِ الدَّغِنَةِ؛ فَقَدِمَ عليهم.

فقالوا: إنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أبا بكرٍ بِجِوارِكَ على أن يَعْبُدَ ربَّهُ في داره، فقد جاوَزَ ذلكَ؛ فابْتَنَى مسجداً بِفِنَاءِ دارِهِ، فأعلنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه، وإنَّا قد خَشِينَا أن يفتِنَ نساءَنا وأبناءَنا؛ فَانْهَهُ، فإنْ أحبَّ أنْ يقتصرَ على أن يَعْبُدَ ربَّه في داره فَعَلَ،

وإن أَبَى إلاَّ أن يُعْلِنَ بذلك فَسَلْهُ أن يَرُدَّ إليك ذِمَّتَكَ، فإنَّا قد كَرِهْنَا أن نُخْفِرَكَ، ولَسْنا مُقِرِّينَ لأبـي بكرٍ الاستعلانَ.

فأتى ابنُ الدَّغِنَةِ إلى أبـي بكرٍ فقال: قَدْ عَلِمْتَ الذي عاقدتُ لكَ عليه، فإمَّا أن تَقْتَصِرَ على ذلك، وإمَّا أن تُرْجِعَ إليَّ ذِمَّتِي، فإنِّي لا أُحِبُّ أن تَسْمَعَ العربُ أَنِّي أُخْفِرْتُ في رجلٍ عَقَدْتُ لهُ.

فقال أبو بكرٍ: فإني أَرَدُّ إليك جِوارَكَ، وَأَرْضَى بجوارِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

إذنه ﷺ للمسلمين بالهجرة:

وقد قال نبـي الله ﷺ يوماً للمسلمين: إنِّي أُريتُ دارَ هِجْرَتِكُم، ذاتَ نَخْلٍ، بينَ لابَتَيْنِ[١].

فهاجَرَ مَنْ هَاجرَ قِبَلَ المدينةِ، ورجعَ عامَّةُ مَنْ كان هاجرَ بأرضِ الحبشةِ إلى المدينةِ.

وتَجهَّزَ أبو بكرٍ رضي الله عنه قِبَلَ المدينةِ، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: على رِسْلِكَ، فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي.

فقال أبو بكرٍ: وهل تَرجو ذلكَ بأبـي أَنتَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: نعم.

فحبسَ أبو بكرٍ نَفْسَهُ على رسولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وعَلَفَ راحِلَتين كانَتَا عندَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أربعةَ أشهرٍ.

فبينما أبو بكرٍ يوماً جالساً في بيتِهِ في نَحْرِ الظَّهيرةِ؛ إذ جاء رسولُ الله ﷺ مُتَقَنِّعاً في ساعةٍ لم يكن يأتي أبا بكر فيها!

---

(١) أي: الحرَّتَينِ.

فقال له أبو بكرٍ: فداءً لكَ أبـي وأمي، والله ما جاء بكَ في هذه الساعةِ إلاَّ أمرٌ.

فاستأذنَ رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ، فأَذِنَ له.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ.

فقال له أبو بكرٍ: إنما هُمْ أهلُكَ بأبـي أنتَ يا رسولَ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: فإني قدْ أُذِنَ لي بالخروج.

فقال أبو بكرٍ: الصحابةَ بأبـي أنتَ يا رسولَ الله؟

فقال له رسولُ الله ﷺ: نعم.

فقال أبو بكرٍ: فَخُذْ بأبـي أنتَ يا رسولَ الله إِحْدَى راحلتيَّ هَاتَيْنِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: بالثَّمَنِ.

فتجهَّزَ رسولُ الله ﷺ وصاحبُهُ للهجرة، واللهُ ثالثُهما في المعيةِ والنُّصرة.

* * *

هجرته ﷺ مع أبـي بكر الصديق رضي الله عنه:

فمضى رسولُ الله ﷺ في الهجرة، وأبو بكرٍ يصحبُه للعُزْرَةِ والنُّصْرَة، فلحقا بغارٍ في جبل ثورٍ، فَكَمِنَا فيه ثلاثَ ليالٍ، وتأمل ما جرى لهما في تلكَ الحالِ.

فبينما هما في الغار؛ إذ رفعَ أبو بكرٍ رأسَهُ فإذا بأقدامِ القَومِ، فقال: يا نَبِـيَّ الله؛ لو أنَّ بعضَهم طَأْطَأَ بَصَرَهُ رآنا.

فقال له النبـيُّ ﷺ: اسْكُتْ يا أبا بكرٍ؛ اثنانِ، اللهُ ثالثُهما.

وكان عبدُ الله بنُ أبـي بكرٍ يبيتُ عندَهُما، وهو غلامٌ شابٌّ ثقفٌ لَقِنٌ،

فيَدْلِـجُ من عِنْدِهِما بِسَحَرٍ، فيُصْبِحُ مع قريشٍ بمكةَ كبَائِتٍ، فلا يسمعُ أمراً يُكتادُ رسولَ الله ﷺ وصاحِبَهُ به إلاَّ وَعَاهُ، حتى يَأْتِيَهُما بخبرِ ذلك حين يختلطُ الظَّلامُ.

وكان أهلُ بيتِ أبـي بكرٍ رضي الله عنه قد جهَّزوا رسولَ الله ﷺ وصاحِبَه أحثَّ الجِهَازِ، وصَنَعُوا لهما سُفْرَةً في جِرَابٍ، فقَطَعَتْ أسماءُ بنتُ أبـي بكرٍ قطعةً من نِطَاقِها، فَرَبَطَتْ بِهِ على فَمِ الجِرَابِ، فبِذَلكَ سُمِّيَتْ: ذاتُ النِّطاقَيْنِ.

ويرعى على رسولِ الله ﷺ وصاحِبه: عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ ــ مولى أبـي بكر ــ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فيُرِيحُها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ مِنَ العِشَاء، فيبيتانِ في رِسْلٍ[1]، حتى يَنْعِقَ بها عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، فيفعلُ ذلكَ في كلِّ ليلةٍ من تلكَ الليالي الثلاث.

واسْتَأْجَرَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ رجلاً من بني الدِّيل، هادياً خِرِّيتاً[2]؛ ووَاعَدَاهُ غارَ ثَوْرٍ بعد ثلاثِ ليالٍ، فأَتَاهُمَا بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثلاثٍ، وانْطَلَقَ مَعَهُمَا عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ والدليلُ، فأَخَذَ بِهِمَا طريقَ السَّواحِلِ.

فجَاءَ رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ في رسولِ الله ﷺ دِيَةً لِمَنْ قَتَلَهُ أو أَسَرَهُ.

وبينما كان سُراقةُ بنُ مالكِ بن جُعْشُم جالساً في مجلسٍ مِنْ مجالس قومِهِ؛ إذ أقبلَ رجلٌ حتى قام عليهم وهم جلوسٌ، فقال: يا سراقةُ، إني قَدْ رأيتُ أسودةً[3] بالسَّاحِلِ، أُرَاهَا مُحمداً وأصحابَه.

فقال سُراقَةُ: فعرفتُ أنهم هُم، فقلتُ له: إنَّهُم ليسوا بِهُم، ولكنَّك رأيتَ فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأَعْيُنِنَا.

---

(١) أي: شرابُ لَبَنِ المِنْحَةِ.

(٢) أي: الدليل الحاذق بالدلالة.

(٣) أي: جمع سواد، وهو الشخص، لأنه يُرَى من بعيدٍ أسود.

ثم أتى سُراقةُ فَرَسَه فرَكِبَها، ثم انطلق حتى دنا من رسولِ الله ﷺ وأصحابهِ، فعثرت بهِ فرسُهُ فخَرَّ عنها.

فقال سُراقةُ: فقمتُ فأهويتُ يَدِي إلى كِنَانَتِي، فاستخرجتُ منها الأزلامَ فاسْتَقْسَمْتُ بها: أضرُّهُم أم لا؟ فخرج الذي أَكْرَهُ، فركبتُ فَرَسِي وعصيتُ الأزلامَ، حتى إذا سمعتُ قراءَةَ رسولِ الله ﷺ وهو لا يَلْتَفِتُ، وأبو بكرٍ يُكْثِرُ الالتفاتَ.

فالتفتَ أبو بكرٍ فإذا هو بفارسٍ قد لَحِقَهُم، فقال: يا رسولَ الله، هذا فارسٌ قد لَحِقَ بنا.

فالتفتَ نبيُّ الله ﷺ فقال: اللَّهُمَّ اصْرَعْهُ.

فصَرَعَهُ الفَرَسُ، فقال سُراقةُ: يا نبيَّ الله، مُرْنِي بما شِئْتَ.

فقال له النبيُّ ﷺ: فَقِفْ مَكَانَكَ، لا تَتْرُكَنَّ أحداً يَلْحَقْ بنا.

فكان سُراقةُ أولَ النَّهارِ جاهداً على نبيِّ الله ﷺ، وكان آخرَ النَّهارِ مَسْلَحَةً لَهُ.

* * *

وصوله ﷺ المدينة:

وأقبل نبيُّ الله ﷺ إلى المدينةِ وهو مُرْدِفٌ أبا بكر، وأبو بكر شيخٌ يُعْرَفُ، ونبيُّ الله ﷺ شابٌّ لا يُعْرَفُ[1]، فيَلْقَى الرجلُ أبا بكرٍ فيقولُ: يا أبا بكرٍ، مَنْ هذا الرجلُ الذي بَيْنَ يَدَيْكَ؟

---

(١) أي: أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه قد شاب شعره؛ وعُرِفَ لأنه كان يمرُّ على أهل المدينة في سفر التجارة، بخلاف النبي ﷺ فإنه لم يَشِب؛ وكان بعيد العهد بالسفر من مكة.

فيقولُ: هذا رجلٌ يَهدِيني السبيلَ.

فيَحْسَبُ الحَاسِبُ أنَّهُ إنَّمَا يَعْني الطريقَ، وأبو بكرٍ إنَّما يَعْنِـي سبيلَ الخَيْرِ.

ثُمَّ لَقِـيَ رسولُ الله ﷺ الزُّبيـرَ بن العـوامِ، في رَكْـبٍ من المسلمين كانوا تُجَّاراً قَافِلينَ مِنَ الشَّامِ، فكَسَا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكرٍ ثِيَابَ بيَاضٍ.

وسَمِـعَ المسلمون بالمدينـةِ بِمَخْـرَجِ رسـولِ الله ﷺ مِـنْ مكـةَ، فكانـوا يَغْدُونَ كلَّ غَداةٍ إلى الحَرَّةِ، فيَنْتَظِرونَهُ حتى يَرُدَّهُم حَرُّ الظَّهيرةِ.

فانقلبوا يوماً بعدَما أطالوا انْتِظَارَهُم، فلما أَوَوْا إلى بُيوتِهم أَوْفَى رجل مِنْ يَهود على أُطُمٍ[1] مِنْ آطَامِهِم لأمرٍ يَنْظُرُ إليهِ، فبَصُرَ برسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ مُبْيِضِينَ يَزولُ بِهِمُ السَّرابُ، فَلَمْ يَمْلِكُ اليهوديُّ أن قالَ بِأَعْلَى صَوْتِه: يَا مَعَاشِرِ العَرَبِ؛ هذا جَدُّكُمُ[2] الذي تَنْتَظِرونَ.

فجَاؤوا إلى نبـيِّ الله ﷺ وأبـي بكرٍ فسلَّمُوا عليهما، وقالوا: ارْكَبَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ.

فرَكِبَ نبـيُّ الله ﷺ وأبو بكرٍ، وحفُّوا دونَهُما السِّلاحَ.

فقيل فِـي المدينةِ: جاءَ نبـيُّ الله، جاءَ نبـيُّ الله.

فأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولونَ: جاءَ نبـيُّ الله، جاءَ نبـيُّ الله.

فتلقَّوْا رسولَ الله ﷺ بظَهْرِ الحرَّة، فَعَدَلَ بِهِمْ ذاتَ اليمينِ، حتى نَزَلَ بِهِمْ في بَنِـي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، وذلك يومُ الاثنينِ مِنْ شَهْرِ ربيعِ الأوَّلِ.

فقامَ أبو بكرٍ للنَّاسِ، وجَلَسَ رسولُ الله ﷺ صَامِتاً.

---

(١) أي: حِصْنٌ مبني بحجارة.

(٢) أي: بَخْتُكُم وحَظُّكم.

فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ من الأنصارِ مِمَّنْ لم يَرَ رسولَ الله ﷺ يُحَيِّـي أبا بكرٍ، حتى أَصَابَتِ الشَّمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبلَ أبو بكرٍ حتى ظلَّلَ عليه برِدَائِه، فَعَرَفَ النَّاسُ رسولَ الله ﷺ عِنْدَ ذلكَ.

فقال نبـيُّ الله: أيُّ بيوتِ أهلِنا أقربُ؟

فقالَ أبو أيوب: أنا يا نبـيَّ الله، هذه داري، وهذا بَابِـي.

فقال له النبـيُّ ﷺ: فانْطَلِقْ فَهَيِّـىء لنا مَقِيلاً.

فقال أبو أيوبٍ: قُومَا على بَرَكَةِ الله.

* * *

إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه وموقف اليهود منه:

سمع عبد الله بن سلام بمجيء رسول الله ﷺ، فجاء فقال: أشهدُ أنَّك رسولُ الله، وأنَّك جِئْتَ بِحَقٍّ، وقَدْ عَلِمَتْ يهودُ أنِّي سَيِّدُهُم وابنُ سَيِّدِهِم، وأَعْلَمُهم وابنُ أَعْلَمِهِم، فادْعُهُمْ فَاسْأَلْهُم عَنِّي قَبْلَ أن يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أسلمتُ، فإنِّهم إنْ يَعلموا أني قَدْ أسلمتُ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ.

فأرسل نبـيُّ الله ﷺ إليهم، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشـرَ يهودٍ؛ وَيْلَكُم! اتَّقُوا الله، فوالله الذي لا إلٰه إلاَّ هُوَ؛ إنَّكم لتعلمون أنِّي رسولُ الله حقاً، وأنِّي جِئْتُكم بِحَقٍّ، فأسْلِمُوا.

فقالوا: ما نَعْلَمُهُ.

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: فأيُّ رجلٍ فِيكُم عبدُ الله بنُ سلامٍ.

فقالوا: ذاكَ سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا، وأعلمُنا وابنُ أعلمِنا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أفرأَيْتُم إنْ أَسْلَمَ؟

فقالوا: حاشَا لله؛ ما كانَ لِيُسْلِمَ.

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: أفرأَيْتُم إنْ أَسْلَمَ؟

فقالوا: حاشَا لله؛ ما كانَ ليُسْلِمَ.

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: أفرأَيْتُم إنْ أَسْلَمَ؟

فقالوا: حاشَا لله؛ ما كانَ ليُسْلِمَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: يا ابنَ سلامٍ؛ اخْرُجْ عليهم.

فخَرَجَ ابن سلام فقال:

يا معشرَ اليهودِ، اتَّقوا الله؛ فوالله الذي لا إلـه إلاَّ هو؛ إنَّكم لتعلمونَ أنَّه رسولُ الله، وأنَّه جاء بِحَقٍّ.

فقالوا: كذبتَ.

فأَخْرَجَهُم رسولُ الله ﷺ.

* * *

بناء مسجد «قباء» والمسجد النبوي:

لَبِثَ رسولُ الله ﷺ في بني عمرِو بنِ عوفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ ليلةً، وأسَّسَ المسجدَ الذي أُسِّسَ على التَّقوى ـ وهو مسجدُ قباءٍ ـ، وصلَّى فيه.

ثم رَكِبَ رسولُ الله ﷺ راحِلَتَه، فسارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ، حتى بَرَكَتْ عندَ مسجدِ الرسولِ ﷺ في المدينةِ، وهو يُصلِّي فيهِ يومئذٍ رجالٌ من المسلمين، وكانَ مِرْبَداً للتَّمرِ لسُهَيلٍ وسَهْلٍ ـ وهما غلامانِ يتيمانِ ـ.

فقال رسولُ الله ﷺ حينَ بَرَكَتْ بِهِ راحلتُه: هذا إن شاءَ الله المنزلُ.

ثم دعا رسولُ الله ﷺ الغلامين، فساوَمَهُما بالمِربَدِ[1] ليتَّخِذَهُ مسجداً، فقالا: لا؛ بل نَهَبُه لكَ يا رسولَ الله.

---

(١) أي: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

فأبَـى رسولُ الله ﷺ أنْ يَقْبَلَهُ منهما هِبَةً ليتَّخِذَهُ مَسْجِداً، حتى ابْتَاعَهُ منهما، ثم بَناهُ مسجداً.

وطَفِقَ رسولُ الله ﷺ ينقل مَعَ أصحابِهِ اللَّبِنَ في بُنْيَانِه، وهو يُنشدُ معهم الشِّعْرَ:

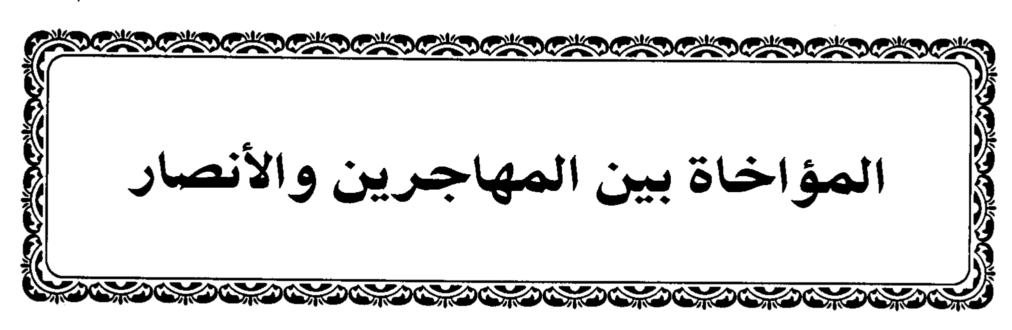
هـذا الحِمَـالُ[1] لا حِمَـالُ خيبـرْ   هــذا أبَـــرُّ ربَّـنَـــا وأَطْـهَـــرْ

ويقـولُ رسـولُ الله ﷺ: اللَّهُـمَّ إنَّ الأجـرَ أجـرُ الآخـرهْ، فـارْحَـمِ الأنصـارَ والمُهَاجِرَهْ.

وقد وُعِكَ أبو بكرٍ وبلالٌ وبعضُ صحابةِ رسولِ الله ﷺ بعدَ مقدمِهم المدينةَ، فقال رسولُ الله ﷺ: اللَّـهُمَّ حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنَا مكةَ أو أشدَّ، وصَحِّحها، وبارِكْ لنا في صَاعِها ومُدِّها، وانْقُلْ حُمَّاها فاجْعَلْها بالجُحْفَةِ.

* * *

(١) أي: المحمول من اللَّبِن.



المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لما كانت المؤاخاةُ بين العبادِ هي الرَّواسي والأوتاد، والدعائمُ والعمادُ؛ لاستقرارِ البلادِ، وسَلامَتِها من فتنةِ الفُرْقَةِ والفسادِ؛ آخى المصطفى المختارُ بين صحابتِه الأخيارِ؛ مِنَ المُهاجرينَ والأنصارِ.

فضَـرَبَـت الأنصـارُ فـي الإيثـارِ والعطـاءِ والنَّـوالِ، والإكـرامِ والإنعـامِ والإفضالِ: أروعَ الأمثالِ، حتى إنَّ السامع ليَظُنُّ مآثِرَهُم وإيثارَهم ضرباً من الخيال.

فتأملوا حديث أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه خادمِ رسولِ الله ﷺ وهو يَذْكُرُ بعضَ صورِ الإيثارِ؛ فيقول:

قَدِمَ المُهاجرونَ المدينةَ مِنْ مكةَ، وليس بأيديهم شيءٌ، وكانت الأنصارُ أهلَ الأرضِ والعقارِ، فقَاسَمَهُم الأنصارُ على أنْ يُعطُوهُم ثِمارَ أموالِهم كلَّ عامٍ، ويَكْفوهُم العملَ والمُؤْنَةَ.

فلمَّا قَدِمَ علينا عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: آخى رسولُ الله ﷺ بينَه وبينَ سعدِ بن الرَّبيعِ ــ وكان كثيرَ المالِ ــ .

فقال سعدُ بنُ الرَّبيع: قد عَلِمَت الأنصارُ أنِّي من أكثرِها مالاً، سَأَقْسِمُ مالِـي بيني وبينَكَ شَطْرَيْنِ، ولِـيَ امرأتَانِ، فانْظُرْ أعجَبَهُما إليكَ فأُطَلِّقُها، حتى إذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَها.

فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: باركَ اللهُ لكَ في أهلِكَ ومالِكَ، أين سُوقُكُم؟

فدَلُّوهُ على سُوقِ بَنِـي قَيْنُقَاعٍ، فَلَمْ يَرْجِـعْ يومئذٍ حتَّى أفضلَ شيئاً مِنْ سَمْنٍ وأقِطٍ.

فَلَمْ يَلْبَثْ إلاَّ يسيراً حتى جاءَ رسولَ الله ﷺ وعليه وَضْرٌ من صُفْرَةٍ[١]، فقال له رسولُ الله ﷺ: مَهْيَمْ[٢].

فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: تَزَوَّجتُ امرأةً مِنَ الأنصارِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: ما سُقْتَ إليها.

فقال: وَزْنَ نواةٍ مِنْ ذَهَبٍ.

فقال رسولُ الله: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ.

فقال المُهاجرونَ: يا رسولَ الله، ما رَأَينا مِثْلَ قَوم قَدمنَا عليهم أحسنَ مُؤاساةٍ في قليلٍ، ولا أحسنَ بَذلاً في كثيرٍ! لقد كَفَوْنَا المُؤْنَةَ، وأَشركُونَا في المَهْنإ، حتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أن يَذهبُوا بالأجرِ كُلِّهِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: لا؛ ما أَثنيتُم عَلَيْهم، ودَعَوْتُم الله لَهُم.

* * *

وإنْ تَعْجَبْ يا عبدَ الله! فَعَجَبٌ فِعَالُهُم، وصَعْبٌ نَوالُهُم.

يقـولُ أبـو هـريـرةَ رضـي الله عنـه: أتـى رجـلٌ رسـولَ الله ﷺ فقـال: يا رسولَ الله؛ أصابَنِـي الجَهْدُ.

---

(١) أي: أثرٌ من طِيبٍ يُصنعُ من زَعفرانٍ.
(٢) أي: ما شَأنُكَ.

فأرسلَ رسولُ الله ﷺ في نِسائِه؛ فَلَمْ يَجِدْ عِندَهُنَّ شيئاً، وقُلْنَ له: مَا مَعَنَا إلاَّ الماءُ.

فقال رسولُ الله ﷺ: ألا رجلٌ يُضَيِّفُهُ الليلةَ؛ يَرحَمُهُ اللهُ.

فقامَ رجلٌ من الأنصارِ فقالَ: أَنَا يا رسولَ الله.

فذهبَ إلى أهلِه، فقال لامرأتِه: أَكْرِمي ضَيفَ رسولِ الله ﷺ؛ لا تَدَّخِريه شيئاً.

فقالت: واللهِ! ما عِنْدِي إلاَّ قوتُ الصِّبْيَةِ.

فقال: هَيِّئي طَعامَكِ، وأَصْبِحي سِرَاجَكِ، ونَوِّمي صِبْيَانَكِ إذا أَرادُوا عشاءً.

فهيَّأَتْ طَعامَها، وأَصْبَحَتْ سِراجَها، ونوَّمت صِبيانَها، ثم قَامَتْ تُصلح سِرَاجَها فأَطْفَأَتْهُ، فجَعلا يُرِيَانِه أَنَّهما يَأْكُلانِ، فبَاتَا طَاوِيَيْن[1].

فلمَّا أصبَحَ الرَّجلُ غدا إلى رسولِ الله ﷺ فقال له: لقد عَجِبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ فِعَالِكُما! فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2].

لِيَهْنَأَ الصحابةُ الأخيارُ، مِنَ المُهاجرينَ والأنصارِ: هذه الفضائلُ والمناقبُ والآثارُ. لِيَهْنِهِمْ ذَلكَ ولا فَخْرَ، لأنَّهُ ليسَ بعد عروس عِطْر، كَيفَ وقَدْ بَالَغَ الربُّ تباركَ وتعالى في الثَّناءِ علَيهم في سورةِ الحَشْرِ، فَقَالَ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

---

(١) أي: جَائِعَيْن.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾(١).

ولما ذكر العزيزُ الغفَّار؛ المهاجرينَ والأنصارَ، نوَّهَ بالتَّابعين الأخيار؛ الذينَ اتَّبعُوهم بإحسانٍ إلى يومِ القرارِ، مِمَّن اتَّبَعَ آثارَهُم الجليلةَ، واقتفى خُطاهُم النبيلةَ، واتَّصَفَ بأوصافِهِم الجميلةِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾(٢).

وقد استنبط إمامُ دارِ الهجرةِ مَالكُ بنُ أنسٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ تعالى ـ من هذه الآيـة الـكـريـمـة: أن الدعاء للمهاجرين والأنصار بالمغفرة والرضوان من أمارَةِ اتِّبَاعِهِم بـإحسانٍ، وأمَّـا مَـنْ امْتَلأَ قـلـبُهُ عَلَيْهِم بالغلِّ والأَضغانِ، فلم يَدْعُ بِالمَغفرةِ لِمَنْ سَبَقُونَا بالإِيمَانِ؛ فليس لـه نصيبٌ مـن فَـيْءِ الغنائمِ والأثمانِ.

لذا فقد أوصى خيرُ الأنام ـ عليهِ أفضلُ الصلاةِ وأزكى السَّلام ـ أُمَّةَ الإِسلام: أن تحفظَ لصحابَتِهِ الكرام، جِهَادَهُم بالهجرةِ، وكِفَاحَهُمْ بالنُّصرةِ، ونهى أن يُتعدَّى على أحدِ صَحْبِهِ؛ أو يُتَطاول عليهِ بسَبِّهِ وثَلْبِهِ، فقال: لا تَسُبُّوا أَصحابِـي، فوالذي نفسِـي بيدِهِ؛ لو أنَّ أحدَكم أنفقَ مِثلَ أُحدٍ ذَهباً ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحدِهِمْ ولا نَصيفَهُ.

وقد شكا عروةُ بنُ الزُّبيرِ سبَّ صحابةِ رسولِ الله ﷺ! فقالت له خالَتُه عائشةُ رضي الله عنها: يا ابْنَ أُختِـي؛ أُمروا أَنْ يَسْتَغْفِروا لأصحابِ النَّبـيِّ ﷺ؛ فسبُّوهم.

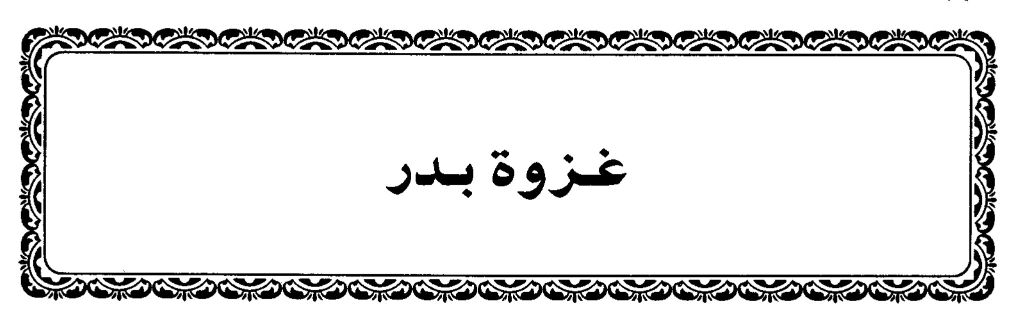
---

(١) سورة الحشر: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ١٠.

وكان آخرُ ما أَوصَى به أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ؛ حينَ اسْتُشْهِدَ في المِحرابِ، أن قالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الأصحابِ: أُوصي الخليفةَ بالمهاجرينَ الأوَّلِينَ؛ أن يَعْرِفَ لهم حقَّهم، وأُوصِي الخليفةَ بالأنصار، الذين تَبوَّؤوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهاجِرَ النبيُّ ﷺ: أن يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِم، ويَعْفُو عَنْ مُسِيئِهم.

* * *



غزوة بدر

خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بدرٍ يُريدُ عيرَ قريشٍ، فجمعَ اللهُ بينُهم وبين عدوِّهم على غيرِ ميعادٍ، فَلَمْ يُعاتِبِ اللهُ أحداً من المسلمينَ تخلَّفَ عن هذه الغزوةِ.

فلمَّا سارَ رسولُ الله ﷺ إلى بدرٍ وَجَدَ أصحابُهُ فيها رجلينِ مِنَ المشركينَ: رجلاً من قريشٍ، ومولى لعُقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ. فأمَّا القُرَشِيُّ فانْفَلَتَ، وأما مولى عُقبةَ فأخذُوه حتى انتهوْا بِهِ إلى النَّبيِّ ﷺ...

فقال له النبيّ ﷺ: كم القومُ؟

فقال المولى: هم والله كثيرٌ عددهُمْ؛ شديدٌ بأسهُمْ.

فجهَدَ النبيُّ ﷺ أن يُخبِرَهُ المولى كَمْ هُمْ، فأبى.

ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ سألَه: كم ينحرونَ من الجُزُرِ[1]؟

فقال المولى: عشراً كلَّ يومٍ.

فقال رسولُ الله ﷺ: القومُ ألفٌ، كلُّ جزورٍ لمائةٍ وتَبعها.

وكانَ المسلمونَ يومَ بدرٍ كلُّ ثلاثةٍ على بعيرٍ، وكان أبو لبابةَ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ زَميلَيْ رسولِ الله ﷺ، فلمَّا كانت عقبةُ رسولِ الله ﷺ قالا له: نمشي عنكَ.

---

(١) أي: الإبل.

فقال رسولُ الله ﷺ لهما: ما أنتما بأقوى منّي، ولا أنا بأغْنَى عن الأجرِ منكما.

ونظر رسولُ الله ﷺ إلى المُشركينَ فإذا هُم ألفٌ، وأصحابُهُ ثلاثُمائةٍ وتسعةَ عشرَ رجلاً، بِعِدَّةِ أصحابِ طالوتٍ الذينَ جاوزُوا معهُ النَّهْرَ، وما جاوزَ معهُ إلاَّ مؤمنٌ.

فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ، ثمَّ مدَّ يديهِ، فجعلَ يهتفُ بربِّهِ: اللَّـٰهُمَّ انْجزْ لي ما وعدتني، اللَّـٰهُمَّ آتِ ما وعدتني، اللَّـٰهُمَّ إن تَهْلِكْ هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ؛ لا تُعْبَدْ في الأرض.

فما زالَ يهتفُ بربِّهِ؛ مادّاً يديْهِ؛ مستقبلَ القبلةِ، حتى سقطَ رداؤُهُ عن منكِبَيْهِ...

فأتاهُ أبو بكر رضي الله عنه فأخذَ رداءَه فألقاه على منكِبَيْه، ثمَّ التزَمَهُ من ورائِهِ وقال: حسبُكَ يا نبيَّ الله، كفاكَ مُناشدَتُك ربَّك، فإنَّهُ سيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1].

فخرج رسولُ الله ﷺ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[2].

فاستشارَ رسولُ الله ﷺ في مَخْرَجِهِ إلى بدرٍ حين بلغَهُ إقبالُ أبي سفيانٍ[3]، فأشارَ عليه أبو بكرٍ، فأعرض رسولُ الله ﷺ عنه، ثم أشار عمرُ، فأعرضَ عنهُ رسولُ الله ﷺ، ثم استشارهم.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٩.

(٢) سورة القمر الآية ٤٥.

(٣) أي: فوات قافلة أبي سفيان، مع وجود جيش قريش، فاستشارهم في العودة أو المواجهة.

فقال بعضُ الأنصار: إيَّاكم يريدُ نبـيُّ الله ﷺ يا معشر الأنصارِ.

فقال المقدادُ بنُ الأسودِ: تُشيرُنا يا نبـيَّ الله؟! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: اذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!!

وقال سعدُ بنُ عبادةَ: إيَّانا تُريدُ يا رسولَ الله؟! والذي نفسي بيدِهِ لو أمرتَنا أنْ نُخيضَها البحرَ لأَخضنَاها، ولو أمَرْتَنَا أَن نَضْرِبَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغِمادِ لفعلنا.

فاستقبلَ النَّبـيُّ ﷺ الكعبةَ فدعا على نفرٍ من قُريشٍ: على شَيبةَ بنِ رَبيعةَ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ عُبتةَ، وأبـي جهلِ بنِ هشامٍ، وقال: هذا مصرعُ فلانٍ ــ ويضعُ يدَهُ على الأرضِ ــ . . .

فما ماطَ أحدُهُم عن موضعِ يدِ رسولِ الله ﷺ.

* * *

فلمَّا طَلَعَ الفجرُ، نادى رسولُ الله ﷺ: الصلاةَ عبادَ الله. . .

فصلَّى رسولُ الله ﷺ بصحابَتِهِ، وحرَّضَ على القتالِ، ثمَّ قال: إنَّ جمعَ قُريشٍ تحتَ هذه الضِّلعِ الحمراءِ من الجبلِ.

فلما دنا القومُ من المسلمين وصفُّوا؛ إذا رجلٌ منهم على جملٍ له أحمر يسيرُ في المشركينَ، فقال رسولُ الله ﷺ: يا عليُّ، نادِ لي حمزةَ: مَنْ صاحبُ الجملِ الأحمرِ، وماذا يقولُ لهم؟

وكان حمزةُ أقربَهُم من المُشركينَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: إن يكنْ في القومِ أحدٌ يأمرُ بخيرٍ؛ فعسى أن يكونَ صاحبَ الجملِ الأحمرِ.

فجاء حمزةُ فقال: هو عُتبةُ بن ربيعةَ، وهو ينهى عن القتالِ، ويقول لهم:

يا قوم؛ إني أرى قوماً مُسْتَمِيتِينَ لا تَصِلُونَ إليهم وفيكم خيرٌ، يا قوم اعْصِبُوها اليومَ برأسي وقولوا: جَبُنَ عُتبةُ بنُ ربيعةَ، وقد علمتُمْ أنِّي لستُ بأجبَنِكُمْ.

فسَمِعَ ذلك أبو جهلٍ فقال: أنتَ تقولُ هذا؟ والله لو غيرُكَ يقولُ هذا لأَعْضَضْتُهُ، قدْ ملأتْ رِئَتُكَ جَوْفَكَ رُعْباً.

فقال عُتبةُ بنُ ربيعةَ: إيَّايَ تُعيِّرُ يا مُصفِّرَ اسْتِهِ؟ ستعلَمُ اليومَ أَيُّنا الجبانُ.

فبرَزَ عُتبةُ بنُ ربيعةَ وأخوهُ شَيبةُ وابنُه الوليدُ بنُ عُتبةَ حَمِيَّةً، فقالوا: مَنْ يُبارِز؟

فخرجَ فتيةٌ من الأنصارِ ستةٌ.

فقال عُتبةُ بنُ ربيعةَ: لا نُريدُ هؤلاءِ، ولكن يُبارِزُنا من بني عمِّنا من بني عبدِ المُطَّلبِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: قُمْ يا عليّ، وقُمْ يا حمزة، وقُمْ يا عَبيدة بنَ الحارثِ بن عبدِ المُطَّلبِ.

فقَتَلَ اللهُ تعالى عُتبةَ وشيبةَ ابْنَيْ ربيعةَ والوليدَ بنَ عتبةَ، وجُرِحَ عبيدةُ.

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رضي الله عنه: إنِّي لفي الصفِّ؛ إذ التَفَتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فَتَيَانِ حديثا السِّنِّ، فكأنِّي لم آمَنْ بمكانِهِما، إذ قال لي أحدُهُما سِرّاً من صاحِبِهِ: يا عمِّ؛ أرِنِي أبا جهلٍ.

فقلتُ: يا ابنَ أخي؛ وما تصنعُ به؟

فقال: عاهَدْتُ اللهَ إن رأيتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ؛ أو أموتَ دونَهُ.

فقال لِيَ الآخرُ سِرّاً من صاحِبِهِ مثلَهُ.

فما سَرَّنِي أنِّي بين رجلينِ مكانَهُما، فأشَرْتُ لهما إليهِ، فشدَّا عليهِ مِثْلَ الصَّقْرَينِ حتى ضَرَبَاهُ، وهما معاذٌ ومُعَوِّذٌ ابنا عفراء.

فقال النَّبيُّ ﷺ: من ينظرُ ما صنعَ أبو جهلٍ؟

فانطلقَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه فوجَدَهُ قد ضربَهُ ابنا عفراء حتَّى بَرَدَ، فقال له عبدُ الله: أأنت أبو جهلٍ؟ فأخذَ بلحيتِهِ.

فقال له أبو جهلٍ: وهل فوق رجلٍ قتلتموهُ؟!

* * *

وقد أمرَ نبيُّ الله ﷺ يومَ بدرٍ بأربعةٍ وعشرينَ رجلاً من صناديدِ قُريشٍ فقُذِفوا في طَوِيٍّ[١] من أطواءِ بدرٍ خبيثٍ مُخبثٍ.

وكان رسولُ الله ﷺ إذا ظَهَرَ على قوم أقامَ بالعَرْصَةِ[٢] ثلاثَ ليالي؛ فلمَّا كانَ ببدرٍ اليومَ الثالثَ: أمرَ براحلتِهِ فشُدَّ عليها رَحْلُها، ثُمَّ مَشَى واتَّبَعَهُ بعضُ أصحابِهِ وقالوا: ما نُرَى ينطلقُ إلاَّ لبعضِ حاجَتِهِ، حتى قامَ على شَفَةِ الرَّكيِّ[٣]، فجعلَ يُنادِيهمْ بأسمائهمْ وأسماءِ آبائِهِمْ: يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، ويا فُلانَ بنَ فُلانٍ، أيَسُرُّكُمْ أنَّكم أطعتُم اللهَ ورسولَهُ؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدَنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدُّتم ما وعدَ ربُّكم حقّاً؟

فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه: يا رسولَ الله؛ ما تُكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟!

فقال رسولُ الله ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، ما أنتُمْ بأسمعَ لما أقولُ منهُم.

فقتلوا يومئذٍ سبعينَ، وأسروا سبعينَ.

---

(١) أي: البئر المطوية بالحجارة.

(٢) أي: البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء.

(٣) أي: البئر.

فقال رسولُ الله ﷺ: ما ترونَ في هؤلاءِ الأسرى؟ لو كانَ المُطعمُ بن عديٍّ[١] حيّاً ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتُهُمْ له.

فقال أبو بكر: يا نبيَّ الله؛ هم بنو العمِّ والعشيرةِ، أرى أن نأخُذَ منهم فديةً فتكون لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يهديَهُم للإِسلامِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: ما ترى يا ابنَ الخطاب؟

فقال عمرُ: لا والله يا رسولَ الله، ما أَرَى الذي رأى أبو بكر، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فَنَضْرِبَ أعناقَهُم، فتُمكِّنَ عليّاً من عقيلٍ فيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمكِّنِّي من فلانٍ فأضربَ عُنُقَه، فإن هؤلاءِ أئمةُ الكفرِ وصنادِيدُها.

فهَوِيَ رسولُ الله ﷺ ما قالَ أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قال عمر.

فلما كان من الغدِ: جاء عمرُ: فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ قاعدانِ يبكيانِ، فقال: يا رسولَ الله؛ أخبرني، من أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحِبُكَ؟! فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجدْ بكاءً تباكيتُ لبُكائِكُما!

فقال رسولُ الله ﷺ: أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصحابُكَ من أخذِهِمُ الفِدَاءَ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهُم أدنى من هذه الشجرةِ.

وأنزلَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

* * *

---

(١) أي: هو الذي أجار النَّبيَّ ﷺ بمكة.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ٦٧ ــ ٦٩.

وكان حارثة بن سراقة رضي الله عنه قد أصيب يوم بدر وهو غلامٌ، فجاءتْ أمُّهُ إلى النَّبـيِّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله؛ قد عرفتَ منزلةَ حارثةَ مِنِّي، فإن يَكُنْ في الجنَّةِ، أصبرْ وأحتَسِبْ، وإن تكُنِ الأخرى تر ما أصنعُ.

فقال لها النبـيُّ ﷺ: ويحكِ، أَهَبِلْتِ، أوَ جنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنَّها جِنانٌ كثيرةٌ، وإنَّه في جنَّةِ الفِرْدَوْسِ.

وجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى النَّبـيِّ ﷺ فقال: ما تعدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟

فقال رسولُ الله ﷺ: من أفضلِ المُسلمينَ.

فقال جبريل عليه السلام: وكذلكَ من شَهِدَها من الملائِكَةِ.

* * *



غـزوة أحـد

لقد أُصيبَتْ قُريشٌ بعدَ بدرٍ باليأسِ وخيبَةِ الآمال، حتَّى مَشَى رجالٌ مِمَّنْ أصيب آباؤُهُم وأبناؤُهُم فكلَّمُوا أبا سفيانَ ومن كانت لَهُ مِنْ قُريشٍ تجارةٌ ومال، فرغبوا منهُم أن يُعينُوهُم على حَرْبِ المُصطفى المُختار، ليَشْفُوا صدُورَهُم ويُذْهِبُوا غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، ويُدْرِكُوا الثار.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾(١).

وقبلَ أنْ يَحْمَى وطيسُ الحربِ، اجتمعَ رسولُ الله ﷺ بالصَّحْب، فأجْلَسَ جيشاً من الرُّماة؛ وكانوا خمسينَ رَجُلاً، وأمَّر عليهم عبدَ الله بنَ جُبيرٍ رضي الله عنه، وقالَ لَهُمْ: لا تَبْرَحُوا، إن رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِم فلا تَبْرَحُوا، وإن رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهروا علينا فلا تُعِينُونَا.

فكانَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ الغلبةُ أولَ النَّهارِ، حتى قُتِلَ من أصحابِ لواءِ المُشركينَ سبعةٌ.

وكانَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ أحدٍ رَجُلانِ يُقاتِلانِ عنهُ، عليهِما ثيابٌ بيضٌ

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

كأشدِّ القتالِ، وهما جبرائيلُ وميكائيلُ عليهما السلام، وكان جبريلُ آخذاً برأسِ فرسِهِ، عليه أداةُ الحربِ.

وقد أخَذَ رسولُ الله ﷺ سيفاً، فقال لأصحابه رضي الله عنهم: مَنْ يَأْخُذُ منِّي هذا؟

فبَسَطُوا أيدِيَهُم، كلُّ إنسانٍ منهم يقول: أنَا أنَا.

فقال رسولُ الله ﷺ: فمن يأْخذُهُ بحقِّهِ؟

فأحجمَ القومُ.

فقال أبو دجانةَ سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ رضي الله عنه: أنا آخذُهُ بحقِّهِ.

فأخذَهُ، فَفَلَقَ بِهِ هامَ المُشركينَ.

وقال عليُّ بن أبـي طالب رضي الله عنه: ما سمعتُ النَّبـيَّ ﷺ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لأحدٍ، إلاَّ لسعدِ بن أبـي وقاصٍ؛ فإنِّي سمعتُه يقولُ له يومَ أحدٍ: يا سعدُ؛ ارْمِ، فداكَ أبـي وأمِّي.

فلمَّا غَنِمَ رسولُ الله ﷺ وأباحُوا عسكرَ المُشركين أكبَّ الرُّماةُ جميعاً فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمة!

فقالَ أميرُهم عبدُ الله بن جُبيرٍ: عَهِدَ إلينا النَّبـيُّ ﷺ: أن لا تبرحُوا.

قـال عبدُ الله بـنُ مسعـودٍ رضـي الله عنـه: فلَـوْ حَلَفْـتُ يَـوْمئِـذٍ رَجَـوْتُ أَنْ أبَـرَّ: إنَّـه ليسَ أحـدٌ منَّـا يُريدُ الدُّنْيـا، حتَّـى أنـزل اللهُ عـزَّ وجـلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

فدَخَلَتْ خيلُ المُشركينَ من ذلك الموضعِ على أصحابِ النَّبـيِّ ﷺ، فضربَ بعضُهم بعضاً والتبَسُوا، وقُتِلَ مِنَ المسلمينَ سبعونَ قتيلاً، نظيرَ من قُتِلَ من المُشركين في بدرٍ.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

فلمَّا انهزَمَ النَّاسُ عن النَّبـيِّ ﷺ قام أبو طلحةَ رضي الله عنه بينَ يَدَي النَّبـيِّ مُجَوِّبٌ[2] عليهِ بحجفة[3] له، وكان رَجُلاً رامياً شديدَ النَّزْعِ، فكسر يومئذٍ قوسينِ أو ثلاثاً.

وكان الرَّجلُ يمرُّ معهُ بجَعْبَةٍ من النَّبْلِ، فيقول له رسولُ الله ﷺ: انْثُرْها لأبـي طلحةَ.

ويُشْرِفُ النَّبـيُّ ﷺ ينظرُ إلى القوم، فيقول أبو طلحةَ: بأبـي أنتَ وأمِّي؛ لا تُشْرِفْ؛ يُصِبْكَ سهمٌ من سِهامِ القومِ! نَحْرِي دونَ نَحْرِكَ.

وأُفْرِدَ رسولُ الله ﷺ يومَها في سبعةٍ من الأنصارِ ورَجُلَيْنِ من قُرَيْشٍ، فلما رَهَقَ المُشركون رسولَ الله ﷺ قال: مَنْ يَرُدُّهُم عنَّا وهو رَفيقِـي في الجنَّةِ؟

فتقدَّمَ رجلٌ من الأنصارِ فقاتلَ حتَّى قُتِلَ، ثم رَهَقَهُ المشركون، فتقدَّمَ رجلٌ من الأنصارِ فقاتلَ حتَّى قُتِلَ، فلم يَزَلْ كذلكَ حتى قُتِلَ السبعةُ من الأنصارِ رضي الله عنهم، فقال رسولُ الله ﷺ لصاحِبَيْهِ القُرَشِيَّيْنِ: ما أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا.

* * *

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

(٢) أي: مُتَرِّسٌ عليه يقيه بالتُّرس، لأنه يقال للسلاح الذي يُتَّقى به ــ وهو التُّرس ــ: جَوْبَة.

(٣) أي: التُّرْسَةُ إذا كانت من الجلود.

وشُجَّ وجهُ النَّبـيِّ ﷺ يومَهَا، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ(١)، وكُسِرَتْ البيضةُ(٢) على رأسِهِ.

فصاح الشَّيطانُ: قُتِلَ مُحمَّدٌ!

فلـمْ يُشَـكَّ فيـهِ أنَّـهُ حـقٌّ، فمـا زال المُسلمـونَ كـذلـكَ لا يشكُّـون أنَّ رسولَ الله ﷺ قد قُتِلَ.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾(٣).

حتى طَلَعَ رسولُ الله ﷺ بين السَّعْدَيْنِ ـ سَعدِ بن أبـي وقَّاصٍ وطلحةَ بنِ عبيدِ الله رضي الله عنهما ـ ، فَعَرَفَهُ المُسلمون بتكَفُّئِه(٤) إذا مَشَى، فإنَّه لمْ يَبْقَ مـعَ رسـولِ الله ﷺ غيْـرَ سعـدٍ وطلحـةَ، حتـى شُلَّـتْ يـدُ طلحـةَ التـي وقـى بهـا رسولَ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: أوْجَبَ طلحةُ ـ حين صَنَعَ برسولِ الله ما صَنَعَ ـ .

فَرَقِـيَ رسولُ الله ﷺ نحوَ المُسلمينَ، فَفَرِحُوا كأنَّهُ لمْ يُصِبْهُمْ ما أصابَهُمْ.

فقال رسولُ الله ﷺ: كيف يُفْلِـحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهُم، وهُوَ يَدْعُوهُمْ إلى رَبِّهِم؟! اشتدَّ غضبُ الله على من قتلَهُ النَّبـيُّ ﷺ في سبيلِ الله، اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ دمَّوْا وجهَ نبـيِّ الله ﷺ.

ويقول مرَّة أخرى: اللَّـهُمَّ إنَّه ليسَ لهُمْ أَنْ يَعْلُونَا.

---

(١) أي: السنُّ التي بين الثَّنِيَّة والنَّاب.

(٢) أي: الخوذة، من الحديد، وهو السلاح، سُمِّيت بذلك لأنها على شكل بيضة النَّعام.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٤) أي: تمايله إلى قُدَّام.

وكانت فاطمةُ رضي الله عنها تُغَسِّلُ جُرْحَ رسولِ الله ﷺ، وعليُّ بن أبـي طالبٍ رضي الله عنه يَسْكُبُ الماءَ بالمِجَنِّ[١]، فلما رأتْ فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدَّمَ إلاَّ كثرةً أخذتْ قِطعةً من حَصيرٍ فأحْرَقَتْهَا وألْصَقَتْها، فاسْتَمْسَكَ الدَّمُ.

* * *

وكان رسولُ الله ﷺ إذا رفعَ رأسَهُ من الرُّكوعِ من الرَّكْعَةِ الآخرةِ من الفجر يقول: اللّـٰهُمَّ العَنْ فلاناً وفلاناً وفلاناً، بعدما يقول: سمع اللهُ لِمَنْ حَمِدَه؛ ربَّنا ولك الحمدُ، يدعو على: صفوان بن أميَّةَ؛ وسُهيلِ بن عمروٍ، والحارثِ بن هشام.

فأنزل اللهُ عزَّ وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[٢].

وأشرفَ أبو سفيانٍ يَصيحُ في أسْفَلِ الجبل: أفي القومِ مُحمدٌ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: لا تُجيبُوه.

فقال أبو سفيان: أفي القومِ ابنُ أبـي قُحافةَ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: لا تُجيبُوه.

فقال أبو سفيانٍ: أفي القومِ ابنُ الخطَّابِ؟ فلو كانوا أحياءً لأجابوا.

فلم يملِكْ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه نَفْسَهُ فقال: كَذَبْتَ يا عدوَّ الله، أبْقَى اللهُ عليكَ ما يُخزِيكَ، هذا رسولُ الله ﷺ؛ وهذا أبو بكرٍ، وها أنا ذا عمرُ.

ثمَّ أخَذَ أبو سفيانٍ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ.

---

(١) أي: التُّرْس.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

فقال النَّبـيُّ ﷺ: أجيبُوهُ.

فقال صحابَتُهُ رضي الله عنهم: ما نقولُ؟

فقال النَّبـيُّ ﷺ: قولوا: اللهُ أعلى وأجل.

فقال أبو سفيانٍ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم.

فقال النَّبـيُّ: أجيبوهُ.

فقال صحابَتُهُ رضي الله عنهم: ما نقولُ؟

فقال النَّبـيُّ ﷺ: قولوا: اللهُ مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيانٍ: يومٌ بيومِ بدرٍ، الأيامُ دولٌ، والحربُ سِجالٌ.

فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه: لا سَواءَ؛ قَتْلانَا في الجنَّةِ، وقَتْلاَكُمْ في النَّارِ.

فقال أبو سفيانٍ: إنَّكم لتَزْعُمُونَ ذلك؛ لقدْ خِبْنَا إذاً وخَسِرْنَا! أما إنَّكمْ لتجدونَ مُثلةً[1]؛ لم آمُرْ بها، ولم تَسُؤْنـي.

فلمَّا أصابَ رسول الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحدٍ، وانصرفَ عنه المُشركونَ؛ خافَ رسولُ الله ﷺ أن يَرجعوا فقال: من يذْهَبُ في إثْرِهِمْ؟

فانْتدبَ من المسلمينَ سبعون رجلاً، وكان فيهم: أبو بكر، والزبيرُ رضي الله عنهما، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

(١) أي: تمثيلٌ بقتلاكم.

قصة استشهاد حمزة رضي الله عنه وغيره من المسلمين:

لمَّا كانَ الصَّبْرُ جواداً لا يَكْبُو، وصَارِماً لا يَنْبُو، وجُنْداً غَالِباً لا يُهْزَم، وحِصْناً لا يُهْدَمْ ولا يُثْلَم؛ ابْتُلِيَ المُسلمونَ يومَ أحدٍ بِمَقتلِ سبعينَ من سادات الصَّحابَةِ المُتَّقينَ.

منهم: أنسُ بنُ النَّضْرِ، ومُصعبُ بنُ عميرٍ، وعبدُ الله بنُ حرامٍ، واليمانُ بن جابرٍ رضي الله عنهم.

وكان سيِّدُهُم: حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ رضي الله عنه؛ عمُّ رسولِ الله ﷺ ورضيعُهُ؛ المُلقَّبُ بأسدِ الله وأسدِ رسولِهِ.

وكان حمزةُ بنُ عبدِ المُطَّلبِ رضي الله عنه قد قَتَلَ طُعَيْمَةَ بن عَدِيٍّ بنِ الخِيَارِ بِبَدْرٍ، فقال جُبيرُ بن مُطعمٍ لغلامِهِ وحشيٍّ: إن قَتَلْتَ حمزةَ بعمِّي فأنتَ حُرٌّ.

فلمَّا أنْ خَرَجَ النَّاسُ إلى القتالِ؛ واصطفُّوا للنِّزالِ: خرَجَ سِباعُ بنُ عبدِ العُزَّى الخُزَاعِي فقال: هل من مُبَارزٍ؟ فخرجَ إليه حمزةُ فقال: يا سِباعُ؛ يا ابنَ أنمارِ مُقطِّعَةِ البُظُورِ[١]، أتُحادُّ اللهَ ورسولَهُ؟ ثمَّ شدَّ حمزةُ على سِباعٍ فقتله، فكان كأمسِ الذَّاهِبِ.

فكَمَنَ وحشيٌّ لحمزةَ تحت صخرةٍ، فلمَّا دنا مِنْهُ رَمَاهُ بِحَرْبَتِهِ، فَوَضَعَها في ثُنَّتِهِ[٢]؛ حتى خرجتْ من بينِ رُكبَتَيْهِ، فكانَ ذاكَ العهد بِهِ.

فأقْبَلَت امْرَأَةٌ تَسْعَى، حتَّى إذا كادَتْ أن تُشْرِفَ على القَتْلَى؛ كَرِهَ النَّبيُّ ﷺ أنْ تَرَاهُمْ، فقال: المَرْأَةَ المَرْأَةَ.

---

(١) أي: ختَّانة النساء.

(٢) أي: تحتَ سُرَّتِهِ.

قال الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رضي الله عنه: فتَوَسَّمْتُ أنَّها أمِّي صَفِيَّةُ بنتُ عبدِ المُطَّلبِ رضي الله عنها، فَخَرَجْتُ أسْعَى إلَيْهَا، فأدْرَكْتُهَا قَبْلَ أنْ تَنْتَهِـي إلى القَتْلَى، فلَدَمَتْ[١] في صَدْرِي، وكانَتْ امْرَأَةً جَلْدَةً، فقالتْ: إلَيْكَ، لا أرْضَ لكَ.

فقُلْتُ: إنَّ رسولَ الله ﷺ عَزَمَ عليكِ.

فوَقَفَتْ، وأخْرَجَتْ ثَوْبَيْنِ مَعَهَا، فقَالَتْ: هذانِ ثَوْبَانِ جِئْتُ بِهِما لأخِـي حَمزةَ، فقَدْ بَلَغَنِـي مَقْتَلَهُ، فَكَفِّنُوهُ فيهِما.

قال الزُّبَيْرُ: فجِئْنَا بالثَّوْبَيْنِ لنُكَفِّنَ فِيهِمَا حمزةَ؛ فإذا إلى جَنْبِهِ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ قَتيلٌ، قَدْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بحمزةَ، فَوَجَدْنَا غَضَاضَةً وحَيَاءً أنْ نُكَفِّنَ حمزةَ في ثَوْبَيْنِ والأنصاريُّ لا كَفَنَ لَهُ، فقُلْنا: لِحمزةَ ثَوْبٌ وللأنصاريِّ ثَوْبٌ، فقدَّرْنَاهُما؛ فكَانَ أحَدُهُما أكبرَ مِنَ الآخَرِ، فاقْتَرَعْنا بَيْنَهُما، فكفَّنَّا كلَّ واحِدٍ منهُمَا في الثَّوْبِ الذي صار لَهُ.

* * *

وقال أنسُ بنُ النَّضْرِ رضي الله عنه ـ وهو ممن لم يشهد بدراً ـ: غِبتُ عن أولِ قتالِ النَّبيِّ ﷺ، لئِنْ أشْهَدَنِـي اللهُ مع النَّبـيِّ ﷺ ليَرَيَنَّ اللهُ ما أُجِدُّ[٢].

فلَقِـيَ يومَ أحدٍ، فَهُزِمَ النَّاسُ، فقال: اللَّـهُمَّ إنِّي أعتذرُ إليك ممَّا صَنَعَ هؤلاءِ المُسلمونَ، وأبرأُ إليكَ ممَّا جاءَ بهِ المُشْرِكُونَ.

فتقدَّمَ أنسُ بنُ النَّضْرِ بسيفِهِ فلَقِـيَ سعدَ بنَ مُعاذٍ رضي الله عنه، فقال أينَ يا سعدُ؟ إنِّي أجدُ ريـحَ الجنَّةِ دونَ أُحدٍ، فمضَى حتى قُتِلَ، فما عُرِفَ حتَّى

---

(١) أي: ضَرَبَتْ.

(٢) أي: أجتهد.

عَرَفَتْهُ أختُهُ بِبَنانِهِ، وبِهِ بِضْعٌ وثمانونَ من طعنةٍ برُمْحٍ، وضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ، ورَمْيَةٍ بسَهْمٍ.

فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[1].

* * *

وقال جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهما: لمَّا حَضَرَ أُحدٌ دَعَانِـي أبـي من اللَّيْلِ، فقالَ: ما أُرانِـي إلاَّ مَقْتُولاً في أوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أصحابِ النَّبـيِّ ﷺ، وإنِّي لا أتْرُكُ بَعْدِي أعزَّ عليَّ مِنْكَ؛ غيرَ نَفْسِ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ عليَّ دَيْناً فاقْضِهِ، واستَوْصِ بأخَواتِكَ خَيْراً.

قال جابرُ: فأصْبَحْنَا؛ فَكَانَ أوَّلَ قَتِيلٍ، فجَعَلْتُ أبكي، وأكشفُ الثَّوْبَ عن وجهِهِ، فجعلَ أصحابُ النَّبـيِّ ﷺ يَنْهَوْنَنِـي، والنَّبـيُّ ﷺ لمْ يَنْهَنِـي.

حتى قال النَّبـيُّ ﷺ: لا تَبْكِهِ، ما زالت الملائكةُ تُظِلُّهُ بأجنِحَتِهَا حتَّى رُفِـعَ.

* * *

وقد أُتِـيَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رضي الله عنه يوماً بطعامٍ وكان صائماً، فقال: قُتِلَ مصعبُ بنُ عميرٍ رضي الله عنه في أحدٍ وهو خيرٌ منِّي، كُفِّنَ في بُـردةٍ، إن غُطِّـيَ رأسُـهُ بَـدَتْ رِجْـلاه، وإن غُطِّـيَ رجْـلاهُ بَـدَا رَأسُـهُ، فقـال لنـا النَّبـيُّ ﷺ: غطُّوا بها رأسَهُ، واجعلوا على رِجْلِهِ الإذْخِرَ.

ثم بُسِطَ لنا من الدُّنيا ما بُسِطَ، وقدْ خشينا أن تكونَ حسناتُنا قدْ عُجِّلَتْ لنا.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

ثمَّ جَعَلَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ يَبْكِـي حتَّى تَرَكَ الطَّعام.

* * *

وقد بَصُرَ حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنهما يومَ أُحدٍ؛ فإذا هو بأبيه اليمانِ بن جابرٍ رضي الله عنه، فلمْ يَعْرِفْهُ المسلمونَ حتى همُّوا بقتلِهِ، فقال حذيفةُ: أيْ عبادَ الله؛ أبـي أبـي، فما احتجز المسلمون حتى قتلُوه خطأً.

فقال حذيفة: يغفرُ اللهُ لكم.

فما زالتْ في حذيفةَ بِعَفْوِهِ وتَصدُّقِهِ بِدِيَةِ أبيهِ على المُسلمين بقيةُ خيرٍ؛ حتى لَحِقَ بالله عزَّ وجلَّ.

* * *

حكمه ﷺ في الشهداء:

وجاءت الأنصارُ إلى رسولِ الله ﷺ فقالوا: أصابَنَا قَرْحٌ وجَهْدٌ فكَيْفَ تَأمُرُنَا؟

فقال رسولُ الله ﷺ: احْفِرُوا وأوْسِعُوا، واجْعَلُوا الرَّجُلَيْن والثَّلاثَةَ في القَبْرِ.

فجَعَلَ رسولُ الله ﷺ يجمعُ بينَ الرَّجلين من قَتْلَى أُحدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ يقولُ: أيُّهُمْ أكثرُ أخذاً للقرآنِ؟

فإذا أُشيرَ له إلى أحدٍ قدَّمه في اللَّحْدِ، وقال: أنا شهيدٌ على هؤلاءِ يومَ القيامةِ.

وأمَـرَ رسـولُ الله ﷺ أن تُنْـزَعَ عَنْهُـمْ الحـديـدُ والجلـودُ، وأن يُـدْفَنُـوا بدمائِهِمْ، وقال: لا تُغَسِّلُوهُم، فإنَّ كلَّ جُرْحٍ يَفُوحُ مِسْكاً يومَ القِيَامَةِ، ولمْ يُصلِّ عليهم.

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ أصحابَهُ:

أنَّ أرواح إخْوَانِهِمْ بأُحدٍ في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الجنَّةِ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعَرْشِ، تَسْرَحُ من الجنَّةِ حيثُ شاءتْ، ثمَّ تأوي إلى تلكَ القناديلِ.

فاطَّلَعَ إليْهِم ربُّهُمْ اطِّلاعَةً فقال: هل تَشتهونَ شيئاً؟

فقالوا: أيُّ شيءٍ نشتهي!! ونحن نَسْرَحُ من الجنة حيثُ شِئْنا؟

ففَعَلَ ذلك بِهِمْ ربُّهُم ثلاثَ مرَّاتٍ.

فلمَّا رأوْا أنَّهم لنْ يُتْرَكُوا مِنْ أن يُسْأَلُوا قالوا: يا ربِّ؛ نُريدُ أن تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أجسادِنَا حتَّى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مرَّةً أُخْرَى.

فلمَّا رأى الربُّ أنْ ليسَ لَهُمْ حَاجَةً تُرِكُوا.

فلمَّا وجدوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ ومأكَلِهِمْ وحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قالوا: يا لَيْتَ إخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بما صَنَعَ اللهُ لَنَا؛ لِئَلا يَزْهدُوا في الجِهَادِ، ولا يَنْكِلُوا عن الحَرْبِ.

فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا أبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاءِ الآياتِ على رسولِهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

* * *

وقدْ مرَّ رسولُ الله ﷺ بِنسَاءِ عَبْدِ الأشْهَلِ يَبْكِينَ هَلْكَاهُنَّ يَوْمَ أُحدٍ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: لَكِنَّ حمزةَ لا بَوَاكِـيَ لَهُ.

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ ــ ١٧١.

فجاءَ نِساءُ الأنصارِ يَبْكِينَ حمزةَ، فاسْتَيْقَظَ رسولُ الله ﷺ فقال: وَيْحَهُنَّ!! ما انْقَلَبْنَ بَعْدُ؟!! مُرُوهُنَّ فَلْيَنْقَلِبْنَ، ولا يَبْكينَ على هالكٍ بَعْدَ اليَوم.

وقال النَّبيُّ ﷺ: رأيتُ في رُؤيايَ أنِّي هَزَزْتُ سيفاً فانقطع صدرُهُ، فإذا هو ما أُصيبَ من المؤمنين يومَ أُحدٍ؛ ثمَّ هَزَزْتُهُ أخرى فعادَ أحسنَ ما كانَ، فإذا هو ما جاءَ بهِ الله من الفتحِ واجتماعِ المُؤمنينَ؛ ورأيتُ فيها بقراً، والله خيرٌ، فإذا هُمْ المُؤمنون يومَ أحدٍ.

ثمَّ صلَّى رسولُ الله ﷺ على قَتْلَى أُحدٍ بعدَ ثمانِيَ سنينَ؛ كالمُودِّعِ للأحياءِ والأمواتِ.

* * *



حادثة الإفك

لَقَدْ أوذيَ خاتمُ الأنبياءِ والمُرسلينَ؛ صلَّى وسلَّمَ عليهِ ربُّ العالَمِينَ، من قِبَلِ المُنَافِقِينَ المَارِقِينَ من الدِّين؛ نَظِيرَ ما أوذِيَ بِهِ من المُشْرِكينَ.

ولقد بَلَغَ أذاهُمْ بِرسولِ الله ﷺ أن اتَّهمُوهُ في عِرْضِهِ المَكْنُونِ، فقذفوا بالإِفْكِ زَوجَهُ المَصون.

تقولُ عائشةُ أمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ أنْ يَخْرُجَ سفراً أقرعَ بين أزواجِهِ، فأيَّتُهُنَّ خرجَ سهمُهَا خرجَ بها معهُ؛ فأقرع بينَنَا في غَزاةٍ غَزاها، فخرجَ سَهْمِـي، فخرجتُ معهُ بعد ما أُنْزِلَ الحِجَابُ، فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ وأُنْزَلُ فيه.

فسِرْنَا؛ حتَّىٰ إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من غَزْوَتِهِ تلكَ وقفلَ ودَنَوْنَا من المدينةِ قَافِلينَ؛ آذنَ ليلةً بالرَّحيلِ.

فقمتُ حِينَ آذنوا بالرحيلِ، فمَشَيْتُ حتَّى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى الرَّحل، فلمستُ صَدْرِي؛ فإذا عِقْدٌ لي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ[١] قد انقطعَ، فرجعتُ فالتمستُ عِقْدِي فحبسني ابتغاؤُه.

فأقبلَ الذين يَرْحَلُونَ لي؛ فاحتملوا هَوْدَجي فرَحَلُوهُ على بَعِيري الذي

---

(١) أي: خرز يماني، نسبة إلى ظفار: قرية باليمن.

كنتُ أركبُ، وهم يَحْسَبُونَ أنِّي فيه، وكان النِّساءُ إذ ذاكَ خِفافاً لم يَثْقُلْنَ، ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ؛ وإنَّما يأكلنَ العُلْقَةَ[١] من الطَّعام؛ فلم يستنكرْ القومُ حينَ رفعوهُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ فاحتملوهُ، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا.

فوجدتُ عِقْدِي بعدَما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منزلَهُمْ وليس فيه أحدٌ، وليسَ بِهَا مِنْهُمْ داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيمَّمْتُ[٢] مَنْزِلِـي الذي كنتُ به، فظننتُ أنَّهم سيفقدونَنِـي فيرجعونَ إليَّ.

فبينما أنا جالسةٌ غلبتنِـي عَيْنَايَ فنِمْتُ.

وكـان صفـوانُ بـن المُعطِّـلِ السُّلمـيُّ الـذَّكْـوانـيُّ رضـي الله عنـه مِـنْ وراءِ الجَيش، فأصبحَ عندَ منزِلِي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ فأتاني، وكان يرانِـي قبلَ الحِجابِ، فاستيقظتُ باسترجاعِهِ حينَ عَرَفَنِـي، فخمَّرتُ وَجْهِـي بِجِلْبَابِـي، والله ما تكلَّمْنَا بكلمةٍ، ولا سمعتُ منهُ كلمةً غيرَ اسْتِرْجَاعِهِ.

فأناخَ راحِلَتَهُ فوطِـىءَ يَدَهَا فركبتُها، فانْطَلَقَ يقودُ بِـيَ الرَّاحِلَةَ حتَّى أتينا الجيشَ بعدَما نَزَلُوا مُعرِّسينَ في نحرِ الظَّهيرةِ.

فهلكَ مَنْ هلكَ فِـيَّ..!

وكان الذي تولَّى الإفكَ: عبدُ الله بنُ أبـيٍّ ابن سلولٍ.

فقدمنَا المدينةَ، فاشتكيتُ بها شهراً، يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أصحابِ الإفكِ، ويَريبُنِـي فِـي وجَعِـي: أنِّي لا أرى مِنَ النَّبـيِّ ﷺ اللُّطفَ الذي كنتُ أرى مِنْهُ حينَ أمرَضُ، إنَّما يَدخلُ فيُسلِّمُ، ثم يقولُ: كيف تِيكُمْ[٣]؟

---

(١) أي: الشيء القليل.

(٢) أي: قصدته.

(٣) أي: هذه، وهي إشارة تنبيه للمؤنث، مثل (ذاكم) للمذكر.

فذلك يَرِيبُنِـي ولا أشْعَرُ بالشَّرِّ، حتَّى خرجتُ حينَ نَقَهْتُ[١].

فخرجتُ أنا وأمّ مِسْطَح بنتُ أبـي رُهـمِ بن عبدِ المُطلِّبِ، وهي ابنةُ خالةِ أبـي بكرٍ الصِّديقِ رضي الله عنهما، فخرجنا قِبَلَ المَناصع، وهو مُتبرَّزُنا، لا نخرجُ إلاَّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبْلَ أن نتَّخذَ الكُنُفَ قريباً مِنْ بُيُوتِنَا، وأمرُنا أمرُ العَربِ الأُوَلِ في البرِّيَّةِ أوفي التَّنزُّهِ، وكُنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أنْ نتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا.

فأقبلتُ أنا وأمُّ مِسْطَح قِبَلَ بَيْتِـي، حينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأنِنَا؛ فعثرتْ أمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطِها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ.

فقلتُ لها: أيْ أمِّ؛ تَسُبِّينَ ابْنَكِ؟!

فسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَت الثَّانِيَةَ، فقالتَ: تَعِسَ مِسْطَحٌ.

فقلتُ لها: أيْ أمِّ؛ تَسُبِّينَ ابْنَكِ؟!

فسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّالِثَةَ، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ.

فانْتَهَرْتُهَا، فقلتُ لها: بِئْسَ ما قُلتِ، أتسبِّينَ رجلاً شَهِدَ بدراً.

فقالتْ: والله؛ ما أسبُّهُ إلاَّ فِيكَ، ألمْ تسمعِـي ما قال؟!

فقلتُ: وما قالَ؟

فأخبرتنـي بقولِ أهلِ الإِفكِ!

فقلتُ: سَمِـعَ بهذا رسولُ الله ﷺ؟!

فقالتْ: نَعَمْ.

فقلتُ: وأبو بكر؟!.

فقالتْ: نَعَمْ.

---

(١) أي: برأت وأفقت.

فازدَدتُ مَرَضاً إلى مَرَضِـي .

فلمَّا رجعتُ إلى بيتي دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فسلَّمَ فقال: كيف تِيكُمْ؟

فقلتُ: أتأذَنُ لي أنْ آتي أبويَّ؟!

وأنا أريدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخبرَ مِنْ قِبَلِهِمَا.

فـأرسـل رسـولُ الله ﷺ مَعِـيَ غُـلامـاً، فـدخلـتُ الـدَّارَ، فـوَجَـدْتُ أمِّي أمَّ رُومانٍ في السَّفْلِ، وأبو بكر فوقَ البيتِ يَقْرَأُ.

فقالتْ أمِّي: ما جاءَ بِكِ يا بُنَيَّةُ؟

فقلتُ: ما يَتَحَدَّثُ بهِ النَّاسُ؟!

فقالتْ: يا بُنيَّةُ؛ هوِّني على نفسِكِ الشَّأنَ، فوالله؛ لقلَّما امرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عندَ رجلٍ يُحِبُّها ولها ضرائرُ إلاَّ أكثَرْنَ عليها.

فإذا الحديثُ لمْ يَبْلُغْ منها ما بَلَغَ مِنِّي، فقلتُ: سُبحانَ الله، ولقدْ يتحدَّثُ النَّاس بهذا؟! وقدْ عَلِمَ بِهِ أبـي؟!

فقالتْ: نَعَمْ.

قُلْتُ: ورسولُ الله ﷺ؟!

فقالتُ: نَعَمْ.

فاستَعْبَرْتُ[١] وبَكَيْتُ!

فَسَمِـعَ أبو بكرٍ صوتِـي وهُوَ فَوْقَ البَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ فقالَ لأمِّي: ما شَأْنُها؟!

فقالت: بَلَغَهَا الذي ذُكِرَ مِن شَأْنِهَا.

فَفَاضَتْ عَيْنَا أبـي بكر فَقَالَ: أقْسَمْتُ عَلَيْكِ يا بُنَيَّةُ إلاَّ رَجَعْتِ إلى بَيْتِكِ.

---

(١) أي: دمعتُ.

فَرَجَعْتُ، فبتُّ الليلةَ حتَّى أصبحتُ، لا يرقأُ لي دَمْعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ أبْكِـي.

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبـي طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ حين استلبثَ[١] الوحيُ، يَسْأَلُهُما ويستشيرُهُمَا في فراقِ أهلِهِ.

فأمَّا أسامةُ بن زيد رضي الله عنه فأشارَ عليه بالذي يعلمُ في نفسِهِ من الوُدِّ لهم، فقال: أهلُكَ يا رسولَ الله، ولا نعلمُ والله إلاَّ خيراً.

وأما عليُّ بنُ أبـي طالبٍ رضي الله عنه فقال: يا رسولَ الله؛ لم يُضيِّقِ اللهُ عليكَ، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وسلِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ.

فدعا رسولُ الله ﷺ بريرةَ، فقال: يا بريرة هلْ رأيتِ فيها شيئاً يُريبُكِ؟

فقالتْ بريرةُ: لا، والذي بعثك بالحقِّ، ما عَلِمْتُ عليها عَيْباً؛ إلاَّ أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تَرْقُدُ حتى تَدْخُلَ الشَّاةُ فتَأكُلَ خَمِيرَتَهَا أو عجينَتَها.

فانْتَهَرَها بعضُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فقال: أُصْدُقِـي رسولَ الله ﷺ.

فقالت: سبحانَ الله، والله ما عَلِمْتُ عَلَيْهَا إلاَّ ما يَعْلَمُ الصَّائِـغُ على تِبْرِ الذَّهَبِ الأحْمَرِ.

وسألَ رسولُ الله ﷺ زوجَهُ زينبَ بنتَ جَحْشٍ رضي الله عنها عن أمْرِي، فقال: يا زينبُ؛ ما عَلِمْتِ؟ مَا رَأَيْتِ؟

فقالت: يا رسولَ الله أحمِـي سَمْعِـي وبَصَرِي، والله ما عَلِمْتُ عليها إلاَّ خيراً.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: وزينبُ التي كانتْ تُسَامِينِـي[٢]، فَعَصَمَهَا اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ.

---

(١) أي: أبطأ وتأخر.

(٢) أي: تُضاهيني بجمالها ومكانتها عند النبـي ﷺ، وأصله من السمو، وهو الارتفاع.

فقامَ رسولُ الله ﷺ مِنْ يَومِهِ، فاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبدِ الله بن أُبـيٍّ ابن سلولٍ وهو على المِنْبَرِ، فقال: يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ، مَنْ يَعْذُرُونِـي مِنْ رجلٍ قَدْ بَلَغَنِـي عنهُ أذاهُ في أهلِـي؟! فوالله، ما علمتُ على أهلي إلاَّ خيراً. ولقدْ ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلاَّ خيراً، وما كان يدخلُ على أهلي إلاَّ معي، ولا غبتُ في سفرٍ إلاَّ غابَ مَعِـي.

فقام سيِّدُ الأوس[١] فقال: يا رسولَ الله، أنا والله أعذُرُكَ، إنْ كَانَ مِنْ الأوسِ ضربنا عُنُقَهُ، وإنْ كانَ من إخوانِنَا مِنْ الخزرجِ أَمَرْتَنَا ففعلنَا أمْرَكَ.

فقام سيِّدُ الخَزْرَجِ[٢] فقال: كذبتَ لعمرُ الله، لا تقتُلُهُ؛ ولا تقدرُ على ذلكَ.

فقامَ رجلٌ آخرُ من الأوسِ[٣] فقالَ: كذبتَ لعمرُ الله، والله لنَقْتُلَنَّهُ، فإنَّكَ مُنافقٌ، تجادلُ عن المُنافقينَ؟!

فثارَ الحيَّان: الأوسُ والخرزجُ حتَّى همُّوا أن يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المِنْبَرِ فنزلَ، فما زالَ يُخفِّضُهُمْ حتَّى سكتُوا وسكتَ.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: وبكيتُ يَوْمِـي لا يرقأُ لي دَمْعٌ ولا أكتَحِلُ بنومٍ، فأصبحَ عندِي أبَوَايَ قدْ بَكيتُ لَيْلَتَيْنِ ويوماً، وأبَوَايَ يَظُنَّانِ أن البكاءَ فالقٌ كبدِي.

فبينما أبوايَ جالسانِ عندي وأنا أبكي؛ إذ استأذَنَت امرأةٌ من الأنصارِ؛ فأذِنْتُ لها، فَجَلَسَتْ تَبْكِـي مَعِـي.

فبينما نحنُ كذلكَ: إذ دخلَ رسولُ الله ﷺ وقد صلَّى العَصرَ، ثُمَّ جلسَ،

---

(١) أي: سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٢) أي: سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٣) أي: أسيد بن حضير، وهو ابن عمِّ سعد بن معاذ رضي الله عنهما.

ولم يجلِسْ عندِي من يومِ قيلَ فيَّ ما قِيلَ قَبْلَهَا، وقد مَكَثَ شَهْراً لا يُوحَى إليه في شَأني شيءٌ، فتشهَّدَ ﷺ حينَ جلسَ، ثُمَّ قال: يا عائشةُ، فإنَّهُ بلغنِـي عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيُبَرِّئُكِ اللهُ، وإن كنتِ ألْمَمْتِ بشيءٍ فاستغفِري اللهَ وتُوبِـي إليهِ، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تابَ تابَ اللهُ عليهِ.

فلمَّا قضى رسولُ الله ﷺ مَقالَتَهُ قَلَصَ[1] دَمْعِـي؛ حتَّى ما أُحِسُّ منهُ قَطْرَة، وقُلتُ لأبـي: أَجِبْ عَنِّي رسولَ الله ﷺ.

فقال أبو بكرٍ: والله ما أدْرِي ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ.

فقلتُ لأمِّي: أجيبـي عنِّي رسولَ الله ﷺ فيما قالَ.

فقالت أمُّ رومانٍ: والله ما أدْرِي ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ.

وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيراً من القرآنِ، فحَمِدْتُ اللهَ وأثْنَيْتُ عليهِ بِمَا هُوَ أهْلُهُ، ثُمَّ قلتُ: إنِّي والله؛ لقدْ علمتُ أنَّكمْ سَمِعْتُمْ ما يَتَحَدَّثُ بهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ في أنْفُسِكُمْ وصدَّقْتُمْ بِهِ، ولَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إنِّي بَرِيئَةٌ ـ والله يعلمُ إنِّي لبَرِيئَةٌ ـ، لا تُصَدِّقُونِـي بذلِكَ، وما ذاكَ بنَافِعِـي عِنْدَكُمْ لِـي، لَقَدْ تكلَّمْتُمْ وأُشْـرِبَـتْ قُلُـوبُكُـمْ. ولَئِـنْ اعْتَـرَفْـتُ لَكُـمْ بـأمْـرٍ ـ واللهُ يعلـمُ إنِّـي بَـرِيئَـةٌ ـ، لَتُصَدِّقُنِّي، ولَتَقُولنَّ: إنَّها قدْ باءتْ بهِ على نَفْسِهَا. واللهِ ما أجدُ لِـي ولَكُمْ مَثَلاً: إلاَّ أبا يُوسُفَ إذْ قالَ: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[2].

ثُمَّ تَحوَّلْتُ فاضطجعتُ على فِرَاشِـي، واللهُ يعلمُ أنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وأنا أرجُو أن يُبَرِّئَنِـي اللهُ، ولَكِنْ ما ظَنَنْتُ أنْ يُنْزِلَ في شَأنِـي وَحْياً يُتْلَى، ولشَأنِـي كانَ أحقرَ في نَفسِـي مِنْ أَنْ يَتكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالقُرْآنِ فيَّ بِأمرٍ يُتْلَى، ولَكِنِّي كُنتُ أرْجُو أن يَرَى رسولُ الله ﷺ في النَّومِ رُؤيا يُبَرِّئُنِـي اللهُ تعالى.

---

(١) أي: ارتفع.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٨.

فواللهِ، ما رامَ[١] رسولُ الله ﷺ مَجْلِسَهُ، ولا خرجَ أحدٌ مِنْ أهلِ البيتِ حتَّى أُنْزِلَ عليهِ الوَحْيُ، فأَخَذَهُ ما كان يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حتَّى إنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ في يومٍ شَاتٍ؛ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

فسُرِّيَ عَنْ رسولِ الله ﷺ وهُوَ يَضْحَكُ، فكانَ أوَّلَ كلمةٍ تكلَّمَ بِهَا رسولُ الله ﷺ أنْ قَالَ لِي: يا عائشةُ؛ أمَّا اللهُ فقدْ بَرَّاكِ، فاحْمَدِي اللهَ.

فقالتْ لي أُمِّي: قُومِي إلى رسولِ الله ﷺ.

فقلتُ: لا واللهِ؛ لا أقومُ إليهِ، ولا أحمدُ إلَّا اللهَ، فإنَّه بحمدِ الله، لا بحمدِ أحدٍ ولا حَمْدِك.

فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

فقامَ رسولُ الله ﷺ على المِنْبَرِ، فذَكَرَ ذلكَ وتَلا القُرْآنَ.

فلمَّا نَزَلَ؛ أمَرَ بِرَجُلَيْنِ وامْرَأةٍ فضُرِبُوا حدَّهُمْ.

وكانَ الذينَ تكلَّموا به: مِسْطَحُ بنُ أثاثةَ، وحمنةُ بنتُ جحشٍ، وحسَّانُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنهم.

وأمَّا المُنافِقُ عبدُ الله بنُ أبيٍّ ابن سلولٍ؛ فهو الذي كان يَسْتَوْشِيهِ[٣] ويَجْمَعُهُ، وهو الذي تولَّى كِبْرَهُ.

* * *

وكانَ أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه يُنْفِقُ على مِسْطَح بن أثاثَةَ لقرابَتِهِ منهُ، فقال: والله لا أنْفِقُ على مِسْطَح شيئاً أبداً بعدَ الذي قالَ لعائشَةَ ما قَالَ.

(١) أي: ما بَرِح وما فارق.

(٢) سورة النور: الآيات ١١ ــ ٢٢.

(٣) أي: يستخرج الحديث بالبحث عنه، والنم عليه، والسَّعي به.

فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[١].

فقال أبو بكرٍ: بَلَى والله؛ إنِّي لأُحِبُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لِي.

فَرَجَعَ إلى مِسْطَحِ الذي كان يُجْرِي عليه، وقالَ: والله لا أَنْزَعُهَا منْهُ أبداً.

قالتَ عائِشَةُ رضي الله عنها: ووالله؛ إنَّ صفوانَ بنَ مُعَطِّل ــ الذي قيلَ له مَا قِيلَ ــ ليَقُولُ: سبحانَ الله!! فوالذي نَفْسِي بِيَدِهِ ما كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ[٢] أُنْثَى قَطُّ.

وقَدْ قُتِلَ رضي الله عنه شَهيداً في سبيلِ الله.

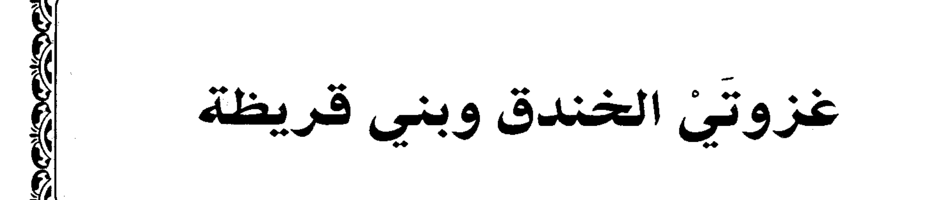
وكانت عَائِشَةُ رضي الله عنها تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَها حسَّانُ رضي الله عنه، وتقولُ: فإنَّهُ قال:

فــإنَّ أبــي ووالِــده وعِــرْضِــي ... لِــعِــرْضِ مُـحـمَّـدٍ مِـنْـكُـمْ فِـدَاءُ

* * *

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

(٢) أي: ستر، وهو ثوبها الذي يسترها، وهو كناية عن الجماع.



غزوتَيْ الخندق وبني قريظة

يومُ الخندقِ؛ وما أدراكَ ما يومُ الخندِق؟ يومٌ زَاغَتْ فيه الأبْصارُ وبَلَغَتْ القلوبُ الحناجرَ وعلا المؤمنينَ الكربُ والقلق، يومٌ تحزَّب فيه على رسولِ الله ﷺ الأحزاب، من المُشركين ومن مالأَهُمْ من يهود المدينة ليَسُومُوا المؤمنين سوء العذاب، وقد وصفَهُ ربّ الأرباب؛ بقوله في الكتاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[١].

وقد خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى الخندقِ؛ فإذا المُهاجرونَ والأنصارَ يَحْفِرونَهُ حولَ المدينةَ في غداةٍ باردةٍ، إذْ لمْ يكنْ لهُمْ عبيدٌ يعملونَ ذلكَ لَهُمْ، وكانوا يَعملون فيه نهاراً، فإذا أمْسَوْا رجعُوا إلى أهليهم.

فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ما بِهمْ من النَّصَبِ والجوعِ جعلَ يَنقُلُ مع صحابَتِهِ رضي الله عنهم التُّرابَ؛ وهُمْ ينقُلونَ التّرابَ على أكتافِهِمْ، حتَّى وَارى التُّرابُ بياضَ بَطْنِهِ وشَعْرَ صَدْرِهِ ﷺ. . .

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٩ ــ ١١.

فكانَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم يَرْتَجِزُونَ، ورسولُ الله ﷺ معهُمْ يَرْتَجِزُ بكلمات عبدِ الله بن رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

والله لـولا أنـتَ مـا اهْتَـدَيْنـا ولا تصـدَّقْنَـا ولا صلَّيْنـا

فـأنْـزِلَـنْ سكينـةً علينَـا وثَبِّـتْ الأقـدامَ إنْ لاقَيْنَـا

إنَّ الأُلَـى قَـدْ أَبَـوْا علينَـا إذا أرادُوا فتنـةً أَبَيْنَـا

وكانَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم يقولونَ:

نحـنُ الـذيـنَ بـايعُـوا مُحمَّـدا علـى الإسـلامِ مـا بَقِينـا أبـدا

والنبـيُّ ﷺ يقولُ:

اللَّـهُـمَّ إنَّ الخيـرَ خيـرُ الآخـره فـاغْفِـرْ لـلأنصـارِ والمُهـاجِـره

ويرفعُ رسولُ الله ﷺ بها صوتَهُ.

فبينما الصَّحابةُ رضي الله عنهم يَحْفِرُونَ؛ إذا عَرَضَتْ صخرةٌ حالتْ بينَهُمْ وبيـنَ الحَفْرِ، فجاؤوا إلـى النَّبـيِّ ﷺ، فقـالـوا: هـذه كُـدْيَـةٌ(١) عَـرَضَـتْ فـي ٱلخَنْدَقِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: أنا نازلٌ.

ثـمَّ قـامَ رسـولُ الله ﷺ وبطنُـهُ مَعصـوبٌ بحَجَـرٍ مـن الجـوع، فـأخـذَ المِعْوَلَ(٢)، ووضعَ رداءَهُ ناحِيَةَ الخَندقِ وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٣).

---

(١) أي: الأرض الغليظة الصلبة، بين الحجارة والطين.

(٢) أي: الحديدة التي يُنقر بها الجبال.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

فَنَـدَرَ ثُلُـثُ الحجرِ، وسلمـانُ الفـارسـيُّ قـائـمٌ ينظـرُ، فبَـرَقَ مـع ضـربَـةِ رسولِ الله ﷺ بَرْقَةٌ.

ثم ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ الثانِيَةَ، وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

فَنَدَرَ الثُلُثُ الآخرُ، فبَرَقَتْ بَرْقَةٌ، فرآها سلمانُ.

ثم ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ الثالِثَةَ، وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

فَنَدَرَ الثُلُثُ الباقي.

وخرجَ رسولُ الله ﷺ، فأخذ رداءَهُ وجلسَ.

فقال سلمانُ: يا رسولَ الله، رأيتُكَ حينَ ضَرَبْتَهُ، ما تضربُ ضَرْبَةً إلاّ كانتْ معها بَرْقَةٌ!

فقال له رسولُ الله ﷺ: يا سلمانُ؛ رأيتَ ذلك؟

فقال سلمانُ: إي، والذي بعثَكَ بالحقِّ يا رسولَ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: فإنِّي حِينَ ضربتُ الضَّرْبَةَ الأولى؛ رُفِعَتْ لِـيَ مَدَائِنُ كِسْرَى ومَا حَوْلَهَا ومَدَائِنُ كَثِيرَةٌ، حتَّى رأيْتُها بِعَيْنَيَّ.

فقال الصحابةُ رضي الله عنهم: يا رسولَ الله؛ ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنا، ويُغَنِّمَنَا دِيَارَهُم، ويُخَرِّبَ بِأَيْدِينا بِلادَهُم.

فَدَعَا رسولُ الله ﷺ بذلك.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: ثمَّ ضربتُ الضِّرْبَةَ الثَّانية؛ فَرُفِعتْ لِـيَ مَدَائِنُ قَيْصرَ ومَا حَوْلَهَا ومَدَائِنُ كَثِيرَةٌ، حتَّى رأيْتُها بِعَيْنَيَّ.

فقال الصحابةُ رضي الله عنهم: يا رسولَ الله؛ ادْعُ اللهَ أنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا، ويُغَنِّمَنَا دِيَارَهُم، ويُخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلادَهُم.

فَدَعَا رسولُ الله ﷺ بذلك.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: ثمَّ ضربتُ الضَّرْبَةَ الثَّالثة؛ فرُفِعَتْ لِـي مَدَائِنُ الحَبَشَةِ ومَا حَوْلَهَا مِنَ القُرَى، حتَّى رأيْتُها بِعَيْنَيَّ.

فَقَالَ رسولُ الله ﷺ عندَ ذلك: دَعُوا الحبشةَ ما وَدَعُوكُمْ، واتْرُكُوا التُّرْكَ ما تَرَكُوكُمْ.

* * *

وقد رأى جابرُ بنُ عبدِ الله الأنصاريُّ رضي الله عنهما رسولَ الله ﷺ خَمِصاً[١]، قد لَبِثَ هو وأصحابُهُ رضي الله عنهم ثلاثة أيام لا يَذُوقون ذَوَاقاً، قال جابر: فقلتُ: ائْذَنْ لِـي إلى البَيْتِ.

فانكَفَأتُ إلى امرأتي، فقلتُ لها: هلْ عندكِ شيءٌ؟ فإني رأيتُ برسولِ الله ﷺ خَمَصَاً شديداً.

فأخْرَجَتْ لي جِرَاباً فيه صاعٌ مِنْ شعير، ولنا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ[٢]، فذبحتُها وطحنتُ الشَّعيرَ حتَّى جعلنَا اللَّحْمَ بالبُرْمَةِ، ثمَّ ولَّيْتُ إلى رسولِ الله ﷺ. فقالت لي امرأتي: لا تَفْضَحْنِـي برسولِ الله ﷺ ومَنْ مَعَهُ.

فجئتُ رسولَ الله ﷺ فساررتُهُ، فقلتُ: يا رسول الله، إنَّا قد ذبحنَا بُهيمةً لنا، وطحنتُ صاعاً من شعيرٍ كان عندَنَا، فقُمْ أنتَ يا رسولَ الله، ورجلٌ أو رَجُلانِ.

---

(١) أي: خالِـيَ البطنِ من الطَّعام.
(٢) أي: الشاة التي ألفت البيت.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: كمْ هُوَ؟

فقلتُ: طُعَيِّمٌ لِـي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: كثيرٌ طيِّبٌ.

فصاحَ رسولُ الله ﷺ في النَّاسِ وهم يومئذٍ ألفٌ، فقال: يا أهلَ الخندقِ، إنَّ جابراً قد صنعَ لكم سُوراً(١)، فحيَّهلا بكم.

وقال لي رسولُ الله ﷺ: لا تُنزلُنَّ بُرمتكم، ولا تَخْبِزُنَّ عجينتكم حتَّى أجيءَ.

فجئتُ، وجاءَ رسولُ الله ﷺ يَقْدُمُ النَّاس، حتى جئتُ امرأتي فقلتُ: وَيْحَكِ! جاء النَّبيُّ ﷺ بالمُهاجِرينَ والأنصارِ ومَنْ مَعَهُمْ!

فدعتْ عليَّ وقالت: بكَ وبكَ(٢).

فقالت: هلْ سألكَ؟

فقلتُ لها: قد فعلتُ الذي قُلتِ لي.

فقال رسولُ الله ﷺ: ادْخُلوا ولا تضاغَطُوا.

فبصقَ رسولُ الله ﷺ في عَجينَتِنَا وباركَ، ثم عمدَ إلى بُرْمَتِنَا فبصقَ فيها وباركَ، ثم قال رسولُ الله ﷺ لامرأتي: ادْعِـي خابزةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، واقْدَحِـي مِنْ بُرْمَتِكُمْ، ولا تُنْزِلُوها.

فجعلَ رسولُ الله ﷺ يَكْسِرُ الخُبْزَ ويجعلُ عليهِ اللحمَ، ويُخمِّر البُرْمَةَ والتنُّورَ إذا أخذ منهُ، ويُقرِّبُ إلى أصحابِهِ ثمَّ يَنْزِعُ.

---

(١) أي: ضيافة.

(٢) أي: فعل الله بك كذا وكذا، حيث أتيت بناس كثير، والطعام قليل، وذلك مُوجب للخجلة.

فلمْ يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يكسِرُ الخُبزَ ويَغْرِفُ حتَّى شَبِعُوا، وبَقِـي بقيَّةٌ، فقال رسولُ الله ﷺ لامرأتي: كُلي هذا واهدِي، فإنَّ النَّاس أصابَتْهُمْ مَجاعَةٌ.

قال جابرٌ: فأُقسِمُ بالله، لأكَلُوا حتى تَركُوهُ وانْحَرَفُوا، وإنَّ بُرْمَتَنَا لتغِطُّ[1] كما هي، وإنَّ عَجينَنا ليُخبَزُ كما هو.

* * *

وقال حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنهما: لقد رأيْتُنَا مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ الأحزابِ، وأخَذَتْنا ريحٌ شديدةٌ وَقَرٌّ[2].

فقال رسولُ الله ﷺ: ألا رجلٌ يأتيني بخبرِ القومِ، جعلَهُ اللهُ مَعِـي يومَ القِيامَةِ!

فسكتَ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم، فلمْ يُجِبْ رسولَ الله ﷺ منهُمْ أحدٌ!

فَقال رسولُ الله ﷺ: ألا رجلٌ يأتِينـي بخبرِ القومِ، جعلَهُ الله مَعِـي يومَ القيامَةِ!

فسكتَ الصَّحابَةُ رضي الله عنه، فلم يُجِبْ رسولَ الله ﷺ منهُمْ أحدٌ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: ألا رجلٌ يأتِينـي بخبرِ القوم، جعلَهُ اللهُ مَعِـي يومَ القِيامَةِ!

فسكتَ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم، فلمْ يُجِبْ رسولَ الله ﷺ منهُمْ أحدٌ.

فقالَ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ رضي الله عنه: أنا.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّ لكلِّ نبـيٍّ حَوارِيّاً، وإنَّ حوارِيِّـي الزُّبيرُ.

ثمَّ قالَ الرسولُ ﷺ: قُمْ يا حُذيفةُ؛ فأتِنا بخبرِ القومِ.

---

(١) أي: تَغْلِـي ويُسْمَعُ غَلَيَانُها.

(٢) أي: بَرْدٌ شديدٌ.

قالَ حذيفةُ: فلمْ أجدْ بُدّاً إذ دعاني رسولُ الله ﷺ باسمِي أنْ أقومَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: اذْهبْ فأتِنِي بخبر القومِ، ولا تُذْعِرْهُمْ عليَّ.

قال حذيفةُ: فلما ولَّيْتُ مِنْ عندِ رسولِ الله ﷺ؛ جعلتُ كأنِّي أمشِي في حمَّام[١]؛ حتَّى أتَيْتُهُمْ، فرأيتُ أبا سفيان يَصلِي ظهرَهُ بالنَّارِ، فوضعتُ سَهْماً في كَبِدِ القَوْسِ، فأردتُ أن أرْمِيَهُ، فذكرتُ قولَ رسولِ الله ﷺ: ولا تُذْعِرْهُمْ عليَّ.

ولو رميتُهُ لأصبتُهُ.

فرجعتُ وأنا أمشِي في مثلِ الحَمَّامِ، فلمَّا أتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُهُ بخبرِ القوم وفرَغْتُ؛ قُرِرْتُ[٢]، فألبسنِي رسولُ الله ﷺ مِنْ فَضْلِ عباءةٍ كانتْ عليهِ يُصَلِّي فيها، فلمْ أزلْ نائماً حتَّى أصبحتُ، فلمَّا أصبحتُ قال رسولُ الله ﷺ: قمْ يا نَوْمَانُ.

* * *

ولقدْ حَبَسَ المُشركونَ رسولَ الله ﷺ يومَ الخندقِ عَنْ صلاةِ العصرِ حتَّى احمرَّتْ الشَّمسُ، فجعلَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، وقالَ: يا رسولَ الله، والله ما كِدْتُ أنْ أصلِّيَ العصرَ حتَّى كادتْ أن تغرُبَ الشَّمسُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ ــ وهو قاعدٌ على فُرْضَةٍ[٣] مِنْ فُرَضِ الخَنْدَقِ ــ: وأنا والله؛ ما صلَّيتُها بعدُ، ملأ اللهُ قبورَهُمْ وبُيُوتَهُمْ ناراً كما حَبَسُونَا عن الصَّلاةِ الوُسْطَى؛ حتَّى غابَتِ الشَّمْسُ.

---

(١) أي: من شِدَّةِ الحرِّ.

(٢) أي: بَرَدْتُ.

(٣) أي: المدخل.

فنزلَ رسولُ الله ﷺ إلى بُطْحانَ[1] فتوضَّأ، فصلَّى رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ العصرَ بعدما غربتِ الشَّمسُ، ثمَّ صلَّى بعدَها المغربَ، وذلك قبل أنْ يُنْزَلَ في صلاةِ الخوفِ.

وقدْ قامَ رسولُ الله ﷺ في النَّاس خطيباً، فقال: أيُّها النَّاسُ؛ لا تتمنَّوْا لِقاءَ العَدُوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فاصْبِرُوا، واعلَمُوا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظلالِ السُّيوفِ.

ثمَّ دعا رسولُ الله ﷺ على الأحزابِ فقالَ: اللَّهُمَّ مُنزلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وسريعَ الحسابِ، اهْزِمِ الأحزابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وزَلْزِلْهُمْ، لا إلهَ إلاَّ الله وحدَهُ، أَعزَّ جندَهُ، ونصرَ عبدَه، وغلبَ الأحزابَ وحدَهُ، فلا شيءَ بعدَهُ، نَغْزُوهُمْ ولا يَغْزُونَا.

فبعث الله عزَّ وجلَّ الرِّيحَ على المُشركينَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: نُصِرْتُ بالصَّبَا[2]، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[3]. إنَّ الله زَوى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغاربَها، وإنَّ أمَّتي سيبلغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ.

وإنِّي سألتُ ربِّي لأمَّتي أنْ لا يُهلِكَها بسَنَةٍ[4] عامَّةٍ، وأنْ لا يُسلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنْفُسِهم فيستبيحَ بَيْضَتَهُمْ[5].

---

(١) أي: منزل بالمدينة.

(٢) أي: الريح التي مهبُّها من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار.

(٣) أي: الريح التي تُقابل الصَّبا.

(٤) أي: القحط والجدب.

(٥) أي: جماعتهم وأصلهم، وهو مأخوذ من بيضة الطائر، لتحصينها ما فيها، واجتماعها عليه.

وإنَّ ربِّــي قــال: يـا مُحمَّـدُ؛ إنِّـي إذا قضيـتُ قضـاءً فـإنَّـه لا يُـردُّ، وإنِّـي أعْطَيتُكَ لأمَّتِكَ أنْ لا أهْلِكَهُمْ بسنةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا أُسلِّطَ عليهِمْ عدوّاً مِنْ سِوَى أنْفُسِهِمْ يستبيح بيضَتَهُم؛ ولو اجتمعَ عليهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِها، حتَّى يكونَ بعضُهُمْ يُهلِكُ بعضاً، ويَسْبِـي بعضُهُمْ بَعضاً! وإنَّما أخافُ على أمَّتي الأئمةَ المُضلِّينَ، وإذا وُضِـعَ السَّيْفُ في أمَّتي لَمْ يُرْفَعُ عنها إلى يومِ القيامةِ.

ولا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تلحقَ قبائلُ من أمتي بالمُشركين، وحتى تَعبُدَ قبائلُ من أمتي الأوثان، وإنَّهُ سيكونُ في أمَّتِـي كذَّابون ثلاثون، كلُّهُمْ يزعُمُ أنَّهُ نَبِـيٌّ، وأنا خاتَمُ النَّبيِّينَ؛ لا نبـيَّ بعدي.

ولا تزالُ طائفةٌ من أمتي على الحقِّ، لا يضرُّهُمْ من خالفَهُمْ حتَّى يأتِـيَ أمرُ الله.

إذا هلكَ كِسْرَى فلا كِسْرَى بعدَهُ، وإذا هلكَ قيصرُ فلا قيصرَ بعدَهُ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ، لتُنْفِقُنَّ كُنوزَهُما في سبيلِ الله.

* * *

وأمـرَ رسـولُ الله ﷺ حسَّـانَ بـنَ ثـابـتٍ رضـي الله عنـه يـومَئـذٍ أن يهجُـوَ الأحزابَ بشعرِهِ، فقال له: اهْجُ المُشركين، فإنَّ جبريلَ معكَ.

وقدْ مرَّ سعدُ بنُ معاذٍ رضي الله عنه وعليهِ دِرْعٌ من حديدٍ؛ قد خَرَجَتْ منها أطرافُهُ، وكان سعدٌ من أعظمِ النَّاس وأطْوَلِهِمْ، فمرَّ وهو يرْتَجِزُ:

لَبِّـثْ قليـلاً يُـدْرِكِ الهَيْجَـا حَمَـلْ ... مـا أحْسَـنَ المَـوْتَ إذا حـانَ الأجَـلْ

فرماهُ رجلٌ من قُرَيشٍ يُقالُ لهُ: حِبَّانُ بنُ العَرِقَةِ، رماهُ في الأَكْحَلِ[1]،

---

(١) أي: عرق في وسطِ الذِّراعِ.

فحسَمَهُ رسولُ الله ﷺ بالنَّارِ، فانْتَفَخَتْ يدُهُ، فتركَهُ فنزَفَهُ الدَّمُ، فحَسَمَهُ أخرى، فانْتَفَخَتْ يدُهُ.

فلمَّا رأى سعدٌ ذلك قال: اللَّـهُمَّ لا تُخرجْ نَفْسِي حتَّى تُقِرَّ عَيْنِي من بنِي قُرَيْظَةَ.

وكانت بنو قريظة قد نقضوا عهد رسولِ الله ﷺ ـ.

فاستمسك عِرْقُ سعد فما قَطَرَ قَطْرَةً، فضَرَبَ عليهِ رسولُ الله ﷺ خيمةً في المسجدِ يعودُهُ مِنْ قريبٍ.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(١).

فلَحِقَ أبو سفيانٍ ومن معه بتِهامةٍ، ولَحِقَ عُيينةُ بنُ بدرٍ ومَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، ورجَعَتْ بنو قريظةَ فتحصَّنوا في صَيَاصِيهِمْ(٢).

* * *

غزوة بني قريظة:

لمَّا رجعَ رسولُ الله ﷺ مِنَ الخندقِ إلى المدينةِ وضعَ السِّلاحَ فاغتسلَ، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو ينفضُ رأسَهُ من الغُبارِ.

فقالَ جبريلُ عليه السلام: وَضعتَ السِّلاحَ؟! والله ما وَضَعَت الملائكةُ بعدُ السِّلاحَ، اخْرُج إليْهِمْ.

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: فإلى أينَ؟

فأشارَ جبريلُ عليه السلام: إلى بني قُرِيظَةَ.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

(٢) أي: الحصون، وكل ما امتنع به.

فلَبِسَ رسولُ الله ﷺ لأْمَتَهُ[١]، ونادى في أصحابِهِ: أنْ لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العَصْرَ إلاَّ في بني قُرَيظَةَ.

فأدركَ بعضُهُمْ العَصْرَ في الطَّريقِ، فتخوَّفَ ناسٌ فوتَ الوقتِ، فصلُّوا دونَ بني قُريظةَ.

وقال آخرون: لا نُصلِّي إلاَّ حيثُ أمرنا رسولُ الله ﷺ، وإنْ فاتنا الوقتُ.

فما عنَّف رسولُ الله ﷺ واحداً من الفريقين.

فقاتَلَ رسولُ الله ﷺ بني قريظة، فنزَلوا على حُكْمِ رسولِ الله ﷺ، فردَّ رسولُ الله ﷺ الحكمَ فيهِمْ إلى سعدِ بن مُعاذٍ، وكانوا حلفاءَه ومواليَه في الجاهليَّةِ.

فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إليه، فأتاهُ سعدٌ على حمارٍ، فلمَّا دنا قريباً من المسجدِ، قالَ رسولُ الله ﷺ للأنصارِ: قوموا إلى سيِّدِكُمْ.

وقال ﷺ: إنَّ هؤلاءِ نَزَلُوا على حُكْمِكَ.

فقال قومُ سعدِ بنِ مُعاذٍ: يا أبا عمرو؛ حلفاؤُكَ ومواليكَ وأهلُ النِّكايَةِ ومَنْ قد عَلِمْتَ.

وسعدٌ لا يرجعُ إلى قومِهِ شيئاً؛ ولا يَلتفتُ إليهِمْ، حتَّى إذا دنا سعدُ بنُ مُعاذٍ من دور بني قُريظةٍ التفتَ إلى قومِهِ فقال: قد آن لِي أنْ لا أُبالِي في الله لَوْمَةَ لائمٍ، فإنِّي أحكمُ فيهمْ: أنْ تُقْتَلَ مُقاتِلَتُهُمْ، وتُسْبَى ذُرِّيَّتُهُمْ.

فقال رسولُ الله ﷺ: لقدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الله.

---

(١) أي: الدرع.

قال عطيَّةُ القُرَظِـيُّ رضي الله عنه: فَكُنْتُ مِنْ سَبْـي بَنِـي قُرَيْظَةَ، فكانُوا ينظرونَ، فَمَنْ أنبتَ الشَّعْرَ قُتِلَ[١]، ومَنْ لم يُنْبِتْ لمْ يُقْتَلْ، فكشفُوا عانَتِـي فوجدوها لم تُنْبِتْ، فجعلونـي من السَّبْيِ، فها أنا ذا بينَ أظْهُرِكُمْ.

فقال سعدُ بنُ معاذٍ ــ وقدْ تَحجَّر كَلْمُهُ للبُرْءِ[٢] ــ: اللَّـهُمَّ إنَّكَ تعلمُ أنْ ليسَ أحدٌ أحبَّ إليَّ أنْ أُجاهِدَ فيكَ من قوم كذَّبوا رسولَكَ ﷺ وأخرجوه، اللَّـهُمَّ فإن كان بَقِـيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شيءٌ فأبْقِنـي أُجاهِدْهُمْ فيكَ، اللَّـهُمَّ فإنِّي أظُنُّ أنَّكَ قدْ وَضَعْتَ الحربَ بينَنَا وبينَهُم، فإنْ كنتَ وضعتَ الحربَ بينَنَا وبينَهُمْ فافْجُرْهَا، واجعلْ مَوْتِـي فيها.

فانفجرت جِراحَتُهُ من ليلتِهِ، فلمْ يَرُعْهُمْ ــ وفي المسجد معهُ خيشمةٌ من بني غِفَارٍ ــ إلاَّ والدَّمُ يسيلُ إليهِمْ، فقالوا: يا أهل الخيمةِ، ما هذا الذي يأتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟!

فإذا سعدٌ جُرْحُهُ يَغِذُّ[٣] دماً، فما زالَ يسيلُ حتَّى ماتَ.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: فحضرَهُ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ؛ إنِّي لأعرفُ بُكاءَ عمرَ من بُكاءِ أبـي بكرٍ وأنا في حُجْرتـي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ ــ وجنازةُ سعدِ بنِ مُعاذٍ موضوعةٌ بين أيديهم ــ: اهتزَّ عرشُ الرَّحمنِ لموتِ سعدِ بن مُعاذٍ.

فلمَّا حُمِلَتْ جنازَةُ سعدِ بنِ مُعاذٍ قال المنافقونَ: ما أخفَّ جَنَازَتَهُ!! وذلكَ لِحُكمِهِ في بنِـي قُرَيْظَةَ.

---

(١) أي: شعر العانة، وهو من علامات البلوغ، فيكون من المُقاتلة.

(٢) أي: يَبِسَ جُرحُهُ؛ وكادَ يَبْرَأ.

(٣) أي: يسيل.

فبلغَ ذلك النَّبـيَّ ﷺ، فقال: إنَّ الملائكة كانتْ تَحْمِلُهُ.

فلمَّا صلَّى عليهِ رسولُ الله ﷺ؛ ووضِـعَ في قبرِهِ وسُوِّيَ عليهِ، سبَّحَ رسولُ الله ﷺ؛ فسبَّحَ صحابَتُه رضي الله عنهم طويلاً، ثمَّ كبَّر؛ فكبَّرُوا.

فقيل: يا رسولَ الله؛ لم سبَّحْتَ ثمَّ كبَّرْتَ؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: لقدْ تضايقَ على هذا العبدِ الصَّالِـح قبرُهُ حتَّى فرَّجهُ اللهُ عنه، إنَّ للقبرِ ضَغطةً، ولو كانَ أحدٌ ناجياً مِنْها، نجا مِنها سعدُ بنُ معاذٍ.

وقـد أهـدى أُكَيْـدِرُ دُومَـةَ[1] إلـى النَّبـيِّ ﷺ جُبَّـةَ سُنْـدُس، وكـان رسولُ الله ﷺ ينهى عن الحرير، فجعلَ أصحابُهُ رضي الله عنهم يَلْمَسُونَها ويَعجبونَ مِنْ لِينِها!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أتعجبونَ من لينِ هذه؟

فقال الصحابةُ: ما رأيْنا ثوباً قطُّ أحسنَ منهُ.

فقال رسولُ الله ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده؛ لمناديلُ سعدِ بن مُعاذٍ في الجنَّةِ خيرٌ منها وألينُ.

* * *

---

(١) هو أكيدر بن عبد الملك الكندي، صاحب حصن دومة الجندل، وكان نصرانياً، وهذا الحصن يقع بين الشام والمدينة، وسمي بذلك لأنه مبني بالجندل.



صلح الحديبية

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عامَ الحُدَيْبِيَةِ في خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةٍ من أصحابِهِ، فلمَّا أتَى ذَا الحُلَيْفَةِ قلَّدَ الهَدْيَ وأشْعَرَهُ، وأحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ.

وبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَيْناً[١] لَهُ مِنْ خُزَاعَة، وسَارَ حتَّى إذا كَانَ بِغَدِيرِ الأشْطَاطِ[٢] أتَاهُ عَيْنُهُ، فقالَ: إنَّ قُرَيْشاً جَمَعُوا لكَ جُمُوعاً، وقدْ جَمَعُوا لكَ الأحَابِيشَ، وهُمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنْ البَيْتِ ومَانِعُوكَ.

فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أشيرُوا أيُّها النَّاسُ عليَّ، أتَرَوْنَ أنْ أمِيلَ إلى عِيَالِ وذَرَارِي هؤُلاءِ الذينَ يُرِيدُونَ أن يَصُدُّونَا عَنِ البَيْتِ؟

فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله، خَرَجْتَ عَامِداً لِهذَا البيتِ، لا تُرِيدُ قَتْلَ أحدٍ ولا حَرْبَ أحدٍ فتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: امْضُوا على اسْمِ الله.

فلمَّا كانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قالَ النَّبِيُّ ﷺ: إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ بالغَمِيمِ[٣] في خيلٍ لقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فخُذُوا ذاتَ اليَمِينِ.

---

(١) أي: الذي يُبعث ليتجسس الخبر.

(٢) أي: غدير الماء، ويطلق على كل ماء غُودر من ماء المطر في مستنقع، والأشطاط: موضع بملتقى الطريقين من عُسفان للحاج إلى مكة المكرمة.

(٣) أي: كُرَاعَ الغميم، وهو اسم موضع بين مكة والمدينة.

فوالله مَا شَعَرَ بِهِمْ خالدٌ فإذَا هِمْ بِقَتَرَةِ[١] الجَيْشِ، فانْطَلَقَ خالدٌ يَرْكُضُ نَذِيراً لقُرَيْشٍ.

وسَارَ النَّبِـيُّ ﷺ حتَّى إذا كَانَ بالثَّنِيَّةِ التي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا؛ بَرَكَتْ بِالنَّبِـيِّ ﷺ راحِلَتُهُ.

فقال النَّاسُ لها: حَلْ حَلْ.

فألَحَّتْ الرَّاحِلَةُ.

فقال الناس: خلأتِ[٢] القَصْوَاءُ، خَلأتِ القَصْوَاءُ.

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: ما خَلأتِ القَصْوَاءُ، ومَا ذاكَ لهَا بِخُلُقٍ، ولكنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفيل، والذي نَفْسِـي بِيَدِهِ، لا يَسْألُونَنِـي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا.

ثُمَّ زَجَرَ النَّبِـيُّ ﷺ الرَّاحِلَةَ فوَثَبَتْ، فعَدَلَ النَّبِـيُّ ﷺ عَنْ جَيْشِ قُرَيشٍ حتَّى نَزَلَ بأقْصَى الحُدَيْبِيَةِ.

ثُمَّ عَطِشَ النَّاسُ، ورسولُ الله ﷺ بَيْنَ يَدَيْه رَكْوَةٌ[٣]، فتَوَضَّأ مِنْهَا.

ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَا لَكُمْ؟.

فقالوا: يا رسولَ الله، ليسَ عِنْدَنَا ماءٌ نَتوضَّأُ بِهِ ولا نَشْرَبُ إلَّا مَا فِـي رَكْوَتِكَ.

فَوَضَعَ النَّبِـيُّ ﷺ يَدَهُ في الرَّكْوَةِ، فجَعَلَ الماءُ يفورُ مِنْ بَيْنِ أصابِعِهِ كأمثالِ العُيُونِ، فشَرِبُوا وتَوَضَّؤُوا.

---

(١) أي: بغبرة.

(٢) أي: بركت.

(٣) أي: إناء صغير من جلد، يُشرب فيه الماء.

ثم أتَوْا بعد ذلك بِئْرَ الحُدَيْبِيَةِ فنزَحُوهَا، فَلَمْ يَتْرُكُوا فِيهَا قَطْرَةً، فبَلَغَ ذلكَ النَّبِـيَّ ﷺ، فأتَى البِئْرَ وقَعَدَ على شَفِيرِهَا، ثُمَّ قَالَ: ائتُونِـي بِدَلْوٍ مِنْ مَائِهَا.

فَأُتِـيَ بِهِ فتَوَضَّأ ثُمَّ بَصَقَ ودَعَا، ثُمَّ قَالَ: دَعُوهَا ساعةً.

ثُـمَّ أَرْوَوْا أنْفُسَهُـمْ ورِكَـابَهُـمْ، ثُـمَّ تَفَـرَّقَ النَّـاسُ فـي ظِـلالِ الشَّجَـرِ، ثُـمَّ أحْدَقُوا[١] بالنَّبِـيِّ ﷺ.

فقالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ لابْنِهِ عبدِ الله رضي الله عنهما: يا عبدَ الله؛ انْظُرْ مَا شَأنُ النَّاسِ قدْ أحْدَقُوا برسولِ الله ﷺ.

فَوَجَدَهُمْ يُبَايِعُونَ النَّبِـيَّ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ومَعْقِلُ بنُ يَسَارٍ رضي الله عنه رافعٌ غُصْناً مِنْ أغصانها عَنْ رَأسِ النَّبِيِّ ﷺ، فبايعَ عبدُ الله ثُمَّ رَجَعَ إلى أبيهِ، فخَرَجَ عُمَرُ فأخذَ بيدِ النَّبِـيِّ ﷺ.

وكانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه أعزَّ مَنْ ببَطْنِ مَكَّةَ، فَبَعَثَهُ رسولُ الله ﷺ إلَيْهِمْ، فقالَ رسولُ الله ﷺ بِيَدِهِ اليُمْنَى: هذِهِ يَدُ عُثْمَانَ، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ الأخرى، فقال: هذِهِ لعُثْمَانَ.

فبَايَعَ النَّبِـيُّ ﷺ النَّاسَ على: أن لا يَفِرُّوا، وقال لهم: أَنْتُمُ اليومَ خَيْرُ أهلِ الأرضِ.

وقال: مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ـ ثَنِيَّةَ المرَارِ ـ: فإنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِـي إسْرائِيلَ.

فكَانَ أولَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُ بَنِـي الخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ[٢].

فقال رسولُ الله ﷺ: كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، إلاَّ صَاحِبَ الجَمَلِ الأحْمَرِ.

---

(١) أي: استداروا وأحاطوا به.

(٢) أي: كَمُلُوا.

وهُوَ جدُّ بنُ قَيْسٍ الذي اخْتَبأَ ساعةَ البَيْعَةِ تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ، فأتاهُ النَّاسُ فقَالُوا: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رسولُ الله ﷺ.

فقال: والله لأنْ أجِدَ ضَالَّتِي أحبَّ إليَّ مِنْ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ. وكانَ رَجُلاً يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ.

* * *

وبينما كان رسولُ الله ﷺ بالحُدَيْبِيَةِ وأصحابُهُ مُحْرِمُونَ، قَدْ حَصَرَهُمْ المُشْرِكُونَ، إذ جاءَ كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ رضي الله عنه وقَمْلُهُ يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِهِ، وكَانَتْ لَهُ وَفْرَةٌ، فقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أيُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟

فقال كعبٌ: نَعَمْ.

فأُنْزِلَتْ هذِهِ الآيةُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[١].

فأمَرَهُ رسولُ الله ﷺ أنْ يَحْلِقَ، وهم يَوْمئِذٍ بالحُدَيْبِيَةِ لمْ يَتبَيَّنْ لَهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحِلُّونَ بِهَا، وهُمْ عَلَى طَمَعٍ أنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ؛ فأنْزَلَ اللهُ الفِدْيَةَ، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ كعباً أنْ يُطْعِمَ فَرَقاً[٢] بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، أو يَهْدِي شاةً، أو يَصُومَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ.

* * *

وقَدْ صلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ فِي إثْرِ سَمَاءٍ[٣] كَانَتْ مِنَ الليلِ، فلمَّا انْصَرَفَ رسولُ الله ﷺ من صَلاتِهِ أقْبَلَ على النَّاسِ فقالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قالَ ربُّكُمْ؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

(٢) أي: ثلاثة آصع.

(٣) أي: مطر.

قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

فقال رسولُ الله ﷺ: قال: أصبحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمنٌ بِـي وكافرٌ، فأمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله ورَحْمَتِهِ؛ فذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِـي، كافرٌ بالكَوكَبِ، وأمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وكَذَا؛ فذَلِكَ كافرٌ بـي، مُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ.

فبينمـا رسـولُ الله ﷺ وأصحـابُهُ بـالحُـدَيْبِيَـةِ؛ إذْ جـاءَ بُـدَيْـلُ بـنُ وَرْقَـاءَ الخُزَاعِـيُّ فِـي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزاعَةَ، وكانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ[1] رسولِ الله ﷺ مِنْ أهلِ تِهامَةَ.

فقـالَ بُـدَيْـلٌ: إنِّـي تَـرَكْـتُ كَعْـبَ بْـنَ لُـؤَيٍّ وعَـامِـرَ بْـن لُـؤَيٍّ نَـزَلُـوا أعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، ومَعَهُـمْ العُـوذُ المَطَافِيلُ[2]، وهُـمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنْ البَيْتِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّا لَمْ نَجِـىءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، ولكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيشاً قَدْ نَهِكَتْهُمْ الحَرْبُ وأضَرَّتْ بِهِمْ، فإنْ شاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدةً، ويُخَلُّوا بَيْنِـي وبَيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرْ؛ فإنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وإلاَّ فَقَدْ جَمُّوا[3]، وإنْ هُمْ أبَوْا؛ فوالذي نَفْسِـي بِيَدِهِ لأقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أمْرِي هذَا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِـي[4]، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمْرَهُ.

فقال بُدَيْلٌ: سأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ.

---

(١) أي: موضع النصح له، والأمانة على سرِّه.

(٢) أي: الأمهات اللاتي معهن أطفالهن، و (العوذ): الحديثات النتاج، وهي العائذات بأمهاتهن و (المطافيل): التي معها أطفالها، وهو كناية عن القبائل المُحتشدة للقتال.

(٣) أي: قَوُوا.

(٤) أي: صفحة عنقي، كناية عن القتل.

فانْطَلَقَ حتَّى أتَى قُرَيْشاً، فقال: إنَّا قدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ عند هذَا الرَّجُلِ، وسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَولاً، فإنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا.

فقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ.

وقالَ ذَوُو الرَّأيِ مِنْهُمْ: هاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ.

فقال بُدَيْلٌ: سَمِعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا...

فحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِـيُّ ﷺ.

فقامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ فقال: أيْ قَوْمِ، ألَسْتُمْ بالوَالِدِ؟

قالوا: بَلَى.

قَالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَدِ؟

قَالوا: بَلَى.

قال: فَهَلْ تَتَّهِمُونَنِـي؟

قالوا: لا.

قال: ألَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنِّي استَنْفَرْتُ أهْلَ عُكَاظٍ، فلمَّا بَلَّحُوا عليَّ[١] جِئْتُكُم بأهْلِـي وَوَلَدِي ومَنْ أطَاعَنِـي؟

قالوا: بلى.

قال: هذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فاقْبَلُوهَا، ودَعُونِـي آتِيه.

فقالوا: ائْتِه.

فأتى عُروةُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِـيَّ ﷺ.

فقال لهُ النَّبِـيُّ ﷺ نَحْواً مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ.

---

(١) أي: امتنعوا من الإجابة.

فقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذلك: أيْ مُحَمَّدُ، أرَأَيْتَ إنْ اسْتَأْصَلْتَ أمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بأحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أهْلَهَ قَبْلَكَ؟! وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى؛ فإنِّي واللهِ لأرَى وُجُوهاً، وإنِّي لأرَى أشْوَاباً[١] مِنَ النَّاسِ خَلِيقاً أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ.

فقالَ لهُ أبو بكرٍ: امْصُصْ بِبَظْرِ[٢] اللاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ ونَدَعُهُ؟

فقال عُروةُ: مَنْ ذَا؟

فقالوا: أبو بكرٍ.

فقال عُروةُ: أمَا والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لولا يَدٌ[٣] كانَتْ لكَ عِنْدِي لم أجْزِكَ بِهَا لأجَبْتُكَ.

وجَعَلَ عُروةُ كُلَّمَا كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ أخَذَ بِلِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، والمغيرةُ بنُ شُعْبَةَ قائمٌ على رأسِ النَّبِيِّ ﷺ ومَعَهُ السَّيْفُ وعَلَيْهِ المِغْفَرُ[٤]، فكُلَّمَا أهوى عُروةُ بِيَده إلى اللحْيَةِ ضَرَبَ المُغيرةُ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ[٥] وقال لَهُ: أخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رسولِ الله ﷺ.

فرَفَعَ عُروةُ رأسَهُ فقالَ: مَنْ هذا؟

فقالوا: المغيرةُ بنُ شُعبةَ.

---

(١) أي: أخلاطاً من أنواع شتى.

(٢) كانت عادة العرب: الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأقيم من كان يعبده مقام أمه، وفي ذلك تعريض بإلزامه من قوله: إن اللات بنت الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأنها لو كانت بنتاً لكان لها ما يكون للإناث من البَظْر، وهي القطعة المتبقية بعد الختان في فرج المرأة.

(٣) أي: نعمة.

(٤) أي: حَلَقَ يتقنع بها المُتسلِّح.

(٥) أي: ما يكون في أسفل القراب من فضة وغيرها.

فقال عُروةُ: أيْ غُدَرُ[١]، ألستُ أسْعَى فِـي غَدْرَتِكَ؟

وكانَ المُغيرةُ صَحِبَ قوماً فِـي الجَّاهِلِيَّةِ؛ فَقَتَلَهُمْ، وأخَذَ أمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فأسْلَمَ، فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: أمَّا الإِسلامُ فأقْبَلُ، وأمَّا المَالُ فلَسْتُ مِنْهُ فِـي شَيْءٍ.

فجعلَ عُرْوةُ يَرْمُقُ أصحابَ النَّبِـيِّ ﷺ بعَيْنَيْهِ، فمَا تَنَخَّمَ رسولُ الله ﷺ نُخامَةً إلاَّ وَقَعَتْ فِـي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَـوَضَّـأَ كَـادُوا يَقْتَتِلُـونَ عَلَـى وَضُـوئِـهِ، وإذَا تَكَلَّـمَ خَفَضُـوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، ومَا يُحِدُّونَ إليهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ.

فَرَجَعَ عُروةُ إلى أصْحَابِهِ فَقَالَ: أيْ قوم، واللهِ لقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ علَى قَيْصَر وكِسْرَى والنَّجَاشِـيِّ، واللهِ إنْ رأيْتُ مَلِكاً قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصحابُ مُحمَّدٍ مُحمَّداً، واللهِ مَا تَنَخَّمَ إلاَّ وَقَعَتْ فِـي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِها وَجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وإذا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْواتَهُم عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إليْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ، وإنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فاقْبَلُوها.

فقال رَجُلٌ مِنْ بَنِـي كِنَانَةَ: دَعُونِـي آتِيهِ.

فقَالُوا: ائْتِهِ.

فلمَّا أشْرَفَ علَى النَّبِـيِّ ﷺ وأصحابِهِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: هذا فلانٌ، وهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ[٢]، فابْعَثُوهَا لَهُ.

---

(١) أي: مبالغة في وصفه بالغدر.

(٢) أي: الإِبل السِّمان التي تُهدى للبيت الحرام.

فبُعِثَتْ لَهُ، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فلمَّا رَأى ذلك قال: سُبْحَانَ الله! ما يَنْبَغِـي لهؤلاءِ أنْ يُصَدُّوا عَنْ البَيْتِ.

فلمَّا رَجَعَ إلى أصحَابِهِ قَالَ: رأيتُ البُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فمَا أرَى أنْ يُصَدُّوا عَنْ البَيْتِ.

فقامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ فقَالَ: دَعُونِـي آتِيه.

فقَالُوا: ائْتِهِ.

فلمَّا أشْرَفَ عَلَيْهِمْ: قالَ النَّبِـيُّ ﷺ: هذا مِكْرَزٌ، وهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ.

فجَعلَ مِكْرَزٌ يُكَلِّمُ النَّبِـيَّ ﷺ، فبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ؛ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو.

* * *

فلما جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عمروٍ، قال النَّبِـيُّ ﷺ لأصحابِهِ رضي الله عنهم: لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ.

فقَالَ سُهَيْلٌ للنَّبِـيِّ ﷺ: هاتِ اكتبْ بيننَا وبينكم كتاباً.

فدعا النَّبِـيُّ ﷺ عليَّ بن أبـي طالبٍ رضي الله عنه، فَكُتِبَ الصُّلْحُ بينَ النَّبِـيِّ ﷺ وبينَ المُشْرِكينَ يومَ الحُدَيْبِيَةِ.

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: اكْتُبْ: بِسمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ.

فقالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحمنُ فوالله مَا أَدْرِي مَا هُوَ، ولكِنْ اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّـٰهُمَّ؛ كَمَا كُنْتَ تكْتُبُ.

فقالَ المُسلمونَ: والله لا نَكْتُبُهَا إلاَّ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ.

فَقَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: اكْتُبْ: باسْمِكَ اللَّـٰهُمَّ.

ثُمَّ قَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: هذا مَا قَاضَى عليه مُحمَّدٌ رسولُ الله.

فقالَ سُهَيْلٌ: والله لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ رسولُ الله مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ البَيْتِ ولا قَاتَلْنَاكَ، ولكِنْ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله.

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: والله إنِّي لرسولُ الله وإنْ كَذَّبْتُمُونِـي.

ثُمَّ قَالَ النَّبِـيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: امْحُهُ.

فقالَ عَلِـيٌّ: لا والله لا أَمْحُهَا.

فقال رسولُ الله ﷺ: أَرِنِـي مَكَانَهَا.

فأرَاهُ عليٌّ مَكَانَها، فمَحَاهُ النَّبِـيُّ ﷺ بِيَدِهِ، وكَتَبَ: ابْنُ عبدِ الله.

فصَالَحَ النَّبِـيُّ ﷺ المُشْرِكِينَ يومَ الحُدَيْبِيَةِ على ثلاثةِ أشْيَاء: على أنَّ مَنْ جاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، ومَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا، وَعَلَى أنْ يَدْخُلَهَا مِنْ العامِ القَابِلِ ويُقيمَ بِهَا ثلاثةَ أيَّامٍ؛ ولا يَدْخُلَهَا بِسِلاحٍ إلاَّ بِجُلُبَّانِ[1] السِّلاحِ: السَّيْفِ والقَوْسِ ونَحْوِهِ ومَا فِيهِ.

فقالَ المُسلمونَ: سُبْحَانَ الله! كَيْفَ يُرَدُّ إلى المُشركينَ وقَدْ جَاءَ مُسْلِماً يَا رسولَ الله، أنكْتُبُ هذا؟

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: نَعَمْ، إنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إلَيْهِمْ فَأبْعَدَهُ اللهُ، ومَنْ جَاءَنَا مِنْهُم سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجاً ومَخْرَجاً.

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ للمُشركينَ: خَلُّوا بَيْنَنَا وبَيْنَ البيتِ فنَطُوفَ بِهِ.

فقال سهيلٌ: والله لا تَتَحَدث العربُ أنَّا أُخِذْنَا ضَغْطَةً[2]، ولكِنْ ذٰلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ.

---

(١) أي: شبه الجراب من الأدم، يُوضع فيه السيف مغمودٌ.

(٢) أي: قهراً.

فبَيْنَمَا هُمْ فِـي الحُدَيْبِيَةِ كَذلِكَ؛ إذْ دَخَلَ أبُو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرو رضي الله عنه يَرْسُفُ[١] فِـي قُيُودِهِ، وقَدْ خَرَجَ مِنْ أسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أظْهُرِ المُسْلِمِينَ.

فقال أبوهُ سُهَيْلٌ: هذا يا مُحمَّدٌ أولُ مَا أقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إليَّ.

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: إنَّا لمْ نَقْضِ الكتابَ بَعْدُ.

فقال سُهَيْلٌ: فوالله إذاً لَمْ أصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أبداً.

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: فأجِزْهُ لِـي.

فقالَ سُهَيْلٌ: مَا أنَا بِمُجيزِهِ لكَ.

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: بَلَى فَافعَلْ.

فقالَ سُهَيْلٌ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

فقالَ أبُو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ المُسلمينَ، أُرَدُّ إلى المُشركينَ وقَدْ جِئْتُ مُسْلِماً، ألا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟

وكان قَدْ عُذِّبَ عَذَاباً شَدِيداً فِـي الله، فرَدَّ رسولُ الله ﷺ أبَا جَنْدَلٍ يَوْمَئِذٍ إلى أبِيهِ سُهَيْلِ بنِ عمروٍ.

وكـانَ سَهْـلُ بـنُ حَنيـفٍ رضـي الله عنـه يقـول: أيُّهـا النَّـاسُ، اتَّهِمُـوا أنْفُسَكُمْ[٢]، فَلَقَدْ رَأيْتُنِي يومَ أبِـي جَنْدَلٍ ولَوْ أسْتَطِيعُ أنْ أرُدَّ عَلَى رسولِ الله ﷺ أمْرَهُ لرَدَدْتُ، واللهُ ورسولُهُ أعْلَمْ، ولَقَدْ كُنَّا مَعَ رسولِ الله ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، ولَوْ نَرَى قِتَالاً لقَاتَلْنَا، وذٰلِكَ فِـي الصُّلْحِ الذي كَانَ بَيْنَ رسولِ الله ﷺ وبينَ المُشركينَ.

---

(١) أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب القيد.

(٢) أي: رأيكم، والمقصود: التثبت والتصبر وعدم استعجال الأمور.

فجاءَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه فَأتَى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! ألسنَا على حَقٍّ، وهُمْ عَلَى بَاطل؟

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: بَلى.

فقالَ عُمَرُ: ألَيْسَ قَتْلانَا فِـي الجَنَّةِ، وقَتْلاهُمْ فِـي النَّارِ؟

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: بَلى.

فقالَ عُمَرُ: فَفِيمَ نُعْطِـي الدَّنِيَّةَ فِـي دِينِنَا، ونَرْجِـعَ ولمَّا يَحْكُم اللهُ بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ؟!

فَقَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ؛ إنِّي رسولُ الله؛ ولَنْ يُضَيِّعَنِـي اللهُ أبَداً، وإنِّي رسولُ الله؛ ولَسْتُ أَعْصِيه، وهُوَ نَاصِرِي.

فقالَ عُمَرُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنا أَنَّا سَنَأتِـي البَيْتَ فَنُطَوِّفُ بهِ؟

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟

فقال عمرُ: لا.

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَوِّفٌ بِهِ.

فانْطَلَقَ عُمَرُ مُتَغيِّظاً فَلَمْ يَصْبِر، فأتَى أبَا بَكْرٍ فقالَ: يا أبَا بَكْرٍ؛ ألَيْسَ هذَا نَبِـيُّ الله حَقّاً؟

فقال أبُو بكرٍ: بَلَى.

فقالَ عُمَرُ: أَلَسْنَا عَلَى الحقِّ، وعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟

فقال أبوُ بكرٍ: بَلَى.

فقال عُمَرُ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِـي الجَنَّةِ، وقَتْلاهُمْ فِـي النَّارِ؟

فقال أبو بكرٍ: بَلَى.

فقال عُمَرُ: فعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، ونَرْجِعُ ولمَّا يَحْكُم اللهُ بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ؟

فقالَ أبو بكرٍ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ؛ إنَّهُ رسولُ الله، ولَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أبداً؛ وإنَّهُ لرسولُ الله، ولَيْسَ يَعْصِي ربَّهُ؛ وهُوَ نَاصِرُهُ؛ فاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ، فوالله إنَّهُ عَلَى الحَقِّ.

فقال عُمَرُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنا أنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ ونَطُوفُ بِهِ؟

فقال أبو بكرٍ: بَلَى، أفأخْبَرَكَ أنَّكَ تَأتِيهِ العَامَ؟

فقال عُمَرُ: لا.

فقال أبو بكرٍ: فإنَّك آتِيهِ ومُطَوِّفٌ بِهِ.

فلمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رسولُ الله ﷺ لأصْحَابِهِ: قُومُوا فانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا.

فوالله؛ مَا قَامَ مِنْهُمْ رجلٌ، حتَّى قالَ ذلك النَّبِيُّ ﷺ ثلاثَ مَرَّاتٍ!

فلمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أحدٌ؛ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ.

فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله، أتُحِبُّ ذلكَ؟ اخْرُجْ لا تُكَلِّمْ أحداً مِنْهُمْ كَلِمَةً حتَّى تَنْحَرَ بَدَنَكَ، وتَدْعُو حَالِقَكَ فيَحْلِقَكَ.

فخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يُكَلِّمْ أحداً مِنْهُمْ حتَّى فَعَلَ ذلِكَ، نَحَرَ بَدَنَهُ؛ ودَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ.

فلمَّا رأوا ذَلِكَ: قَامُوا فنَحَرُوا، وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضاً، حتَّى كادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضاً غمّاً.

* * *

فبَيْنَمَا النَّبِـيُّ ﷺ فِـي طَرِيقِهِ إلى المَدِينَةِ، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ ليلاً، قَدْ خَالَطَهُمْ الحُزْنُ والكَآبَةُ؛ إذ سَأَلَ عُمَرُ النَّبِـيَّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ رسولُ الله ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ عُمَرُ، فَلَمْ يُجِبْهُ النَّبِـيُّ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ عُمَرُ فَلَمْ يُجِبْهُ النَّبِـيُّ ﷺ.

فقَالَ عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أمُّكَ يا عُمَرُ، نَزَرْتَ[1] رسولَ الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ كُلُّ ذلِكَ لا يُجِيبُكَ!! فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أمَامَ المُسلمينَ.

قال عمر: وخشيت أنْ يَنْزِلَ فِـيَّ قُرآنٌ، فمَا نَشِبْتُ[2] أنْ سَمِعْتُ صَارِخاً يَصْرُخُ بِـي؛ فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أنْ يَكُونَ نَزَلَ فِـيَّ قُرآنٌ! وجِئْتُ رسولَ الله ﷺ فسَلَّمْتُ عَلَيْهِ.

فقالَ النَّبِـيُّ ﷺ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ الليلةَ سُورةٌ لَهِـيَ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

ثُمَّ قَرَأَ النَّبِـيُّ ﷺ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[3].

فقالَ عُمَرُ: يَا رسولَ الله، أوَ فَتْحٌ هُوَ؟

فقال النَّبِـيُّ ﷺ: نعم.

فقالَ أصحابُ النَّبِـيِّ ﷺ: هَنيئاً مَريئاً، فمَا لَنَا؟

---

(١) أي: ألححت عليه.

(٢) أي: لبثت.

(٣) سورة الفتح: الآيات ١ ـ ٤.

فأنزل اللهُ تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[١].

فَطَابَتْ نَفْسُ عُمَرَ ورَجَعَ، وقالَ: لَقَدْ عَمِلْتُ لذلِكَ أَعْمالاً[٢].

قال البراءُ بنُ عازبٍ رضي الله عنه: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحاً، ونَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ يومَ الحُدَيْبِيَةِ.

* * *

ثُمَّ جاءَ النَّبِيَّ ﷺ نِسْوَةٌ مُؤْمِناتٌ مُهاجِرَاتٌ، فكانَتْ أُمّ كُلْثُوم بنتُ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إلى رسولِ الله ﷺ وَهِيَ عَاتِقٌ[٣]، فجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ رسولَ الله ﷺ أَنْ يُرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ.

فأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أَنْ يُرَدَّ إلى المُشركينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْواجِهِمْ، وأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى فِي المُؤْمِنَاتِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٤].

فكان رسولُ الله ﷺ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ مِنَ المُؤْمِنَاتِ بهذِهِ الآيةِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا

---

(١) سورة الفتح: الآية ٥.

(٢) أي: صالحة، ليُكفِّرَ عنه كلامه الذي تكلَّم به.

(٣) أي: البالغ، وهي الشابة التي استحقَّت التزويج.

(٤) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

* * *

ولَمْ يَأتِ النَّبِيَّ ﷺ فِي المَدِينَةِ أحدٌ مِنَ الرِّجَالِ إلاَّ رَدَّهُ فِي تِلْكَ المُدَّةِ؛ وإنْ كانَ مُسْلِماً، فجاءَهُ أبُو بَصير ـ رجلٌ مِنْ قُرَيْشٍ ـ وهُوَ مُسْلِمٌ، فأرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فقَالُوا للنَّبِيِّ ﷺ: العَهْدَ الذي جَعلْتَ لَنَا.

فدَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ أبَا بصيرٍ إلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فقالَ أبُو بصيرٍ لأحدِ الرَّجُلَيْنِ: والله إنِّي لأرَى سَيْفَكَ هذا يَا فُلانُ جَيِّداً.

فاسْتَلَّهُ الآخَر فقالَ: أجَلْ والله إنَّهُ لجَيِّدٌ، لقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ.

فقالَ أبُو بصيرٍ: أرِنِي أنْظُرْ إليهِ.

فأمْكَنَهُ مِنْهُ، فضَرَبَهُ حتَّى بَرَدَ، وفَرَّ الآخَرُ حتَّى أتَى المدينةَ فدخلَ المسجدَ يَعْدُو، فقالَ رسولُ الله ﷺ حينَ رآهُ: لَقَدْ رأى هذا ذُعْراً.

فلمَّا انْتَهَى إلى النَّبِيِّ ﷺ قال: قُتِلَ والله صَاحِبِي وإنِّي لَمَقْتُولٌ.

فجَاءَ أبُو بصيرٍ فقال: يَا نَبِيَّ الله، قَدْ والله أوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ؛ قد رَدَدْتَنِي إلَيْهِمْ ثُمَّ أنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: وَيْلُ أمِّهِ مِسْعَر حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ(٢).

فلمَّا سَمِعَ أبُو بصيرٍ ذٰلِكَ عَرَفَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سيَرُدُّهُ إلَيْهِمْ، فخَرَجَ حتَّى أتَى سَيْفَ البحرِ.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٢.

(٢) أي: عجباً لإقدامه في الحرب، والتسعير لنارها، لو كان له أحد يعاضده ويناصره!

وانفلت أَبُو جَنْدَلٍ بنُ سُهَيْلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَحِقَ بَأَبِي بَصيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إلاَّ لَحِقَ بَأَبِي بَصيرٍ، حتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فوالله مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لقُرَيْشٍ إلى الشَّامِ إلاَّ اعْتَرَضُوا لها فَقَتَلُوهُمْ وأخَذُوا أمْوَالَهُمْ.

فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بالله والرَّحِمِ لَمَا أرْسَلَ إليهم: أنَّ من أتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ.

فأرْسَلَ النَّبيُّ ﷺ إلَيْهِمْ، فأنْزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾(١).

وكانَتْ حَمِيَّتُهُمْ: أنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أنَّهُ نَبِيُّ الله، ولَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ الله الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ، وحَالُوا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ البَيْت.

* * *

وقد قال النَّبيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ رضي الله عنها: لا يَدْخُلُ النَّارَ إنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أصْحَابِ الشَّجَرةِ أحَدُ الذينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا.

فقالتْ حفصةُ: بلى يَا رسولَ الله.

(١) سورة الفتح: الآيات ٢٤ ــ ٢٦.

فانْتَهَرَها النَّبِـيُّ ﷺ.

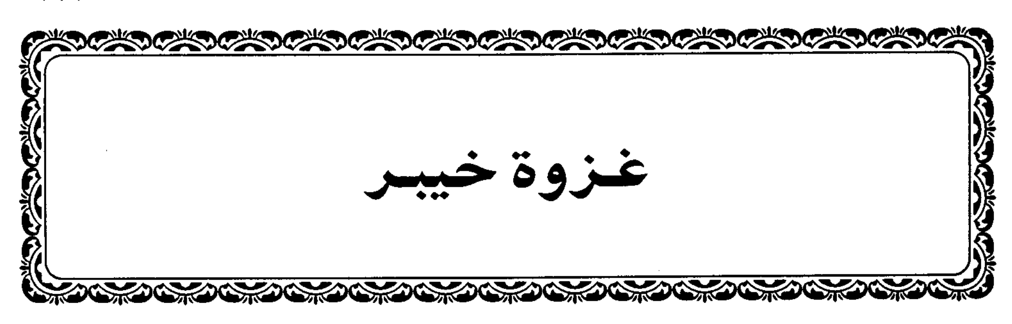
فقالتْ حفصةُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[١].

فقـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: وقَـدْ قـالَ اللهُ عَـزَّ وجـلَّ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[٢].

* * *

(١) سورة مريم: الآية ٧١.

(٢) سورة مريم: الآية ٧٢.



غزوة خيبر

خرجَ المصطفى المُخْتَارُ، صلَّى وسلَّمَ عليهِ ربُّه الرحيمُ الغفَّار، لقتالِ يهودِ خيبرَ الأشرار، فبينما هم في مسيرهم قد خالطهم ظلام الأسحار، إذْ قال بعضُ القومِ لعامرِ بنِ الأكوعِ رضي الله عنه: يا عامرُ، ألا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ؟

وكان عامرٌ رجلاً شاعراً حدَّاءً، فنزلَ يحدو بالقوم:

اللَّهُمَّ لولا أنتَ ما اهتدينَا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلَّيْنَا

فاغفرْ فِداءً لكَ مَا اقتفينَا ... وثبِّت الأقدامَ إن لاقينا

وألقيَنْ سكينةً علينَا ... إنَّا إذا صيحَ بِنَا أتينَا

وبالصِّيَاحِ عوَّلوا علينا

فقال رسولُ الله ﷺ: مَنْ هذا السائقُ؟

فقال: أنا عامرٌ.

فقال رسولُ الله ﷺ: غفَرَ لَكَ ربُّكَ.

وما اسْتَغْفَرَ رسولُ الله ﷺ لإنسانٍ يَخُصُّهُ إلاَّ اسْتُشْهِدَ.

فنادَى عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه وهُوَ عَلَى جملٍ لهُ: يَا نَبِيَّ الله، لولا متَّعْتَنَا بعامرٍ؟

قال أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: فصلَّيْنَا عند خيبرَ صلاةَ الغَدَاةِ

بِغَلَس[(١)]؛ فركِبَ نَبيُّ الله ﷺ، وركِبَ أبُو طلحةَ، وأنا رديفُ أبي طلحةَ، فأجرى نَبيُّ الله ﷺ في زُقَاقِ[(٢)] خيبرَ؛ وإنَّ رُكْبَتِي لتَمَسُّ فَخِذَ نَبيِّ الله ﷺ، وانْحَسَرَ الإزارُ عَنْ فَخِذِ نَبيِّ الله ﷺ فإنِّي لأرَى بَيَاضَ فَخِذِه.

فدخل نبيُّ الله ﷺ القريةَ حِينَ بَزَغَت الشَّمْسُ وقَدْ أخْرَجَتْ يهودُ مَوَاشِيَهُمْ، وخَرَجُوا بِفُؤُوسِهِمْ ومَكَاتِلِهِم[(٣)].

فلمَّا رأوا رسولَ الله ﷺ قالُوا: مُحمَّدٌ والله، مُحمَّدٌ والخميسُ[(٤)].

ورَجَعُوا إلى الحِصْنِ يَسْعُونَ.

فرَفَعَ رسولُ الله ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قالَ: اللهُ أكبرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِينَ.

حتَّى قالها رسولُ الله ﷺ ثلاثَ مَرَّاتٍ.

فلمَّا قدموا خيبرَ خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطُرُ بسيفِهِ ويقولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إذا الحُرُوبُ أقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فبَرَزَ له عَامِرٌ فقال:

قَدْ عَلِمَتْ خيبرُ أَنِّي عامِرُ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

فاخْتَلَفَ عامرٌ ومرحبٌ ضَرْبَتَيْنِ، فوَقَعَ سيفُ مَرْحَبٌ في تُرْسِ عامر،

---

(١) أي: صلَّى الصبح في ظلمة آخر الليل وقد اختلط بضوء الصباح.

(٢) أي: سِكَّة، وقيل: الطريق الضيق دون السِّكة.

(٣) أي: الزبيل الذي يحمل فيه التمر أو العنب.

(٤) أي: الجيش، وسُميَّ خميساً لأنه مقسوم على خمسة: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب.

وكانَ سَيْفُ عامرٍ فيهِ قِصَرٌ، فتَناوَلَهُ ليَضْرِبَ بِهِ مَرْحباً، فرَجَعَ ذُبَابُ[١] سَيْفِهِ عَلَى نَفْسِهِ فأَصَابَ رُكْبَتَهُ، فماتَ وكَانَتْ فيها نَفْسُهُ رضي الله عنه.

فخَرَجَ ابنُ أخيهِ سلمةُ بنُ الأكوع رضي الله عنه؛ فإذا نفرٌ مِنْ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ يقولون: بَطَلَ عَمَلُ عامرٍ؛ قَتَلَ نَفْسَهُ!

فأتى سلمةُ النَّبيَّ ﷺ وهُوَ يَبْكِي، فقالَ: يَا رسولَ الله ــ فِدَاكَ أبي وأمِّي ــ؛ زَعَمُوا أنَّ عامراً حَبِطَ عَمَلُهُ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: مَنْ قَالَ ذلك؟

فقال سلمةُ: ناسٌ مِنْ أصحابِكَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: كَذَبَ مَنْ قَالَ ذلكَ، بَلْ لَهُ أجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ــ وجَمَعَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ ــ؛ إنَّه لجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ.

* * *

ولمَّا مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عَسْكَرِهِ، ومالَ الآخَرُونَ إلى عَسْكَرِهم؛ كانَ فِي أصحابَ رسولِ الله ﷺ رَجُلٌ مِمَّنْ يَدَّعِي الإسلام، لا يَدَعُ للعَدُوِّ شاذةً إلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُها بِسَيْفِهِ.

فقال أصحابُ رسولِ الله ﷺ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أحدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلانٌ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّهُ مِنْ أهلِ النَّار.

فكَادَ بَعْضُ النَّاسِ أنْ يَرْتَابَ، فقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أبداً.

فخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وإذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، فجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحاً شَدِيداً، فاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فوَضَعَ نَصْلَ[٢] سَيْفِهِ وذُبَابَهُ

---

(١) أي: حدُّه وطرفُه.

(٢) أي: حديدة السيف الذي ليس له مقبض.

بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ على سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فخَرَجَ الرَّجُلُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: أشْهَدُ أنَّكَ رسولُ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: ومَا ذَاكَ؟

فقالَ: الرَّجُلُ الذي ذكرتَ آنفاً أنَّهُ مِنْ أهلِ النَّار، فأعظمَ النَّاسُ ذلكَ؛ فقلتُ: أنا لَكُمْ بِهِ؛ فخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حتَّى جُرِحَ جُرْحاً شديداً؛ فاسْتَعْجَلَ المَوْتَ؛ فوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ وذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فقَتَلَ نَفْسَهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: اللهُ أكبرُ، أشهدُ أنِّي عبد الله ورسولُهُ، إنَّ الرَّجُلَ ليَعْمَلُ عَمَلَ أهلِ الجنَّةِ فيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وهُوَ مِنْ أهلِ النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ ليَعْمَلُ عَمَلَ أهلِ النَّارِ فيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وهُوَ مِنْ أهْلِ الجنَّةِ.

ثُمَّ أمَرَ رسولُ الله ﷺ بلالاً فنَادَى بالنَّاسِ: إنَّهُ لا يَدْخُلُ الجنَّةَ إلاَّ نفسٌ مُسْلِمَةٌ، وإنَّ اللهَ ليُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفَاجِرِ.

فبينما رسولُ الله ﷺ في حِصَارِهِ خيبرَ قَدْ أصَابَتْهُ وأصحابُهُ مَخْمَصَةٌ[١] شديدةٌ، إذْ أخَذَ اللِّوَاءَ أبُو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه؛ فانْصَرَفَ ولم يُفْتَحْ لَهُ؛ ثُمَّ أَخَذَهُ مِنَ الغَدِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه، فخَرَجَ فرَجَعَ ولمْ يُفْتَحْ لَهُ.

وأصابَ النَّاسَ يومئذٍ شِدَّةٌ وَجَهْدٌ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: لأُعْطِيَنَّ هذه الرَّايَةَ غداً رجلاً يفتحُ اللهُ على يَدَيْهِ؛ يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، لا يَرْجِعُ حتَّى يُفتحَ لَهُ.

فبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ[٢] لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعطَاهَا، طَيِّبَةً أنْفُسُهمْ أنَّ الفَتْحَ غداً.

فلمَّا أصبحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ الله ﷺ كلُّهُم يَرجوا أنْ يُعْطَاهَا.

---

(١) أي: مجاعة.

(٢) أي: وقعوا في اختلاط واختلاف.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أيْنَ عَلِيُّ بنُ أبي طالب؟

فقالوا: هُوَ يَا رسولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: فأرْسِلُوا إليه.

فأُتِيَ بِهِ، فبَصَقَ رسولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ ودَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ عَلِيٌّ حتَّى كأنْ لمْ يكُنْ بِهِ وَجَعٌ.

فَأعْطاه رسولُ الله ﷺ الرايةَ.

فقال عليٌّ: يا رسولَ الله، أُقاتِلُهُمْ حتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟

فقال له رسولُ الله ﷺ: انفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حتَّى تَنْزِل بسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ، وأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فيهِ، فوالله لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رجلاً واحداً خيرٌ لَكَ مِنْ أنْ يَكُونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ[١].

فخَرَجَ إليهِ مَرْحَبٌ فقالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خيبرُ أنِّي مَرْحَبُ شاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إذا الحُرُوبُ أقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فقالَ عَليٌّ:

أنا الذي سَمَّتْنِي أمِّيَ حَيْدَرَه كَلَيْثِ غابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَه
أُوفِيهِم بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَه[٢]

فَفَلَقَ عليٌّ رأسَ مَرْحَبٍ بالسَّيْفِ فقَتَلَهُ، وكانَ الفتحُ عَلَى يَدَيْهِ.

* * *

(١) أي: الإبل المحمودة التي كانت العرب تتفاخر بها.

(٢) أي: نوع من أنواع الكيل، غَرَّاف جَرَّاف.

وكانت خيبرُ قد فُتِحَتْ عنوةً، ولم يَغْنَم فيها رسولُ الله ﷺ ذهباً ولا فضةً؛ إنَّما غَنِمَ البقرَ والإبلَ والمتاعَ والحوائِطَ.

وقدْ تُوُفِّيَ رجلٌ مِنَ المُسْلِمينَ بخيبرَ، فذُكِرَ لرسولِ الله ﷺ، فقال: صَلُّوا عَلَى صاحِبِكُم.

فتغَيَّرَتْ وجوهُ القومِ لذلِكَ، فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ الذي بِهِمْ قال: إنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سبيل الله.

ففَتَّشوا مَتَاعَهُ فَوَجَدوا فِيهِ خَرْزاً مِنْ خَرْزِ اليَهُودِ؛ مَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ.

ثُمَّ انصرفَ رسولُ الله ﷺ إلى وادِي القُرَى ومَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقالُ له: مِدْعَمٌ ـ أهداهُ لَهُ أحدُ بَنِي الضِّبَابِ ـ ، فبينما العَبْدُ يَحُطُّ رَحْلَ رسولِ الله ﷺ إذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ[1] حتَّى أصابَهُ فقتَلَهُ.

فقالَ النَّاسُ: هنيئاً لَهُ الشَّهَادةُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: بَلْ والذي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ الشَمْلَةَ التي أصابَهَا يومَ خَيبرَ مِنَ المَغانِمِ لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ لتَشْتَعِلُ عليهِ ناراً.

فجاءَ رجلٌ حينَ سَمِعَ ذلكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِرَاكٍ[2] أو بِشِرَاكَيْنِ، فقال هذا شيءٌ كُنْتُ أصَبْتُهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: شِرَاكٌ أو شِرَكَانَ مِنْ نار.

فلمَّا أمْسَى النَّاسُ أوْقَدُوا نيراناً كثيرةً، فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَا هذه النِّيرانُ؟ على أيِّ شيءٍ تُوقدون؟

فقالوا: على لَحْمٍ.

---

(١) أي: لا يُدرى من رمى به.

(٢) أي: سير النعل على ظهر القدم.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ لحمٍ؟

فقالوا: لَحْمَ حُمُرِ الإِنْسِيَّةِ.

فنَادَى مُنادي رسولِ الله ﷺ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ورسولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الحُمُرِ؛ فإنَّها رِجْسٌ.

* * *

وقَدْ قَدِمَ أبُو هريرةَ رضي الله عنه المدينةَ في رَهْطٍ مِنْ قَوْمِهِ لمبايعةِ النَّبِيِّ ﷺ، فإذا هُوَ بِخَيْبَرَ قَدْ اسْتَخْلَفَ سِبَاعَ ابنَ عُرْفُطَةَ رضي الله عنه عَلَى المَدِينَةِ.

فلمَّا انْتَهى أبو هريرةَ إلى النَّبِيِّ ﷺ بخيبرَ إذا هُوَ يَقْرَأ فِي صلاةِ الصُّبْحِ فِي الرَّكْعَةِ الأولى بـ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[١]، وفي الثانِيَةِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٢].

قال أبو هريرةَ: فقلتُ لنفسي: ويلٌ لفلانٍ؛ إذا اكتالَ: اكتال بالوافِي، وإذا كَالَ: كالَ بالنَّاقِصِ.

فلمَّا صلَّى النَّبِيُّ ﷺ: زوَّدَنَا شيئاً، حتَّى أتَيْنَا خيبرَ وقدْ افْتَتَحَها النَّبِيُّ ﷺ، فكلَّم رسولُ الله ﷺ المُسلمينَ فأشْرَكُونَا في سِهَامِهِمْ.

قصة الشاة المسمومة:

وقد أهْدَت امرأةٌ يَهُودِيَّةٌ ــ وهي أختُ مَلِكِهِمْ مَرْحَب ــ رسولَ الله ﷺ شاةً مَصْلِيَّةً[٣] قدْ سَمَّتْهَا.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يقبلُ الهَدِيَّةَ؛ ولا يأكلُ الصَّدَقَةَ، فأكَلَ رسولُ الله ﷺ

---

(١) سورة مريم: الآية ١ إلى تمام السورة.

(٢) سورة المطففين: الآية ١ إلى تمام السورة.

(٣) أي: مشوية.

مِنْهَا وأكَلَ القَوْمُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ لأصحابِهِ رضي الله عنهم: ارْفَعُوا أيْدِيَكُمْ، فإنَّها أخْبَرَتْنِي أنَّها مَسْمُومَةٌ.

فماتَ بِشْرُ بنُ البَراءِ بنِ مَعْرُورٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

فأرْسَلَ رسولُ الله ﷺ إلى اليهوديَّةِ: مَا حَمَلَكِ عَلَى الذي صَنَعْتِ؟

فقالت: إن كُنْتَ نبيّاً لم يَضُرُّكَ الذي صنعتُ، وإن كنتَ ملكاً أرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ.

فأمَرَ بِهَا رسولُ الله ﷺ فقُتِلَتْ.

* * *

زواجه ﷺ من صفية بنت حييٍّ رضي الله عنها:

وجُمِعَ السَّبْيُ، فجَاءَ دِحْيَةُ لرسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله؛ أعْطِنِي جاريةً مِنَ السَّبْي.

فقال له رسولُ الله ﷺ: اذهبْ فَخُذْ جاريةً.

فأخَذَ دِحْيَةُ جاريةً جميلةً؛ هِيَ صَفيةُ بنتُ حُيَيٍّ بنِ أخْطَبٍ، وكانَتْ قَدْ قُتِلَ زوجُها وهيَ عَرُوسٌ.

فجاءَ رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ فقال: يا نَبيَّ الله، أعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بنت حُيَيٍّ ــ سيِّدِ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ ــ! ما تَصْلُحُ إلاَّ لَكَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: ادْعُوهُ بِهَا.

فجاء دِحْيَةُ بِصفيَّة، فلمَّا نَظَرَ إليها النَّبِيُّ ﷺ اشتراها بِسَبْعَةِ أرْؤُسٍ، ثُمَّ قالَ لدِحْيَة: خُذْ جَارِيةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَها.

فاصْطَفاها رسولُ الله ﷺ لنَفْسِهِ وأعْتَقَها، وتَزَوَّجَها وأصْدَقَها نَفْسَها.

فخَرجَ بِهَا حتَّى إذا بَلَغَ سَدَّ الصَّهْبَاءِ حلَّتْ له، فَدَفَعَهَا إلى أُمِّ سُلَيْم تُصَنِّعُهَا لَهُ وتُهَيِّؤُهَا، فَجَهَّزَتْهَا لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ فأهْدَتْهَا لَهُ مِنَ اللَّيلِ، فأَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ عَرْوساً، ثُمَّ أقامَ بينَ خيبرَ والمدينةِ ثلاثَ ليالٍ.

ثُمَّ صَنَعَ رسولُ الله ﷺ حَيْساً[١] في نَطْعٍ[٢] صَغيرٍ، ثُمَّ قالَ لأنسٍ: آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ.

فكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةُ رَسولِ الله ﷺ عَلَى صَفِيَّة، فَشَبِعَ النَّاسُ.

فقالَ المُسْلِمُونَ: إحْدَى أمَّهاتِ المُؤمنينَ؛ أوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ؟

فقالوا: إنْ حَجَبَها فَهِيَ إحْدَى أمَّهاتِ المُؤْمِنينَ، وإنْ لَمْ يَحْجُبْهَا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِنُهُ.

فلمَّا ارْتَحَلَ رسولُ الله ﷺ وأرادَ أنْ يَرْكَبَ: حَجَبَهَا، ووضَعَ رُكْبَتَهُ فوَضَعَتْ صفيةُ رضي الله عنها رِجْلَهَا عَلَى رُكبَتِهِ حتَّى تَرْكَبَ، فقَعَدَتْ عَلَى عَجُزِ البَعيرِ، فعَرَفَ المُسلمونَ أن رسولَ الله ﷺ قَدْ تَزَوَّجَها.

* * *

ولمَّا قَفَلَ رسولُ الله ﷺ راجعاً مِنْ غَزوةِ خيبرَ؛ سَارَ لَيْلَهُ، حتَّى إذا أدْرَكَهُ الكَرىٰ عرَّسَ، وقالَ لبلالٍ: اكلأ لَنا الليلِ.

فصلَّى بلالٌ مَا قُدِّرَ لَهُ، ونَامَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فلمَّا تَقَارَبَ الفَجْرُ استندَ بلالٌ إلى رَاحِلَتِهِ مُواجِهَ الفَجْرِ، فَغَلَبَتْ بلالاً عَيْنَاهُ وهُوَ مُسْتَنِدٌ إلى رَاحِلَتِهِ.

فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ رسولُ الله ﷺ ولا بِلالٌ ولا أحدٌ مِنْ أصحابِهِ حتَّى ضَرَبَتْهُمْ

---

(١) أي: تمكراً يُخلط بسمن وأقط، فيعجن شديداً، ثم يُندر منه نواه.

(٢) أي: بساط من الأديم، وهو الجلد.

الشَّمْسُ، فكانَ رسولُ الله ﷺ أوَّلَهُمْ استيقاظاً، فَفَزِعَ رسولُ الله ﷺ، فقالَ: أيْ بلالٌ!

فقالَ بلالٌ: أخَذَ بِنَفْسِي الذي أخَذَ بِنفسِكَ بأبِي أنتَ وأمِّي يا رسولُ الله.

فاقْتَادُوا رَوَاحِلَهُمْ شيئاً، ثُمَّ تَوَضَّأ رسولُ الله ﷺ، وأمَرَ بلالاً فأقامَ الصَّلاةَ فصَلَّى بِهِمُ الصُّبْحُ، فلمَّا قَضَى رسولُ الله ﷺ الصَّلاَةَ قال: مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَهَا، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[١].

وبينما رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ رضي الله عنهم في بعض الطَّريقِ؛ إذْ أشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وادٍ، فَرَفَعُوا أصْوَاتَهُمْ بالتَّكْبيرِ: اللهُ أكبرُ؛ اللهُ أكبرُ، لا إلٰه إلاَّ اللهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: اربَعُوا[٢] عَلَى أنْفُسِكُمْ، إنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أصمَّ ولا غَائِباً، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سميعاً قريباً؛ وهُوَ مَعَكُمْ.

* * *

وكان أبو موسى الأشعريُّ خلفَ دابَّةِ رسولِ الله ﷺ، فسمعه رسولُ الله ﷺ وهو يقولُ: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: يَا عَبْدَ الله بنَ قَيْسٍ.

فقال أبو موسى: لبَّيْكَ يَا رسولَ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: ألا أدُلُّكَ عَلَى كلمةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟

---

(١) سورة طه: الآية ١٤.

(٢) أي: ارفقوا.

فقال أبو موسى: بَلَى يَا رسولَ الله؛ فِداكَ أبـي وأمي.

فقال رسولُ الله ﷺ: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله.

ثم ساروا حتَّى إذا أشْرَفُوا على المَدِينَةِ نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى أُحُدٍ، فقَالَ: هذا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه.

ثُمَّ نَظَرَ إلى المدينةِ، فقالَ: اللَّـٰهُمَّ إنِّي أحَرِّمُ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا بِمِثْلِ مَا حَرَّمَ إبراهيمُ مكة، اللَّـٰهُمَّ بارِكْ لَهُمْ فِـي مُدِّهِمْ وصَاعِهِمْ.

* * *

قدوم مهاجري الحبشة رضي الله عنهم:

ووافى جعفرُ بنُ أبـي طالبٍ وأصحابُهُ رضي الله عنهم ــ حينَ قَدِمُوا مِنَ الحَبَشَةِ بالسَّفينةِ ــ رسولَ الله ﷺ حينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فأسْهَمَ لَهُمْ وأعْطَاهُمْ مِنْهَا، وما قَسَمَ لأحدٍ غابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شيئاً إلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ.

وقد دَخَلَتْ أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ ــ زوجُ جعفرِ بنِ أبـي طالبٍ ــ رضي الله عنها عَلَى حَفْصَةَ زوجِ النَّبِـيِّ ﷺ زائرةً ــ وقدْ كانَتْ هَاجَرَتْ إلى النَّجَاشِـيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ ــ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وأسْمَاءُ عِنْدَهَا، فقالَ عُمَرُ حِينَ رأى أسماءَ: مَنْ هذه؟

فقالت حفصة: أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ.

فقال عُمَرُ: الحَبَشِيَّةُ هذه؟! البَحْرِيَّةُ هذه؟!

فقالتْ أسماءُ: نعم.

فقال عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أحقُّ برسولِ الله ﷺ مِنْكُمْ.

فغَضِبَتْ أسماءُ وقالتْ: كلاَّ والله؛ كُنْتُمْ مَعَ رسولِ الله ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ ويَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وكُنَّا في دار البُعَدَاءِ البُغْضَاءِ بالحَبَشَةِ، وذلكَ في الله وفي

رسولِه ﷺ؛ وايْمُ الله، لا أطْعَمُ طَعَاماً ولا أشْرَبُ شَرَاباً حتَّى أذْكُرَ مَا قُلْتَ لرسولِ الله ﷺ، ونَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى ونُخَافُ، وسَأذْكُرُ ذلكَ للنَّبِـيِّ ﷺ وأسْأَلُهُ، والله لا أكْذِبُ ولا أزِيغُ ولا أزِيدُ عليه.

فلمَّا جاءَ النَّبِـيُّ ﷺ قالَتْ: يَا نَبِـيَّ الله، إنَّ عُمَرَ قالَ كَذَا وكَذا.

فقال رسولُ الله ﷺ: فمَا قُلْتِ لَهُ؟

فقالتُ أسماءُ: قلتُ لَهُ كَذَا وكَذَا.

فقـال رسـولُ الله ﷺ: لَيْسَ بـأحـقَّ بِـي مِنْكُـم، ولَـهُ ولأصحـابِـهِ هِجْـرَةٌ واحدةٌ، ولَكُمْ أنْتُمْ هِجْرَتَانِ.

* * *

إتيان الحَجَّاج بن علاط رضي الله عنه مكة وجمعه ماله وذهابه به:

وكان الحَجَّاجُ بنُ عِلاطٍ رضي الله عنه قد أتى رسول الله ﷺ بَعْدَ فَتْحِ خيبرَ، فقالَ: يَا رسولَ الله؛ إنَّ لِـي بمكةَ مالاً، وإنَّ لِـي بِهَا أهلاً وإنِّي أريدُ أنْ آتِيهِمْ، فأنَا فِـي حِلٍّ إنْ أنَا نِلْتُ مِنْكَ؛ أو قلتُ شيئاً؟

فأذِنَ لهُ رسولُ الله ﷺ أنْ يَقولَ مَا شَاءَ.

فأتى الحَجَّاجُ بنُ عِلاطٍ امْرَأتَهُ حينَ قَدِمَ، فقال: اجْمَعِـي لِـي مَا كَانَ عِنْدَكِ، فإنِّي أريدُ أنْ أشْتَرِي مِنْ غَنَائِمِ مُحمَّدٍ ﷺ وأصحابِهِ، فإنَّهُمْ قَدْ اسْتُبِيحُوا وأصِيبَتْ أمْوالُهُمْ.

فَفَشَـا الخبـرُ فـي مَكَـةَ، وانْقَمَـعَ المُسلمـونَ، وأظْهَـرَ المُشـركـونَ فَـرحـاً وسُروراً، وبَلَغَ الخَبَرُ العبَّاسَ عمَّ رسولِ الله ﷺ؛ فعُقِرَ رضي الله عنه، وجَعَلَ لا يَستطيعُ أنْ يَقُومَ، فأخَذَ ابناً لَهُ يُقالُ لَهُ: قُثَمٌ ـ وكان يُشبِهُ النَّبـيَّ ﷺ ـ، فاسْتَلْقَى العبَّاسُ فوَضَعَ قُثَماً عَلَى صَدْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

حـــيَّ قُثَــمْ حـــيَّ قُثَــمْ شَبيـــهُ ذِي الأنْـــفِ الأَشَـــمْ
نـــبـــيِّ ذِي الـــنِّـــعَـــمْ يُـــرْغِـــمُ مَـــنْ رَغِـــمْ

ثُمَّ أرسلَ العبَّاسُ غُلاماً إلى الحَجَّاجِ بنِ عِلاطٍ: وَيْلَكَ! مَا جِئْتَ بِهِ؛ ومَا تَقُولُ؟ فمَا وَعَدَ اللهُ خيرٌ مِمَّا جِئْتَ بِهِ.

فقالَ الحَجَّاجُ بنُ عِلاطٍ لغُلامِهِ: اقْرَأْ عَلَى أبـي الفَضْلِ السَّلامَ، وقُلْ لَهُ: فَلْيُخْلِ لِـي فِـي بَعْضِ بُيُوتِهِ لآتيه، فإنَّ الخَبَرَ عَلَى مَا يَسُرُّهُ.

فجَاءَ غُلامُهُ، فلمَّا بَلَغَ بَابَ الدَّارِ قالَ: أبْشِرْ يا أبا الفَضْلِ.

فوَثَبَ العبَّاسُ فَرِحاً حتَّى قبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فأخْبَرَهُ الغُلامُ مَا قَالَ الحجَّاجُ، فأعْتَقَهُ العبَّاسُ.

ثُـمَّ جَـاءَهُ الحَجَّـاجُ فـأخْبـرَهُ: أنَّ رسـولَ الله ﷺ قـدْ افْتَتَـحَ خيبـرَ وغَنِـمَ أمْوالَهُمْ، وجَرَتْ سِهَامُ الله عزَّ وجلَّ في أمْوَالِهِمْ، واصْطَفَى رسولُ الله ﷺ صفيَّةَ بِنْتَ حُيَـيٍّ فاتَّخَذَهَا لِنَفْسِهِ، وخيَّرَها أنْ يُعْتِقَهَا وتكُونَ زَوْجَتُهُ، أوْ تَلْحَقَ بأهْلِهَا، فاختارت أنْ يُعْتِقَهَا وتكونَ زَوْجَتَهُ.

ثم قال الحجاج لكنِّي جِئْتُ لمَالٍ كَانَ لي هَهُنَا أردتُ أنْ أجْمَعَهُ فأذْهَبَ بِهِ، فاسْتَأْذَنْتُ رسولَ الله ﷺ؛ فأذِنَ لِـي أن أقولَ مَا شِئْتُ، فأخْفِ عنِّي ثلاثاً، ثُمَّ اذْكُرْ مَا بَدَا لَكَ.

فجَمَعَت امْرَأَةُ الحَجَّاجِ مَا كَانَ عِنْدَهَا مِنْ حُلِـيٍّ ومَتَاعٍ فَدَفَعَتْهُ إليهِ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ بِهِ الحَجَّاجُ.

فلمَّا كانَ بَعْدَ ثلاثٍ أتَى العبَّاسُ امْرأَةَ الحَجَّاجِ فقالَ: مَا فَعَلَ زَوْجُكِ؟

فأخْبَرَتْهُ أنَّه قدْ ذَهَبَ يَوْمَ كَذا وكَذا، وقالَتْ: لا يُخْزِيكَ اللهُ يَا أبا الفَضْلِ، لقَدْ شَقَّ عَلَيْنَا الذي بَلَغَكَ.

فقالَ العبَّاسُ: أجَلْ لا يُخْزِني الله، ولَمْ يَكُنْ بِحَمْدِ الله إلاَّ مَا أحْبَبْنَا، فَتَحَ اللهُ خَيبرَ عَلَى رسولِهِ ﷺ، وجَرَتْ فِيهَا سِهَامُ الله، واصْطَفَى رسولُ الله ﷺ صَفيَّةَ بنتَ حُيَيٍّ لنَفْسه، فإنْ كانَتْ لَكِ حاجةٌ فِي زَوْجِكِ فالْحَقِي بِه.

فقالت امْرَأَةُ الحَجَّاجِ: أظُنُّكَ والله صادقاً.

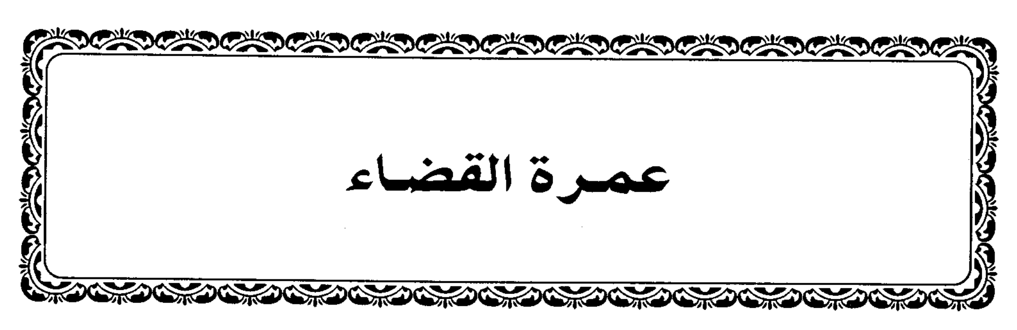
فقالَ العبَّاسُ: فإنِّي صادقٌ، الأمرُ عَلَى مَا أخْبَرْتُكِ.

فذَهَبَ العبَّاسُ حتَّى أتى مَجَالِسَ قُرَيْشٍ وهُمْ يَقولونَ ــ إذْ مَرَّ بِهِمْ العبَّاسُ ــ: لا يُصيبُكَ إلاَّ خيرٌ يا أبَا الفَضْلِ.

فقالَ لَهُمُ العبَّاسُ: لَمْ يُصِبْنِي إلاَّ خَيْرٌ بِحَمْدِ الله، قَدْ أخْبَرَنِي الحَجَّاجُ بنُ عِلاطٍ: أنَّ خَيْبَرَ قَدْ فتَحَهَا اللهُ عَلَى رسولِهِ، وجَرَتْ فِيهَا سِهَامُ الله، واصْطَفَى صفيَّةَ لنَفْسِهِ، وقَدْ سَأَلَنِي أنْ أُخْفِيَ عليهِ ثلاثاً، وإنَّمَا جَاءَ ليَأْخُذَ مَالَهُ ومَا كَانَ لَهُ مِنْ شَيْءٍ هَهُنَا ثُمَّ يَذْهَبُ.

فرَدَّ اللهُ الكآبَةَ التي كَانَتْ بالمُسلمينَ عَلَى المُشركينَ، وخَرَجَ المُسلمونَ ومَنْ كَانَ دَخَلَ بَيْتَهُ مُكْتَئِباً حتَّى أتَوْا العبَّاسَ فأخْبَرَهُمْ الخَبَرَ، فسُرَّ المُسلمونَ، ورَدَّ اللهُ مَا كَانَ مِنْ كآبةٍ أو غَيْظٍ أوْ حُزْنٍ عَلَى المُشركينَ.

* * *



عمرة القضاء

قدِمَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ مكةَ لعمرةِ القضاءِ التي تصالحوا مع المشركين بالحديبية عليها، وقاضاهم رسولُ الله ﷺ على أنْ يعتمرَ مِنَ العامِ المُقبل، فاعتمرَ ﷺ مِنَ العامِ المُقبل.

فبلغه أنَّ قريشاً تقولُ: إنَّه يقْدُمُ عليكم غداً قومٌ قد وهَنَتْهُم الحُمَّى ما يتباعَثُونَ مِنَ العَجَفِ(١).

فقال الصحابةُ رضي الله عنهم: لو انتحرنا مِنْ ظهرنَا(٢) فأكلنا مِنْ لحمِهِ، وحَسَوْنَا مِنْ مَرَقِهِ؛ أصبحنا غداً حينَ ندخلُ على القومِ وبنا جَمَامَةٌ(٣).

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: لا تفعلوا، ولكنِ اجمعوا لي مِنْ أزوادِكُم.

فجمعوا لَهُ وبَسَطُوا الأنطاع(٤)، فأكلوا حتَّى تولَّوا، وحثا كلُّ واحدٍ منهم في جرابِهِ.

ثم أقبلَ رسولُ الله ﷺ حتَّى دخلَ المسجدَ، وقعدتْ قريشٌ نحوَ الحِجْرِ،

---

(١) أي: قد أذهبت الحمى سمنهم فأصبحوا هزالاً.

(٢) أي: إبلنا.

(٣) أي: راحة وشبع وريٌّ.

(٤) أي: البُسُط المتخذة من الجلد.

فاضطبعَ رسولُ الله ﷺ بردائِه ثمَّ قالَ: لا يرى القومُ فيكم غَميزَةً(١).

وأمر رسولُ الله ﷺ أصحابَهُ رضي الله عنهم أنْ يَرْمَلُوا ثلاثةَ أشواطٍ، ويَمشُوا مَا بينَ الرُّكنينِ، ليرَى المُشركونَ جَلَدَهُمْ(٢).

فاستلمَ رسولُ الله ﷺ الرُّكنَ ثمَّ دخلَ، حتَّى إذا تغيَّبَ بالركنِ اليمانيِّ مَشَى إلى الركنِ الأسودِ.

فقالتْ قريشٌ: هؤلاءِ الذينَ زَعَمْتُمْ أنَّ الحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ، هؤلاءِ أجلدُ مِنْ كَذَا وكَذا، مَا يَرضونَ بالمَشْيِ، إنَّهم لينْقِزُونَ نَقْزَ الظِّبَاءِ.

ففعلَ ذلكَ رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أطوافٍ فكانتْ سُنَّةً، ولم يمنعْ رسولُ الله ﷺ أن يأمرَ أصحابَهُ رضي الله عنهم أنْ يَرْمَلُوا الأشواطَ كلَّها إلاَّ الإبقاءَ عليهِم.

فلمَّا اعتمرَ رسولُ الله ﷺ: سَتَرَهُ أصحابُه رضي الله عنهم مِنْ المُشركينَ وغِلْمَانِهِمْ أنْ يُؤْذُوا رسولَ الله ﷺ.

وقدْ أقامَ رسولُ الله ﷺ بمكةَ ثلاثاً، ونكحَ بها ميمونةَ بنتَ الحارثِ رضي الله عنها.

فلمَّا أن كَانَ اليوم الثَّالِثِ، قال المشركون لعليٍّ: هذا آخرُ يومٍ مِنْ شَرْطِ صَاحِبِكَ، فَمُرْهُ فَلْيَخْرُجْ.

فأخبرَهُ عليٌّ بذلك، فقال النَّبِيُّ ﷺ: نَعَمْ.

فَخَرَجَ.

* * *

---

(١) أي: عيبٌ.

(٢) أي: قوَّتهم.

فلمَّا خرجوا تَبِعَتْهُم عمارةُ ابنةُ حمزةَ بن عبدِ المطلب رضي الله عنهما فقالتْ: يا عمِّ؛ يا عمِّ.

فتناوَلَها عليٌّ رضي الله عنه فأخذَ بيدِها، وقالَ لفاطمةَ رضي الله عنها: دونَكِ ابنةَ عمِّكِ احملِيهَا.

فاختصمَ فيها عليُّ بنُ أبـي طالب وزيدُ بنُ حارثةَ وجعفرُ بنُ أبـي طالبٍ رضي الله عنهم.

فقال عليٌّ: أنا أحقُّ بها، وهي ابنةُ عمِّي.

وقال جعفرٌ: ابنةُ عمِّي وخالتُها تحتِـي.

وقال زيدٌ: ابنةُ أخي(١).

فقَضى بها النبـيُّ لخالَتِها، وقال: الخالةُ بمنزلةِ الأمِّ.

وقال ﷺ لعليٍّ: أنتَ مِنِّي وأنا مِنْكَ.

وقال ﷺ لجعفرٍ: أشْبَهْتَ خَلْقِـي وخُلُقِـي.

وقال ﷺ لزيدٍ: أنتَ أخونَا ومَولانَا.

وأنزلَ الله تعالى على رسولِهِ ﷺ في عمرةِ القضاءِ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(٢).

* * *

(١) أي: أخوة الإسلام، لأن حمزة رضي الله عنه كان وصيّه وأخاه.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٧.



غزوة مؤتة

لمَّا رجعَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ: جهَّز جيشاً إلى مُؤتَةَ، واستعملَ عليهم زيدَ بنَ حارِثَةَ رضي الله عنه، وقالَ لَهُمْ: إنْ قُتِل زيدٌ أوِ اسْتُشْهِدَ فأميرُكُمْ جعفرٌ، فإنْ قُتِلَ أوِ استُشْهِدَ فأميرُكُمْ عبدُ الله بنُ رواحةَ.

فأتَى خبرُهُمْ النبيَّ ﷺ، فخرجَ إلى النَّاس، فحَمِدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثُمَّ نَعَى زيداً وجعفراً وابنَ رواحةَ للنَّاس قَبْلَ أَنْ يَأتِيَهُمْ خبرُهُمْ، وإنَّ عَيْنَيْ رسولِ الله ﷺ لتَذْرِفَانِ، وقال: إنَّ إخوانَكُمْ لَقُوا العَدُوَّ، وإنَّ زيداً أخذَ الرَّايةَ، فقاتلَ حتَّى قُتِلَ أوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أخذَ الرَّايةَ بعدَهُ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ، فقاتلَ حتَّى قُتِلَ أوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أخَذَ الرَّايةَ عبدُ الله بنُ رواحةَ، فقاتلَ حتَّى قُتِلَ أوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أخذَ الرَّايةَ سيفٌ مِنْ سيوفِ الله؛ خالدُ بنُ الوليدِ، ففَتَحَ اللهُ عليهِ.

وكان خالدٌ رضي الله عنه يقولُ: لقدِ انْقَطَعَتْ في يديَّ يومَ مُؤتَةَ تسعةُ أسيافٍ، فمَا بَقِيَ في يديَّ إلاَّ صفيحةٌ يمانيَّةٌ.

وقدِ التُمِسَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه فوُجِدَ فِي القتلَى، ووُجِدَ في جسدِهِ: بضعاً وتسعينَ؛ مَا بَينَ طعنةٍ ورميةٍ، وقدْ قُطِعَتْ يداه.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: رأيتُ جعفراً يطيرُ فِي الجنَّةِ مع الملائكةِ.

وحاصَ المسلمونَ يومئذٍ حيصةً[١]، فلمَّا برزُوا قالوا: كيف نصنعُ وقدْ فَرَرْنا مِنَ الزَّحْفِ وبُؤْنَا بالغضبِ؟

فقالوا: ندخُل المدينةَ فنتثبتُ فيها ونذهبُ ولا يرانا أحدٌ.

فقدِمُوا المدينة فاختبؤا بها وقالوا: هلكْنا.

ثُمَّ قالوا: لوْ عَرَضْنَا أنفسَنَا على رسولِ الله ﷺ، فإنْ كانَتْ لنا توبةٌ أقمْنَا، وإلاَّ ذهبْنا.

فجلسُوا لرسولِ الله ﷺ قبلَ صلاةِ الفجرِ، فلمَّا خرجَ قامُوا إليهِ فقالوا: يا رسولَ الله، نحنُ الفرَّارونَ.

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: بلْ أنتُمْ العَكَّارُونَ، وأنا فئةُ المُسلمينَ[٢].

فَدَنَوْ فقبَّلُوا يدَ رسولِ الله ﷺ.

* * *

قالت عائشةُ رضي الله عنها: لمَّا جاءَ قتلُ ابنُ حارثةَ وجعفرِ بنِ أبي طالبٍ وعبدِ الله بنِ رواحةَ رضي الله عنهم جلسَ رسولُ الله ﷺ يُعْرَفُ فيهِ الحُزْنُ.

فبينما عائشةُ تَطَّلَّعُ مِنْ صَائِرِ[٣] البابِ؛ إذ أتاهُ رجلٌ فذكرَ له بُكاءَ نساءِ جعفرٍ.

فأمرَهُ رسولُ الله ﷺ أنْ يَنْهَاهُنَّ.

فذهبَ الرجلُ ثُمَّ أتى رسولَ الله ﷺ فذكرَ أنَّهُنَّ لم يُطِعْنَهُ.

---

(١) أي: طلباً للفرار.

(٢) أي: الذين يَفِرُّون إلى إمامِهِمْ لينصرَهُمْ.

(٣) أي: شق.

فأمرَهُ رسولُ الله ﷺ أن يَنْهَاهُنَّ.

فذهبَ ثُمَّ أتى، فقالَ: والله لقدْ غَلَبْنَنَا.

فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ: فاحْثُ في أفواهِهِنَّ مِنَ التُّرابِ.

فأمهلَ رسولُ الله ﷺ ثُمَّ أمهلَ آلَ جعفرٍ ثلاثاً أن يأتِيَهُمْ، ثُمَّ أتاهُمْ، فقالَ: لا تَبْكُوا على أخِي بَعْدَ اليومِ، ادْعُوا إليَّ ابْنَيْ أخِي.

فجِيءَ بِهِمْ كأنَّهُمْ أفْرُخٌ، فشمَّهُمْ رسولُ الله ﷺ وذَرَفَتْ عيناهُ، فقالَ: ادْعُو إليَّ الحلاقَ.

فجِيءَ بالحلَّاقِ فَحَلَقَ رُؤُوسَهُمْ، ثُمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ في حقِّ ابْنَيْ جعفرٍ: أمَّا مُحمَّدٌ؛ فشبيهُ عمِّنا أبي طالبٍ، وأمَّا عبدُ الله؛ فشبيهُ خَلْقِي وخُلُقي.

ثُمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: اللَّـهُمَّ اخْلُفْ جعفراً في أهلِهِ، وبارِكْ لعبدِ الله فِي صفقةِ يمينِهِ. قالَها رسولُ الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ.

فجاءَتْ أمُّهُمْ أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ رضي الله عنها فَذكَرَتْ لرسولِ الله ﷺ يُتْمَهُمْ، وجَعَلَتْ تُفْرِحُ له[1].

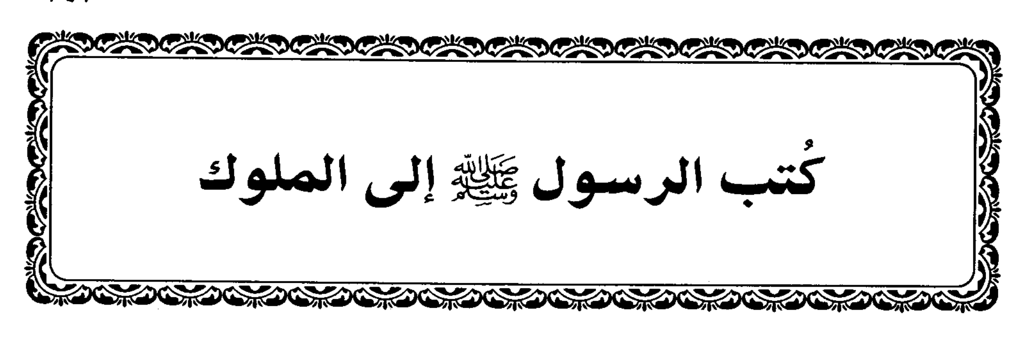
فقال لها رسولُ الله ﷺ: العيلةَ[2] تخافينَ عليْهِمْ، وأنا وليُّهُمْ فِي الدُّنْيا والآخرَةِ؟!!

ثم قال النَّبيُّ ﷺ: اصنعُوا لآلِ جعفرٍ طعاماً، فقد أتاهُمْ أمرٌ يُشْغِلُهُمْ.

* * *

(١) أي: تشكو الهمَّ والغمَّ.

(٢) أي: الفقر.



كُتب الرسول ﷺ إلى الملوك

كتابه ﷺ إلى هرقل:

لقد كانَ للفَتْح الذي فَتَحَهُ الله تعالى على نبيِّهِ ﷺ فِـي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ أماراتٌ، وعليهِ دلائلُ وعلاماتٌ.

فقَـدْ خـاطَـبَ رسـولُ الله ﷺ إبّـانَ مُـدَّةَ الصُلْحِ المُلـوكَ العِظَـامَ، وأرسـلَ البُعوثَ إلى القبائِلِ والفِئام.

يقولُ أبو سُفيانَ بنُ حربٍ رضي الله عنه: إنَّ هِرَقْلَ أرسلَ إليه في ركبٍ مِنْ قُريشٍ وكانُوا تجاراً بالشامِ في المُدَّةِ التي كانَ رسولُ الله ﷺ مادَّ فيها[1] كُفَّارَ قُريشٍ، فدعاهم هِرَقْلُ في مجلسِهِ وحولَهُ عظماءُ الرُّومِ، ودَعَا بتُرْجُمَانِهِ، فقالَ هِرَقْلُ لتُرْجُمَانِهِ: سَلْهُمْ أَيُّهُمْ أقْرَبُ نسباً بهذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أنَّهُ نَبِـيٌّ؟

فقال أبو سفيانَ: أنَا أقْرَبُهُمْ إليهِ نسباً.

فقال هِرَقْلُ: مَا قَرَابَتُكَ مِنْهُ؟

فقال أبو سُفيانَ: هُوَ ابنُ عمِّي، وليسَ في الرَّكْبِ يومئذٍ رجلٌ مِنْ بَنِـي عبدِ منافٍ غَيْرِي.

فقال هِرَقْلُ: أدْنُوهُ مِنِّي، وقَرِّبُوا أصحابَهُ فاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ.

---

(١) أي: عاهد فيها وأطال الأجل فيها، وهي صلح الحديبية.

ثُمَّ قالَ هِرَقْلُ لتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إنِّي سائلٌ هذا عَنْ هذا الرَّجُلِ؛ فإنْ كَذَبَنِي فكَذِّبُوهُ.

فقال أبو سُفيانَ: فوالله لولا الاسْتِحْيَاءُ يومئذٍ أن يَأْثِرَ أصحابِي عَنِّي الكذبَ لكَذَبْتُهُ حِينَ سَألَنِي، ولكنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثِرُوا عنِّي الكذبَ، فصَدَقْتُهُ عَنْهُ.

ثُمَّ كانَ أولَ مَا سألَ هِرَقْلُ عَنْهُ أبَا سُفيانَ أنْ قَالَ: كيف نَسَبُهُ فِيكُمْ؟

فقال أبو سُفيانَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قال هِرَقْلُ: فَهَلْ قالَ هذا القولَ مِنْكُمْ أحدٌ قطُّ قَبْلَهُ.

فقال أبو سفيانَ: لا.

قال هِرَقْلُ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟

فقال أبو سُفيانَ: لا.

قال هِرَقْلُ: فأشْرَافُ النَّاس يَتَّبِعُونَهُ أمْ ضُعَفَاؤُهم؟

فقال أبو سُفيانَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قال هِرَقْلُ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟

فقال أبو سُفيانَ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قال هِرَقْلُ: فَهَل يَرْتَدُّ أحدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيه؟

فقال أبو سُفيانَ: لا.

قال هِرَقْلُ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أن يَقُولَ مَا قَالَ؟

فقال أبو سُفيانَ: لا.

قال هِرَقْلُ: فهَلْ يَغْدِر؟

فقال أبو سُفيانَ: لا، ونَحْنُ مِنْهُ فِـي مُدَّةٍ لا نَدْرِي ماهُوَ فَاعِلٌ فِيها.

قال أبو سُفيانَ: ولَمْ تُمْكِنِّي كلمةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شيئاً أَنْتَقِصُهُ بِهِ غَيْرَها لا أخَافُ أن يَأْثِروا عَنِّي الكذبَ.

قال هِرَقْلُ: فَهَل قَاتَلْتُمُوهُ؟

فقال أبو سفيانُ: نَعَمْ.

قال هِرَقْلُ: فكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُم إيَّاهُ؟

فقال أبو سُفيانَ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا ونَنَالُ مِنْهُ.

قال هِرَقْلُ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟

فقال أبو سُفيانَ: يقولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً. واتْرُكُوا مَا يقولُ آباؤُكُمْ، ويأمُرُنَا بالصلاةِ والصدقِ والعفافِ والصِّلةِ.

قال هِرَقْلُ للتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ؟ فذكرتَ ذُو نَسَبٍ؛ فكذلكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِـي نَسَبِ قَوْمِهَا.

وسألتُكَ هَلْ قَالَ أحدٌ مِنكُمْ هذا القولَ؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقلتُ: لَوْ كَانَ أحدٌ قَالَ هذا القولَ قبلَهُ لقلتُ: رجلٌ يَأتَسِـي بقولٍ قيلَ قَبْلَهُ.

وسألتُكَ هلْ كَانَ مِنْ آبائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبائِهِ مِنْ مَلَكٍ قلتُ: رجلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أبيهِ.

وسألتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يقولَ مَا قالَ؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقَدْ أعْرِفْ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ ليَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ويَكْذِبَ عَلَى الله.

وسألتُكَ أشْرَافُ النَّاسه اتَّبَعُوهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فذكرتَ أن ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ؛ وهُمْ أتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وسألتُكَ أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ؟ فذكرتَ أنَّهُمْ يَزِيدُونَ؛ وكذلِكَ أمْرُ الإِيمانِ حتَّى يَتِمَّ.

وسألتُكَ أَيَرْتَدُّ أحدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فذكرتَ أَنْ لا ؛ وكذلِكَ الإِيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوبَ.

وسألتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فذكرتَ أَنْ لا ؛ وكذلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ.

وسألتُكَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فذكرتَ أَنَّهُ يأمُرُكُمْ أن تَعْبُدُوا الله ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، ويَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأوثانِ، ويَأْمُرُكُمْ بالصَّلاةِ والصِّدقِ والعفاف.

فإِنْ كَانَ ما تقولُ حقّاً؛ فسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

وقَدْ كُنْتُ أعلَمُ أَنَّهُ خارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إليهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، ولَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

قال أبو سُفيانَ: ثُمَّ دَعَا هِرَقْلُ بِكِتَابِ رسولِ الله ﷺ الذي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةَ بنَ خليفةَ الكلبيَّ رضي الله عنه إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إلى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ، فإذَا فيه: بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله ورَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى، أمَّا بَعْدُ: فإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ؛ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإِنْ تَوَلَّيْتَ فإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[1]، و ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

قال أبو سُفيانَ: فلمَّا قَالَ مَا قَالَ وفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكتابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وارْتَفَعَتْ الأصْواتُ، وأُخْرِجْنَا.

---

(١) أي: أهل مَمْلَكَتِهِ.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

فقلتُ لأصحابـي حينَ أَخْرِجْنَا: لقَد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبـي كبشَةَ[١]؛ إنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِـي الأَصْفَر.

قال أبو سُفيانَ: فوالله ما زِلْتُ ذليلاً مُسْتَيْقِناً أَنَّ أَمْرَهُ سَيَظْهَرُ حتَّى أَدْخَلَ اللهُ في قَلبِـي الإِسلامَ وأنا كَارِهٌ.

* * *

كتابه ﷺ إلى كسرى:

وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ رجلاً بكتابِهِ، وأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إلى عظيمِ البَحْرَيْنِ، فدَفَعَهُ عظيمُ البَحْرَيْنِ إلى كِسْرَى مَلِكِ فارسٍ.

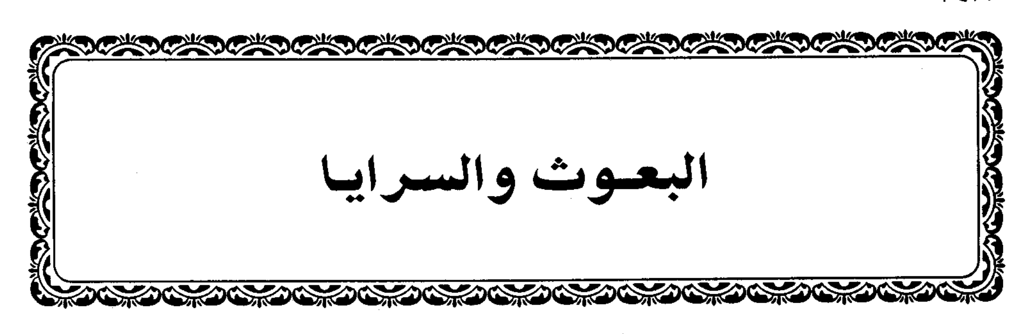
فلمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ!

فَدَعَا عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ.

* * *

---

(١) أي: النَّبِـيَّ ﷺ، وقيل: إن أبا كبشة أحد أجداد النَّبِـيِّ ﷺ، وعادة العرب إذا انتقصت أحداً نسبته إلى جد غامض.



البعوث والسرايا

بعثَ رسولُ الله ﷺ عَمْرَو بنَ العاصِ رضي الله عنه إلى ذاتِ السَّلاسِلِ، فاحتلمَ في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البَرْدِ، فأشفقَ إن اغْتَسَلَ أنْ يَهْلَكَ، فتيَمَّمَ ثُمَّ صَلَّى بأصحابِهِ صلاةَ الصُّبْحِ.

فلمَّا قَدِمُوا عَلَى رسولِ الله ﷺ ذَكَرُوا ذلكَ لَهُ.

فقالَ رسُولُ الله ﷺ: يَا عَمْرُو؛ صَلَّيْتَ بأصحابِكِ وأَنْتَ جُنُبٌ؟

فقال عمرُو بنُ العاصِ: نَعَمْ يا رسولَ الله، إنِّي احتلمتُ في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البَرْدِ فأشفقتُ إن اغْتَسَلْتُ أنْ أهْلَكَ، وذَكَرْتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(١). فتيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ.

فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ ولَمْ يَقُلْ شيئاً.

فقالَ عَمرُو بنُ العاصِ: يا رسولَ الله؛ أيُّ النَّاسِ أحبَّ إليكَ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: عائشةُ.

فقالَ عَمرُو: مِنَ الرِّجالِ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: أبوها.

فقالَ عمرُو: ثُمَّ مَنْ؟

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٩.

فقال رسولُ الله ﷺ: عُمَرُ.

فقالَ عمرُو: فعدَّ رسولُ الله ﷺ رجالاً، فسَكَتُّ مَخَافَةَ أنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ.

* * *

وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ بعثاً قِبَلَ السَّاحِلِ، فأمَّرَ عَلَيْهِمْ أبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ رضي الله عنه ــ وهُمْ ثَلاثُمَائَةٍ ــ، فَخَرَجَوا حتَّى إذا كانوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ الزَّادُ.

فأمَرَ أبُو عُبَيْدَةَ بِأزْوَادِ ذلكَ الجَيْشِ فجَمَعَ ذلِكَ كُلَّهُ، فكَانَ أبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِيهِم تَمْرَةً تَمْرَةً، فكَانُوا يَمُصُّونَها كمَا يَمُصُّ الصَبِيُّ، ثُمَّ يَشْرَبُونَ عليها مِنَ المَاءِ، فتَكْفِيهِمْ يَوْمَهُمْ إلى الليلِ.

ثُمَّ أصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أكَلُوا الخَبَطَ[١]، فسُمِيَّ ذلِكَ الجَيْشُ: جَيْشَ الخَبَطِ، فكانُوا يَضْرِبُونَ بَعِصِيِّهِمُ الخَبَطَ ثُمَّ يَبُلُّونَهُ بالمَاءِ فيأكُلُونَه.

فانْطَلَقُوا عَلَى ساحلِ البَحْرِ فرُفِعَ لَهُمْ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ كَهَيْئَةِ الكَثِيبِ[٢] الضَّخْمِ، فأتَوْهُ فإذا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى: العَنْبَرَ، فقالَ أبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ، ثُمَّ قالَ: لَا، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رسولِ الله ﷺ وفِي سبيلِ الله، وقَدْ اضْطُررتُمْ فكُلُوا.

فأكَلُوا مِنْهُ نِصْفَ شَهْر، حتَّى إنَّهُمْ ليَغْتَرِفُونَ مِنْ وَقَبِ[٣] عَيْنِهِ بالقِلالِ الدُّهْنَ، ويَقْتَطِعُونَ مِنْهُ القَدْرَ كالثَّوْرِ.

وقَدْ أخَذَ أبُو عُبَيْدَةَ ثلاثةَ عَشَرَ رَجُلاً فأقْعَدَهُمْ فِي وَقَبِ عَيْنِه، ثُمَّ أمَرَ

---

(١) أي: وَرَق الشَّجَرِ تُعْلَفُ بِهِ الإبِلُ.

(٢) أي: التلُّ من الرمل.

(٣) أي: داخل.

أَبُو عُبَيْدَةَ بِضِلْعَيْنِ مِنْ أَضْلاعِهِ فنُصِبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فرُحِّلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبْهُمَا.

وتَزَوَّدُوا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ[1]؛ فأَكَلُوا مِنْهُ، وادَّهَنُوا حتَّى صَلَحَتْ أجسامُهُمْ وسَمِنُوا.

فلمَّا قَدِمُوا المدينةَ أَتَوْا رسولَ الله ﷺ فَذَكَرُوا ذلكَ لَهُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: هُوَ رِزْقٌ أخرَجَهُ اللهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟

فأَرْسَلُوا إلى رسولِ الله ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ.

* * *

وبعثَ رسولُ الله ﷺ بَعْثاً مِنَ المُسْلِمِينَ إلى قَوْمٍ مِنَ المُشْرِكينَ فِي الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فكَانَ فِي المُشْرِكينَ رجلٌ إذا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إلى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فقَتَلَهُ.

فقَصَدَ أسامةُ بنُ زيدِ بنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه غَفْلَتَهُ، فَلَحِقَهُ هُوَ ورَجُلٌ مِنَ الأنصَارِ، فلمَّا غَشِيَاهُ ورَفَعَا عَلَيْهِ السَّيْفَ؛ قال الرَّجُلُ: لا إلـه إلاَّ اللهُ.

فكَفَّ عَنْهُ الأنصاريُّ، وطَعَنَهُ أسامةُ بِرُمْحِهِ حتَّى قَتَلَهُ.

فجاءَ البَشِيرُ إلى النَّبِيِّ ﷺ؛ فسَأَلَهُ فأخْبَرَهُ، حتَّى أَخْبَرَهُ خبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ.

فدعا رسولُ الله ﷺ أسامةَ فسَأَلَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟

فقال أسامةُ: يَا رسولَ الله؛ أَوْجَعَ فِي المُسلمينَ، وقَتَلَ فُلاناً وفُلاناً ــ وسمَّى لَهُ نَفَراً ــ وإنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فلمَّا رَأى السَّيْفَ قال: لا إلـه إلاَّ اللهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أقالَ لا إلـه إلاَّ اللهُ؛ وقَتَلْتَهُ؟!

---

(١) أي: اللحم الذي يؤخذ فيُغلى إغلاءة ويحمل في الأسفار.

قال أسامةُ: نَعَمْ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: فكَيْفَ تَصْنَعُ بلا إلـه إلاَّ اللهُ إذا جاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!

قالَ أسامةُ: يَا رسولَ الله، إنَّما قالَهَا خوفاً مِنَ السِّلاحِ!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أفلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حتَّى تَعْلَمَ أقَالَهَا أمْ لا؟!

قالَ أسامةُ: يَا رسولَ الله؛ اسْتَغْفِرْ لِـي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: وكَيْفَ تَصْنَعُ بلا إلـه إلاَّ اللهُ إذا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!

قالَ أسامةُ: فَجَعَلَ رسولُ الله ﷺ لا يَزيدُ على أنْ يقولُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بلا إلـه إلاَّ الله إذا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟! فمَا زَالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ حتَّى تَمَنَّيْتُ أنِّي لَمْ أكنْ أسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ.

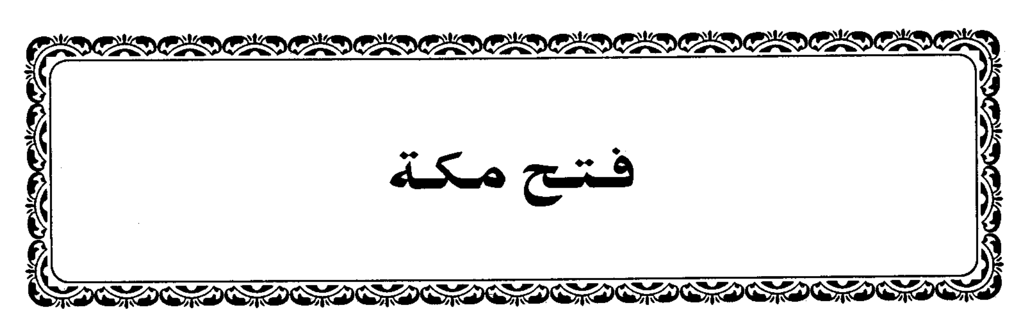
* * *

نعيه ﷺ النجاشي:

نَعَى رسولُ الله ﷺ للنَّاس النَّجَاشِـيَّ مَلِكَ الحَبَشَةِ فِـي اليَوْمِ الذي مَاتَ فِيهِ، وقال: مَاتَ اليَوْمَ عَبْدٌ للهِ صَالحٌ، أصْحَمَةُ النَّجَاشِـيُّ.

فَخرَجَ رسولُ الله ﷺ بالنَّاس إلى المُصَلَّى، فصَفَّهُمْ صَفَّيْنِ وأمَّهُمْ، فصَلَّى عليهِ فكَبَّرَ أرْبَعَ تكبيراتٍ، وقالَ: اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ.

* * *



فتح مكة

آذنَ رسولُ الله ﷺ بالرحيلِ عَامَ الفتحِ في ليلتينِ خَلَتا من رمضانَ، فغزَا رسولُ الله ﷺ مكةَ وكانَ معهُ عشرةُ آلافٍ من الفرسان، وذلك على رأسِ ثمانِ سنينَ ونِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ المدينةَ.

فأصبحَ النَّاسُ منهم الصائمُ ومنهم المفطرُ، حتى إذا بلغوا الكديد ــ وهو ماء بين عسفان وقديد ــ؛ دعا رسولُ الله ﷺ بقدحٍ من ماءٍ، فرفعه حتى نظرَ الناسُ إليه ثم شَرِبَ.

فقيل له بعد ذلك: إنَّ بعضَ الناسِ قد صامَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: أولئك العصاة؛ أولئك العصاة.

فلم يزل رسولُ الله ﷺ مُفطراً حتى انسلخَ شهرُ رمضانَ.

قال أنسٌ رضي الله عنه: أَنْفَجْنَا[١] أرنباً بِمَرِّ الظَّهرانِ[٢]، فسَعَى القومُ فلَغَبُوا[٣]، فأدْرَكْتُها فأخَذْتُهَا، فأتَيْتُ بِهَا أبَا طلحةَ فذَبَحَهَا، وبَعَثَ بِهَا إلى رسولِ الله ﷺ بِوَرْكِهَا أو فَخِذَيْهَا، فقَبِلَهُ رسولُ الله ﷺ وأكَلَ مِنْهُ.

* * *

(١) أي: أثرناه من مجثمه.

(٢) أي: قرية عند وادٍ قُرْبَ مكة.

(٣) أي: أعيوا أشدَّ الإعياء.

قصة كتاب حاطب بن أبـي بلتعة رضي الله عنه إلى المشركين:

كتبَ حاطبُ بنُ أبـي بلتعةَ رضي الله عنه إلى ناسٍ مِنَ المُشركينَ مِنْ أهلِ مكةَ يُخْبِرُهُمْ ببعضِ أمرِ رسولِ الله ﷺ.

فأوْحَى اللهُ تعالى إلى رسولِهِ ﷺ بذلكَ، فدلَّ رسولَ الله ﷺ على المرأةِ التي معها الكتابُ؛ فأرسلَ إليها عليَّ بنَ أبـي طالبٍ والزبيرَ بنَ العوامِ والمقدادَ بنَ الأسودِ رضي الله عنهم، وقال لهم: ائْتُوا روضَةَ خاخٍ[١]، فإنَّ بها ظعينةً[٢] معها كتابٌ فخذُوهُ مِنْها.

فانطلق الثلاثةُ تُعَادِي بهم خَيْلُهُم، فإذا هُمْ بالمرأةِ، فقالوا لها: أخْرِجِي الكتابَ.

فقالتْ: مَا مَعِيَ كتابٌ.

فقالوا: لتُخْرِجنَّ الكتابَ؛ أو لتُلْقِينَّ الثيابَ.

فأخْرَجَتْهُ مِن عِقَاصِهَا[٣].

فأتَوْا بِهِ رسولَ الله ﷺ.

فقالَ: يَا حاطبُ؛ مَا هذا؟!

فقال حاطبٌ: لا تعجلْ عليَّ يا رسولَ الله؛ إني كنتُ امرءاً مُلْصقاً في قريشٍ[٤]، وكانَ مِمَّنْ كانَ معكَ مِنَ المُهاجرينَ لهم قراباتٌ يحمونَ بها أهلِيهم؛ فأحببتُ إذْ فاتَنِي ذلكَ مِنَ النسبِ فيهم أنْ أتَّخِذَ فيهم يداً يَحْمُونَ

---

(١) أي: موضع بين الحرمين.

(٢) أي: امرأة في الهودج.

(٣) أي: ضفيرتها.

(٤) أي: حليفاً لها، ولم أكُنْ مِنْ أنْفُسِها.

بها قرابتِـي، ولمْ أفعله كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضًا بالكفرِ بعد الإسلام.

فقالَ النَّبـيُّ ﷺ: صَدَقَ.

فقالَ عَمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه: دعني يا رسولَ الله أضربُ عُنُقَ هذا المنافقِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: إنه قَدْ شَهِدَ بدراً، وما يُدريكَ! لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على مَنْ شَهِدَ بدراً فقال: اعملوا ما شئتمْ؛ فقد غفرتُ لكم.

فدمعتْ عينا عمر، وقال: اللهُ ورسولهُ أعلمُ.

وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾[1].

* * *

التماس قريش خبر رسول الله ﷺ:

وقـد بلـغَ قُـريشـاً مَقْـدمَ رسـولِ الله ﷺ، فخـرجَ أبـو سفيـانَ بـنُ حـربٍ وحكيمُ بنُ حِزامٍ وبديلُ بنُ ورقاءَ يلتمسونَ الخبرَ عَنْ رسولِ الله ﷺ، فأقبلُوا يسيرونَ حتَّى أتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فإذا هُمْ بنيرانٍ كأنَّها نيرانُ عرفة!

فقال أبو سفيانَ: ما هذه؟ لكأنَّها نيرانُ عرفةَ!

فقالَ بديلُ بنُ ورقاءَ: نيرانُ بَنِـي عمرٍو.

فقالَ أبو سفيانَ: عمرٌو أقلَّ مِنْ ذلكَ.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ١.

فرآهُم ناسٌ مِنْ حَرَسِ رسولِ الله ﷺ فأدْرَكُوهُم فأخَذُوهُم، فأتَوا بِهِم رسولَ الله ﷺ.

فلمَّا سارَ رسولُ الله ﷺ ومَنْ معهُ حبسَ العباسُ بن عبدِ المطلبِ رضي الله عنه أبَا سفيانَ خَطْمَ الجبلِ حتَّى ينظرَ إلى المسلمينَ، فجعلت القبائلُ تمرُّ مَع النبـيِّ ﷺ، تمرُّ كتيبةً كتيبةً على أبـي سفيانَ.

فمرَّتْ كتيبةٌ، فقال أبو سفيانَ: يَا عباسُ؛ مَنْ هذه؟

فقال العباسُ: هذه غفارُ.

فقَالَ أبو سفيانَ: ما لِـي ولغفارٍ.

ثم مرَّت جهينةُ، فقال أبو سفيانَ مِثلَ ذلك.

ثم مرَّت سعدُ بنُ هُذَيمٍ، فقال أبو سفيانَ مثلَ ذلكَ.

ومرَّت سُليمٌ، فقالَ أبو سفيانَ مثلَ ذلك.

حتَّى أقبلتْ كتيبةٌ لمْ يُرَ مِثْلُها، فقال أبو سفيانَ: مَنْ هذه؟

فقال العباسُ: هؤلاء الأنصارُ، عليهم سعدُ بنُ عُبادةَ رضي الله عنه معهُ الرايةَ.

فقال سعدٌ: يا أبَا سفيانَ؛ اليومُ يومُ الملحمةِ، اليومُ تُستحلُّ الكعبةَ.

فقالَ أبو سفيانَ: يَا عباسُ؛ حبَّذا يومُ الذِّمَارِ(١).

ثمَّ جاءَتْ كتيبةٌ وهِـيَ أقلُّ الكتائبِ، وفيهم رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ، ورايةُ النَّبـيِّ ﷺ مَعَ الزبيرِ بنِ العوامِ رضي الله عنه، فلمَّا مَرَّ رسولُ الله ﷺ بأبـي سفيانَ؛ قال أبو سفيانَ: ألمْ تعلمْ مَا قَالَ سعدُ بنُ عبادةَ؟

---

(١) أي: الهلاك.

فقال رسولُ الله ﷺ: مَا قَالَ؟

فقال أبو سفيانَ: قالَ كذا وكذا.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: كذبَ سعدٌ، ولكنْ هذا يومٌ يُعظِّمُ اللهُ فيهِ الكعبةَ، ويومٌ تُكسَى فيه الكعبةُ.

وأمرَ رسولُ الله ﷺ أنْ تُرْكَزَ رايَتُهُ بالحُجُونِ(١).

وقدْ جَعلَ رسولُ الله ﷺ يومَ الفتحِ خالدَ بنَ الوليد رضي الله عنه على المَجْنبَةِ اليُمنى، وجعلَ الزبيرَ بنَ العوامِ رضي الله عنه على المَجْنبَةِ اليُسرى، وجعلَ أبَا عُبَيدةَ بنَ الجراحِ رضي الله عنه على البَيَاذِقَةِ(٢) وبَطْنِ الوادي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: يَا أبا هُريرةَ؛ ادْعُ لِـيَ الأنصارَ.

فدَعَاهُمْ أبو هريرةَ، فجاءَ الأنصارُ يُهرولونَ.

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: يَا معشرَ الأنصارِ؛ هلْ تَرَوْنَ أوباشَ(٣) قُريشٍ؟

فقال الأنصارُ: نعم.

فقال رسولُ الله ﷺ: انْظُرُوا إذا لقِيتُمُوهُمْ غداً أَنْ تَحْصِدُوهُمْ حصداً! وأخْفَى بيدِهِ ووضعَ يمينَهُ على شمالِهِ.

ثم قالَ لهم رسولُ الله ﷺ: إنَّ مَوْعِدَكُمْ الصَّفا.

فما أشرفَ يومئذٍ للأنصارِ أحدٌ إلاَّ أنامُوهُ.

---

(١) أي: جبل بأعلى مكة.

(٢) أي: الرَّجَّالة.

(٣) أي: الأخلاط من الناس من قبائل شتى.

وصَعَدَ رسولُ الله ﷺ الصفا، وجاءَت الأنصارُ فأطافُوا بالصفا، فجاءَ العباسُ بنُ عبدِ المطلبِ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ ومعه أبو سفيانَ بنُ حربٍ.

فقال أبو سفيانَ: يا رسولَ الله؛ أبِيدَتْ[١] خضراءُ قريشٍ[٢]، لا قُرَيشَ بعدَ اليوم!!

فقالَ العباسُ: يا رسولَ الله؛ إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ يُحِبُّ هذا الفَخْرَ، فلَوْ جعلتَ له شيئاً.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: نَعَمْ؛ مَنْ دَخَلَ دَارَ أبـي سفيانَ فهُوَ آمِنٌ، ومَنْ أغلقَ عليهِ بابَهُ فهُوَ آمِنٌ، ومَنْ ألقى السلاحَ فهُوَ آمِنٌ.

فقالَت الأنصارُ: أمَّا الرجلُ فقدْ أخَذَتْهُ رأفةٌ بعشيرتِهِ، ورغبةٌ في قريتِهِ.

فنزلَ الوحيُ على رسولِ الله ﷺ، فقالَ ﷺ للأنصار: قلتُمْ: أمَّا الرجلُ فقدْ أخذَتْهُ رأفةٌ بعشيرتَهِ؛ ورغبةٌ فِـي قريتِهِ؟! ألا فَمَا اسْمِـي إذاً؟! ألا فَمَا اسْمِـي إذاً؟! ألا فَمَا اسْمِـي إذاً؟! أنَا مُحمَّدٌ عبدُ الله ورسولُهُ، هاجَرْتُ إلى الله وإليكُمْ، فالمَحْيَا مَحْيَاكُمْ والمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ.

فقال الأنصارُ: والله، مَا قُلنَا إلاَّ ضناً بالله ورسولِهِ[٣].

فقالَ رسولُ الله ﷺ: فإنَّ اللهَ ورسولَهُ يُصدِّقَانِكُمْ ويَعْذُرَانِكُمْ.

فأقبلَ ناسٌ إلى دارِ أبـي سفيانَ، وأغلقَ ناسٌ أبوابَهُم.

ودخلَ رسولُ الله ﷺ مكةَ يومَ الفتح مِنْ أعلى مكةَ وهُوَ على ناقتِهِ، دخلها

---

(١) أي: انقطعت وذهبت.

(٢) أي: دهماؤهم وسوادهم.

(٣) أي: بخلاً وشحّاً أن يشاركنا فيهما غيرنا.

وهُوَ يقرأ سورةَ الفتح، وعَلَى رأسِهِ المِغْفَرُ(١)، وعليه عمامَةٌ سوداءُ بغيرِ إحرامٍ، وكانَ لواؤُهُ يومَئذٍ أبيضَ، وكانَ مُردِفاً أسامةَ بنَ زيدٍ، ومعه بلالُ بن رباحٍ رضي الله عنهما حتَّى أناخَ في المسجِدِ.

وأبَى رسولُ الله ﷺ أنْ يدخلَ البيتَ وفيهِ الآلهةُ؛ فأمَرَ بِهَا فأُخْرِجَتْ؛ فأُخْرِجَتْ صورةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ فِي أيْدِيهِما الأزلام(٢)، فقال رسولُ الله ﷺ: أمَّا هُمْ فقَدْ سَمِعُوا أنَّ الملائكةَ لا تدخلُ بيتاً فيه صورةٌ، وهذا إبراهيمُ مُصوَّراً؛ فمَا بَالُهُ يَسْتَقسِمْ؟! قَاتَلَهُمْ اللهُ، لقد عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قطُّ.

وأمرَ النَّبـيُّ ﷺ عمرَ بنَ الخطابِ أنْ يَمْحُو الصورَ، فبَلَّ عمرُ ثوباً وَمَحَاهَا بِهِ، فدخلَها رسولُ الله ﷺ وما فيها منها شيءٌ.

فأقبلَ رسولُ الله ﷺ حتَّى أقبلَ إلى الحِجْرِ فاسْتَلَمَهُ ثم طافَ بالبيتِ، وكانَ حولَهُ ستونَ وثلاثُمائةِ نُصُبٍ، فجعل رسولُ الله ﷺ يَطْعَنُهَا بعودٍ في يدِهِ ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾(٣)، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾(٤).

وأمرَ رسولُ الله ﷺ عثمانَ بنَ طلحةَ مِنْ الحَجَبَةِ أنْ يَأتِـيَ بمِفتاحِ البيتِ، فـدخـلَ رسـولُ الله ﷺ ومَعَـهُ أسـامـةٌ وبـلالٌ وعثمـانُ بـنُ طلحـةَ، فمكـثَ رسولُ الله ﷺ في البيتِ نهاراً طويلاً ثُمَّ خَرَجَ.

فاستبقَ الناسُ، فكانَ عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنهما أولَ مَنْ دخلَ البيتَ، فوجدَ بلالاً وراءَ البابِ قائماً.

(١) أي: حَلَقٌ يتقنَّع بها المُتسلِّح.

(٢) أي: سهامٌ كانوا يستقسمون بها في الجاهلية.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨١.

(٤) سورة سبأ: الآية ٤٩.

فقال عبدُ الله : فسألتُ بلالاً : أينَ صلَّى رسولُ الله ﷺ؟

فأشار بلالٌ لَهُ إلى المكانِ الذي صلَّى فيه رسولُ الله ﷺ.

قال عبدُ الله : ونسيت أنْ أسألَهُ كمْ صلَّى مِنْ سجدةٍ.

فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ مِنْ طوافِهِ أتَى الصفا؛ فعلا عليه حتَّى نظرَ إلى البيتِ، ثم رفعَ يديهِ؛ فجعلَ يحمد اللهَ ويدعُو بما شاءَ أنْ يدعُو.

* * *

خطبـة الفتـح :

ثم قامَ رسولُ الله ﷺ خطيباً بعد أن فتحَ الله تعالى مكة على الناس، فأوضح لأهلها حرمتها حتى لا يقع في قلوبهم من ذلك شكٌّ ولا التباس.

قال أبو شريحِ العدويُّ رضي الله عنه: أحدِّثُكُمْ قولاً قامَ بِهِ رسولُ الله ﷺ الغَدَ مِنْ يَومِ الفتحِ، سَمِعَتْهُ أذُنَايَ، ووَعَاهُ قلبِـي، وأبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حينَ تكلَّم بِهِ.

إنَّهُ حَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثُمَّ قالَ: إنَّ مكةَ حرَّمَها اللهُ، ولمْ يُحْرِّمْهَا النَّاسُ.

لا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ أَنْ يَسْفِكَ بها دماً ولا يَعْضُدَ بها شجراً، فإنْ أحدٌ ترخَّصَ؛ لقتالِ رسولِ الله ﷺ فيها؛ فقولُوا لَهُ: إنَّ اللهَ أذِنَ لرسولِهِ ولَمْ يَأذَنْ لكم، وإنَّما أذِنَ لِـي فيها ساعةً مِنْ نَهارٍ، وقَدْ عادتْ حُرْمَتُها اليومَ كحُرْمَتِها بالأمسِ، وليُبَلِّغُ الشاهدُ الغائبَ.

وقالَ رسولُ الله ﷺ يومَ فتح مكةَ وهُوَ على درَج الكعبةِ: الحمدُ لله الذي صدقَ وعدَهُ، ونصرَ عبدَهُ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ، ألا إنَّ قتيلَ العمدِ الخطأ بالسوطِ أو العَصَا فيهِ مائة مِنَ الإبل، ألا إنَّ كُلَّ مَأثَرَةٍ[١] كانَتْ فِـي الجاهليةِ ودمٍ

---

(١) أي: مكرمة.

ومالٍ تحتَ قدميَّ هاتينِ، إلاَّ مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الحاجِّ وسِدَانَةِ البيتِ، فإنِّي أمْضِيهُمَا لأهلِهِمَا عَلَى مَا كَانَتْ.

وقامَ رسولُ الله ﷺ يومَ الفتحِ فقالَ: إن الله حرَّمَ مكةَ يومَ خلقَ السماواتِ والأرضَ، فهيَ حرامٌ بحرامِ الله إلى يوم القيامةِ، لَمْ تَحِلَّ لأحدٍ قبلِي ولا تحلُّ لأحدٍ بعدِي، ولَمْ تحلُلْ لِي إلاَّ ساعةً مِنَ الدَّهرِ، لا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، ولا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، ولا يُخْتَلَى خَلاهَا، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إلاَّ لمُنْشِدٍ.

فقال العباسُ بنُ عبدِ المطلبِ رضي الله عنه: إلاَّ الإِذْخِرَ[١] يَا رسولَ الله، فإنَّه لا بُدَّ مِنْهُ لِلْقَيْنِ[٢] والبيوتِ.

فسكتَ رسولُ الله ﷺ ثُمَّ قالَ: إلاَّ الإِذْخِرَ، فإنَّهُ حلالٌ.

* * *

تسابقُ الناس والقبائل للإسلام بعد الفتح:

قال عمرُو بنُ سلمةَ: كُنَّا بماءِ مَمَرِّ الناسِ، وكانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكبانُ فنَسْأَلُهُمْ: مَا للناسِ؟ مَا للناسِ؟ مَا هذا الرجلُ؟

فيقولونَ: يزعمْ أنَّ اللهَ أرسلَهُ وأوحَى إليهِ.

فكنتُ أحفظُ ذلكَ الكلامَ، وكأنَّمَا يَقرّ فِي صَدْرِي، وكانَت العربُ تَلَوَّمُ[٣] بإسلامِهِمْ الفَتْحَ، فيقولونَ: اتركُوهُ وقومَهُ، فإنَّهُ إنْ ظَهرَ عليهمْ فهُوَ نَبيٌّ صادقٌ.

---

(١) أي: النبت المعروف عند أهل مكة، وهو طيب الريح.

(٢) أي: الحدَّادَ والصائغ.

(٣) أي: تنتظر.

فلمَّا كانتْ وقعةُ أهلِ الفتحِ بادرَ كلُّ قومٍ بإسلامِهِمْ، وبَدَرَ أبِـي قَوْمِـي بإسلامِهِمْ.

فلمَّا قَدِمَ قالَ: جئتُكُمْ واللهِ مِنَ النَّبِـيِّ ﷺ حقّاً، فقال: صلُّوا صلاةَ كذا فِـي حينِ كذا، وصلُّوا كذا فِـي حينِ كذا، فإذا حَضَرَت الصلاةُ فليُؤذِّنْ أحدُكُمْ؛ وليَؤُمَّكَمْ أكثرُكُمْ قرآناً.

قال عمرو: فنظرُوا فلَمْ يَكُنْ أحدٌ أكثرَ قرآناً مِنِّي؛ لِمَا كُنتُ أتلقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فقدَّمُونِـي بينَ أيديهِم وأنا ابنُ ستٍ أو سبعِ سنينَ.

وكانَتْ عليَّ بردةٌ، كنتُ إذا سجدتُ: تقلَّصَتْ عنِّي؛ فقالت امرأةٌ مِنَ الحيِّ: ألا تُغَطُّونَ عنَّا اسْتَ قارئِكُمْ؟

فاشترَوا، فقَطَعُوا لِـي قميصاً، فمَا فرحتُ بشيءٍ فرحِـي بذلكَ القميص.

* * *

وقدْ سرقَت امرأةٌ فِـي عهد رسولِ اللهِ ﷺ فِـي غزوةِ الفتحِ، فَفَزِعَ قومُها إلى أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما يَسْتَشْفِعُونَهُ.

فلمَّا كلَّمَ أسامةُ فيها رسولَ اللهِ ﷺ تَلَوَّنَ وجهُهُ، فقالَ: أَتُكَلِّمُنِـي فِـي حدٍّ مِنْ حدودِ اللهِ؟!

فقالَ أسامةُ: استغفِرْ لِـي يا رسولَ اللهِ.

فلمَّا كانَ العَشِـيُّ قامَ رسولُ اللهِ ﷺ خطيباً، فأثنَى على اللهِ بمَا هُوَ أهلُهُ، ثُمَّ قالَ:

أمَّا بعدُ؛ فإنَّمَا أهلكَ الناسَ قبلَكُمْ أنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشريفُ تركُوهُ، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيفُ أقامُوا عليهِ الحدَّ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ مُحمَّدٍ سَرَقَتْ لقطعتُ يدَهَا.

ثُمَّ أمَرَ رسولُ الله ﷺ بتلكَ المرأةِ فقُطِعَتْ يدُها.

قالت عائشةُ رضي الله عنها: فحَسُنَتْ توبَتُها بعدَ ذلكَ وتزوَّجَتْ، فكانَتْ تأتِـي بعدَ ذلكَ فأرفَعُ حاجَتَها إلى رسولِ الله ﷺ.

* * *

وقدْ أمَّنَ رسولُ الله ﷺ يومَ فتحِ مكةَ الناسَ إلاَّ أربعةَ نفرٍ وامرأتين.

وكـانَ مِمَّـنْ أهـدرَ رسـولُ الله ﷺ دمَـهُ: ابـنُ خَطَـلٍ، فحيـنَ أنـاخَ رسولُ الله ﷺ فِـي المسجدِ، ونزعَ مِغْفَرَهُ جاءَهُ رجلٌ فقال: إنَّ ابنَ خَطَلٍ متعلقٌ بأستارِ الكعبةِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: اقْتُلْهُ.

وكانَ مِمَّن أهدرَ رسولُ الله ﷺ دمَهُ: عبدُ الله بنُ أبِـي سَرْحٍ، فجاءَ فاختبأ عندَ عثمانَ بنِ عفانٍ رضي الله عنه ـــ وكانَ عبدُ الله أخَا عثمانَ مِنَ الرَّضَاعَةِ ـــ ، فلمَّا دعَا رسولُ الله ﷺ الناسَ إلى البيعةِ جاءَ عثمانُ بعبدِ الله حتَّى أوقَفَهُ عَلَى رسولِ الله ﷺ، فقالَ عثمانُ: يَا نبـيَّ الله؛ بايعْ عبدَ الله.

فرفعَ رسولُ الله ﷺ رأسَهُ فنظَرَ إليهِ ثلاثاً، كلُّ ذلك يأبَـى، فبايَعَهُ بعدَ ثلاثٍ، ثُمَّ أقبلَ رسولُ الله ﷺ على أصحابه، فقالَ: أمَا رجلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآنِـي كففتُ يدِي عَنْ بيعتِهِ فيَقْتُلُهُ!!

فقالَ الصحابةُ رضي الله عنهم: مَا ندرِي يَا رسولَ الله مَا فِـي نفسِكَ، ألا أوْمَأْتَ إلينَا بعَيْنِكَ!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّهُ لا ينبغِـي لنبـيٍّ أنْ تكونَ لَهُ خائنةُ الأعينِ.

* * *

وقـدْ اغتسـلَ رسـولُ الله ﷺ يـومَ فتـحِ مكـةَ فِـي بيـتِ أمِّ هـانـىءٍ بنـتِ أبـي طالبٍ رضي الله عنها، وفاطمةُ ابنتُه رضي الله عنها تَسْتُرُهُ بثوبٍ، فسلَّمَتْ عليه أمُّ هانىءٍ.

فقال رسولُ الله ﷺ: مَنْ هذه؟

فقالتْ: أمُّ هانِىء بنتُ أبـي طالب.

فقال رسولُ الله ﷺ: مرحباً بأمِّ هانىءٍ.

فلمَّا فرغ مِنْ غُسلِهِ قامَ فصلَّى ثَمَانِـيَ ركعاتٍ ـ وكانَ ذلكَ ضُحًى ـ، مُلتحفاً فِـي ثوبٍ واحدٍ.

فقالتْ أمُّ هانىءٍ: لَمْ أرَهُ صلَّى صلاةً أخفَّ، إنَّهُ يُتِمُّ الركوعَ والسجودَ.

فلمَّا انصرفَ قلتُ: يَا رسولَ الله؛ زعمَ ابنُ أمِّي عليُّ بنُ أبـي طالبٍ رضي الله عنه: أنَّهُ قاتلٌ رجلاً أجَرْتُهُ؛ فلانَ بنَ هُبَيْرَةَ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: قَدْ أجَرْنَا مَنْ أجَرْتِ يَا أمَّ هانىءٍ.

وقَدْ أقامَ النَّبـيُّ ﷺ بمكةَ يومَ الفتحِ تسعةَ عشرَ يوماً، يقصرُ الصلاةَ فيُصَلِّيها ركعتين.

* * *



الغزوات بعد الفتح

بعد أن فتح الله تعالى على رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلده الحرام؛ بعث رسول الله ﷺ أصحابه لدعوة القبائل والفئام.

فبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جذيمة؛ فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل من الصحابة رضي الله عنهم أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كل رجل منهم أسيره، فقال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره.

فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا له ذلك، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: اللَّـٰهُمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد، اللَّـٰهُمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد.

* * *

يوم حنين «هوازن وغطفان»:

ولما كان يوم حنين: جمعت هوازن وغطفان لرسول الله ﷺ جمعاً كثيراً، فجاؤوا بالصبيان والنساء والإبل والنعم فجعلوهم صفوفاً، يكثرون على رسول الله ﷺ؛ فجعلوهم خلف ظهورهم.

وكان رسول الله ﷺ في عشرة آلاف أو أكثر، ومعه الطلقاء[1]، ولزم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يوم حنين رسول الله ﷺ هو وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه فلم يفارقاه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي.

فحمل المسلمون يومئذ على المشركين فانكشفوا، فأكبَّ المسلمون على الغنائم، فاستقبلتهم هوازن بالسهام، وكانوا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوا المسلمين رشقاً ما يكادون يخطئون.

فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[2].

وثبت مع رسول الله ﷺ ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فنكصوا على أقدامهم نحواً من ثمانين قدماً ولم يولوا الدبر، وهم الذين أنزل الله عزَّ وجلَّ عليهم السكينة.

فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، والعباس آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ يكفها إرادةَ أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، وكان الصحابة والله إذا احمرَّ البأس اتقوا بالنبي ﷺ، وإن الشجاع منهم للذي يُحاذي به.

فنزل رسول الله ﷺ، ودعا واستنصر، وقال:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابن عبد المطَّلِبْ؛ اللّٰهُمَّ نزِّل نصرك.

---

(١) أي: من أسلم من أهل مكة يوم الفتح.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٥.

ثم قال رسول الله ﷺ: أي عباس؛ ناد أصحاب السمرة.

فقال العباس بأعلى صوته ــ وكان رجلاً صيتاً ــ : أين أصحاب السمرة؟

فوالله؛ لكأنه عطفهم حين سمعوا صوته عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك؛ يا لبيك.

فقال: فاقتتلوا والكفار.

والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار؛ يا معشر الأنصار.

ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج؛ يا بني الحارث بن الخزرج.

فنزل النبي ﷺ وقال: إني عبد الله ورسوله.

ونادى يومئذ نداءين لم يُخلط بينهم كلامٌ، فالتفت عن يمينه، فقال: أي معشر الأنصار.

فقالوا: لبيكَ يا رسول الله، امش؛ نحن معك.

ثم التفت النبي ﷺ عن يساره، فقال: أي معشر الأنصار.

فقالوا: لبيك يا رسول الله، نحن معك.

وكان من دعاء النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ إن شئت أن لا تُعبد بعد اليوم...

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: هذا حين حَمِـيَ الوطيس(١).

فبينما رسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدُماً إذ حادت به بغلته؛ فمال عن السرج، فقال له عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ارتفع رفعك الله.

---

(١) أي: التنور، ضُرِبَ به المثل لشدة الحرب التي يُشبَّه حرُّها بحرِّه.

فقال له رسول الله ﷺ: ناولني كفّاً من تراب.

ثم استقبل به رسول الله ﷺ وجوه القوم، فقال: شاهت الوجوه.

فما خلق الله منهم إنساناً إلاَّ ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة.

ثم قال رسول الله ﷺ: أين المهاجرون والأنصار؟

فقال عبد الله بن مسعود: هم أولاء.

فقال رسول الله ﷺ: اهتف بهم.

فهتف بهم عبد الله بن مسعود، فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب.

ومر رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناس، فأفرجوا له، فقال رسول الله ﷺ: ما كانت هذه تقاتل فيمن يُقاتل.

ثم قال رسول الله ﷺ لرجل: انطلق إلى خالد بن الوليد، فقل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً[١].

وكان في المشركين رجل يحمل على المسلمين فيدقهم ويحطهم، فلما رأى ذلك نبي الله ﷺ نزل، فهزمهم الله عزَّ وجلَّ، وولى المشركون أدبارهم، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.

فقام نبي الله ﷺ حين رأى الفتح.

فجعل يُجاء بهم أسارى رجلاً رجلاً، فيبايعونه على الإسلام.

فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: إن عليَّ نذراً لئن جيء بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه، فسكت نبي الله ﷺ، وجيء

---

(١) أي: الشيخ الفاني.

بالرجل، فلما رأى نبي الله ﷺ قال: يا نبي الله؛ تبت إلى الله، يا نبي الله؛ تبت إلى الله.

فأمسك نبي الله ﷺ فلم يبايعه ليوفي الصحابي نذره، فجعل الصحابي ينظر النبيَّ ﷺ ليأمره بقتله، وجعل يهاب نبي الله ﷺ أن يقتله، فلما رأى نبي الله ﷺ أن صاحبه لا يصنع شيئاً بايع الرجل.

فقال الصحابي: يا نبي الله نذري؟

فقال النبي ﷺ: لم أمسك عنه منذ اليوم إلاَّ لتوفي نذرك!

فقال الصحابي: يا نبي الله؛ ألا أومضْتَ إليَّ[1]؟

فقال النبي ﷺ: إنه ليس لنبي أن يُومض.

* * *

وأصاب المسلمون يومئذ من الغنائم، فأعطى النبي ﷺ الطلقاء وقسم فيها، فقالت الأنصار: ندعى عند الكَرَّة؛ وتُقسم الغنيمة لغيرنا!

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فجمعهم وقعد في قبة فقال: أي معشر الأنصار؛ ما حديث بلغني عنكم؟

فسكت الأنصار.

ثم قال النبي ﷺ: يا معشر الأنصار؛ لو أن الناس سلكوا وادياً، وسلكت الأنصار شعباً لأخذت شعب الأنصار، أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا؛ وتذهبون برسول الله ﷺ تحوزونه إلى بيوتكم؟

فقال الأنصار: رضينا يا رسول الله؛ رضينا.

* * *

---

(١) أي: أشرت إليَّ بعينك.

قدوم وفد هوازن مسلمين :

ثم جاء رسولَ الله ﷺ وفدُ هوازن مسلمين ، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : معي من ترون ، وأحب الحديث إليَّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبي وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم .

وكان رسول الله ﷺ قد أنظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ، فلما تبين لهم أن رسول الله غير رادٍّ إليهم إلاَّ إحدى الطائفتين ، قالوا : فإنا نختار سبينا .

فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ؛ إخوانكم قد جاؤونا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل .

فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ؛ ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .

فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

* * *

غـزوة أوطـاس :

لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر عبيد بن سليم الأشعري رضي الله عنه على جيش إلى أوطاس ، فلقي دريد بن الصمة ، فقُتِلَ دريدٌ ؛ وهزم الله أصحابه .

ورُمِـيَ أبو عامر في ركبته، رماه رجل من بني جُشَم بسهم فأثبته في ركبته، فانتهى إليه ابن أخيه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه. فقال له: يا عم؛ من رماك؟

فأشار أبو عامر إلى أبـي موسى فقال: إن ذاك قاتلي، تراه؟ ذلك الذي رماني.

قال أبو موسى: فقصدت له فاعتمدته فلحقته، فلما رآني ولَّى عني ذاهباً، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحيـي؟ ألست عربيّاً؟ ألا تثبت؟

فكـفَّ الـرجـل، فـالتقيـت أنـا وهـو، فـاختلفنـا أنـا وهـو ضـربتيـن، فضـربتـه بـالسيـف فقتلتـه، ثـم رجعـت إلـى أبـي عـامـر، فقلـت: إن الله قـد قتل صاحبك.

فقال أبو عامر: فانزع هذا السهم.

فنـزعـه أبـو مـوسـى، فنـزا منـه المـاء، فقـال أبـو عـامـر: يـا ابـن أخـي؛ انطلـق إلى رسـول الله ﷺ فأقرئه منـي السلام، وقـل لـه: يقول لك أبو عامر: استغفر لي.

واستعمل أبو عامر أبا موسى على الناس، ومكث يسيراً ثم مات.

قال أبو موسى: فلما رجعت إلى النبـي ﷺ دخلت عليه وهو في بيت على سرير مُرْمل[١]، وعليه فراش وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبـي عامر، وقلتُ له قولَ أبـي عامر: قل له: يستغفر لي.

---

(١) أي: معمول بالرمال، وهي حبال الحصر التي تُضفَّر بها الأسرَّة.

فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ به، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: اللَّـٰهُمَّ اغفر لعبيدٍ أبـي عامر، اللَّـٰهُمَّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك.

فقال أبو موسى: ولِـيَ يا رسول الله فاستغفر.

فقال النبـي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً.





غزوة الطائف

لمَّا امتنَّ الربُّ جلَّ جلالُهُ على رسولِهِ ﷺ بفتحِ حنينٍ وهزمَهُمُ اللهُ تعالى؛ قبضَ رسولُ الله ﷺ أموالَهُمْ ثُمَّ انطلق بها إلى الطائفِ، وكانَ ذلكَ في شوالٍ سنةَ ثمانٍ، فحاصرَ رسولُ الله ﷺ حصنَ الطائف.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ لأصحابِهِ: مَنْ بَلَغَ بسهمٍ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ فلهُ درجةٌ في الجنةِ، ومَنْ رمَى بسهمٍ في سبيل الله عزَّ وجلَّ فهو لهُ عِدلُ مُحرَّرٍ، ومن أصابَهُ شيبٌ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ فهو له نورٌ يومَ القيامةِ، وأيُّما رجلٍ أعتقَ رجلاً مسلماً جعلَ اللهُ وقاءَ كلِّ عظمٍ من عظامِهِ عظماً مِنْ عظامِ مُحرَّرِهِ مِنَ النارِ، وأيُّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتْ امرأةً مسلمةً، فإن الله عزَّ وجلَّ جاعلٌ وقاءَ كلِّ عظمٍ مِنْ عظامها عظماً مِنْ عظامِ مُحرِّرِها مِنَ النار.

فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ بعدَ أربعينَ ليلةٍ أنَّه لمْ يَنَلْ مِنْ أهلِ الطائفِ شيئاً؛ قالَ لأصحابِهِ: إنَّا قافلونَ إنْ شاءَ اللهُ.

فقالَ أصحابُهُ: نرجعُ ولم نَفْتَتِحْهُ؟

فقالَ لهمْ رسولُ الله ﷺ: اغدُوا على القتالِ، فغَدَوْا عليه، فأصابَهُمْ جِراحٌ.

فقالَ لهُمْ رسولُ الله ﷺ: إنَّا قافلونَ غداً.

فأعجَبَهُمْ ذلكَ، فضحكَ رسولُ الله ﷺ.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يُعتِقُ مَنْ جاءَهُ مِنْ عَبيدِ أهلِ الطائفِ إذا أسلمُوا قبلَ مواليِهم، فأعتقَ يومَ الطائفِ رجلين، أحدُهُما: أبو بكرةَ الثقفيُّ، وكانَ ثالثَ ثلاثةٍ وعشرينَ مِمَّنْ أسلمُوا، وكانَ قَدْ تَسوَّرَ حِصنَ الطائفِ، فسألَ مواليِه رسولَ الله ﷺ أنْ يَردَّ إليهِمْ أبَا بكرةَ، فأبى رسولُ الله ﷺ، وقالَ: هُوَ طليقُ الله، وطليقُ رسولِه.

* * *

عمرته ﷺ من الجعرانة:

ثمَّ رجعَ رسولُ الله ﷺ مِنَ الطائفِ، ونزلَ بالجِعرَّانَةِ بينَ مكةَ والمدينةِ، فبينما رسولُ الله ﷺ ومعهُ بلالُ بنُ أبِي رباحٍ وأبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنهما؛ إذ أتاهُ أعرابيٌّ فقالَ: ألا تُنْجِزُ لِي مَا وعدتَنِي؟

فقالَ له النبيُّ ﷺ: أبْشِرْ.

فقالَ الأعرابيُّ: قدْ أكثرتَ عليَّ مِنْ أبْشِرْ.

فأقبلَ النبيُّ ﷺ على بلالٍ وأبي موسى كهيئةِ الغضبانِ، فقالَ: رَدَّ البُشرى، فاقبلا أنتما.

فقالا: قبلنا.

ثم دعا النبيُّ ﷺ بقدحٍ فيهِ ماءٌ فغسلَ يديهِ ووجهَهُ فيهِ ومجَّ[١] فيهِ، ثمَّ قالَ: اشربَا منهُ، وأفرِغَا على وجوهِكُمَا ونحورِكُمَا وأبْشِرَا.

فأخذَا القدحَ ففعَلا.

---

(١) أي: لفظ ورمى.

فنادَتْ أمُّ سلمةَ رضي الله عنهما مِنْ وراءِ السِّتْرِ: أنْ أفضِلا لأمِّكُمَا.

فأفْضَلا لهَا مِنْهُ طائفةً.

وبينما النَّبيُّ ﷺ بالجِعرَّانة وعليهِ ثوبٌ قدْ أُظِلَّ بِهِ، ومعَهُ ناسٌ مِنْ أصحابِهِ؛ إذْ جاءَهُ أعرابيٌّ عليهِ جبةٌ مُتضَمِّخٌ بطيبٍ، فقال: يا رسولَ الله؛ كيف تَرَى في رجلٍ أحرمَ بعمرةٍ في جُبةٍ بعدَما تَضَمَّخَ بالطيبِ؟

فإذا النبيُّ ﷺ مُحْمَرُّ الوجِ يَغِطُّ كذلِكَ ساعةً ثُمَّ سُرِّيَ عنهُ(١)، فقالَ النبيُّ ﷺ: أينَ الذي يسألُني عن العمرةِ آنفاً؟

فالتُمِسَ الرجلُ فأتِي بِهِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: أما الطيبُ الذي بك فاغْسِلْهُ ثلاثَ مراتٍ، وأما الجبةُ فانْزِعْها، ثُمَّ اصْنَعْ فِي عمرَتِكَ كما تصنعُ فِي حَجِّكَ.

وسألَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ وهو بالجِعرَّانة، فقالَ: يا رسولَ الله؛ إني نذرتُ في الجاهليةِ أنْ أعتكفَ يوماً في المسجدِ الحرامِ، فكيفَ ترَى؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: اذهبْ فاعتكفْ يوماً.

وكانَ رسولُ الله ﷺ قدْ أعطَى عمرَ جاريةً مِنَ الخُمسِ، فلمَّا أعتقَ رسولُ الله ﷺ سبايا الناسِ سمعَ عمرُ بنُ الخطابِ أصواتَهُمْ يقولونَ: أعتقنَا رسولُ الله ﷺ.

فقالَ عمرُ: ما هذا؟

فقالوا: أعتقَ رسولُ الله ﷺ سبايا الناسِ.

---

(١) أي: انفصم عنه الوحي.

فقال عمرُ لابنِهِ عبدِ الله: يا عبدَ الله؛ اذهبْ إلى تلكَ الجاريةِ فخلِّ سبيلَها.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يومَ حنينٍ قدْ آثَرَ أُناساً في القِسمةِ، فأعطَى الأقرعَ بنَ حابسٍ مائةً من الإِبلِ، وأعطى عيينةَ بن حصنٍ مثلَ ذلكَ، وأعطى أناساً مِنْ أشرافِ العربِ، فآثَرَهُمْ يومئذٍ في القِسمة!

فقال رجلٌ: والله إنَّ هذه القسمةَ ما عُدِلَ فيها، وما أُريدَ بها وجهُ الله.

فقالَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: والله لأُخبرنَّ النبـيَّ ﷺ، فأتيتُه فأخبرتُه.

فقـالَ رسـول الله ﷺ: فمَـنْ يعـدل إذا لـم يعـدِلِ اللهُ ورسـولُـهُ؟ رَحِـمَ اللهُ موسى، قدْ أُوذِيَ بأكثرَ مِنْ هذا فصَبَرَ.

وبينَـا النبــيُّ ﷺ يَقْسِـمَ قَسَمـاً إذْ قـالَ ذو الخـويصـرةِ ــ رجـلٌ مِـنْ بنِــي تميمٍ ــ: يا رسولَ الله؛ اعْدِلْ!

فقالَ النبـيُّ ﷺ: ويلكَ؛ مَنْ يعدل إذا لمْ أعدل؟!

فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: ائْذَنْ لِـي؛ فلأَضْرِبَ عُنُقَهُ.

فقالَ النبـي ﷺ: لا، إنَّ لَهُ أصحاباً، يَحْقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهِم؛ وصيامَه مع صيامِهم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّين كمروقِ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ.

وبينَـا النبــيُّ ﷺ يمشِـي وعليـه بُـرْدٌ نجـرانـيٌّ غليـظُ الحـاشيـةِ؛ إذْ أدركَـه أعرابـيٌّ فجذَبَهُ جذبةً شديدةً.

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: نظرتُ إلى صفحةِ عاتقِ النبـيِّ ﷺ قدْ أثَّرَتْ بِهِ حاشيةُ الرداء مِنْ شدَّةِ جَذبتِهِ.

ثُمَّ قال الأعرابيُّ: مُرْ لِي مِنْ مالِ الله الذي عندَكَ.

فالتفتَ إليهِ النبيُّ ﷺ فضَحِكَ، ثُمَّ أمَرَ لَهُ بعطاءٍ.

وبينَا رسولُ الله ﷺ يسيرُ ومعَهُ الناسُ، إذْ عَلَقَهُ الناسُ يسألونَهُ حتى اضطروه إلى سَمُرَةٍ[1]، فخطفت رداءَ النبيِّ ﷺ! فوقفَ فقالَ: أعطُونِي ردائِي، لوْ كانَ لِي عددَ هذهِ العضاه[2] نعماً لقسمتُه بينكُمْ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً.

وقدْ أعطَى رسولُ الله ﷺ يومئذٍ صفوانَ بنَ أُميَّةَ مِائةً مِنَ النَّعَمِ، ثم مائةً، ثم مائةً.

فقالَ صفوانُ: والله لقدْ أعطانِي رسولُ الله ﷺ مَا أعطانِي وإنَّهُ لأبغضُ الناسِ إليَّ، فما برحَ يُعطينِي حتى إنَّه لأحبُّ الناسِ إليَّ.

وقدْ قسمَ رسولُ الله ﷺ تلكَ العطايا في قريشٍ وقبائلِ العربِ، ولمْ يكنْ في الأنصارِ منها شيءٌ، فوجدَ هذا الحيُّ مِنَ الأنصارِ في أنفسِهِم حتَّى كثُرَتْ فيهم القالةُ، حتَّى قالَ قائِلُهُم: لَقِيَ رسولُ الله ﷺ قومَهُ!

فدخلَ على رسولِ الله ﷺ سعدُ بنُ عبادةَ رضي الله عنه فقال: يا رسولَ الله؛ إنَّ هذا الحيَّ قدْ وجدُوا عليكَ في أنفسِهِمْ لِمَا صنعتَ فِي هذا الفيءِ الذي أصبتَ، قسمتَ فِي قومِكَ، وأعطيتَ عطايا عِظاماً في قبائلِ العربِ، ولم يكنْ فِي هذا الحيِّ مِنَ الأنصار شيءٌ!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: فأينَ أنتَ مِنْ ذلكَ يا سعدُ؟

(١) أي: شجرة من شجر البوادي، صِغارٌ ورقُها، قصارٌ شوكها.
(٢) أي: عدد شجر البوادي.

فقالَ سعدٌ: يَا رسولَ الله؛ مَا أنا إلاَّ امرؤٌ مِنْ قومِـي، وما أنَا؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: فاجمعْ لي قومَكَ فِـي هذه الحظيرةِ.

فخرجَ سعدٌ؛ فجمعَ الناسَ في تلكَ الحظيرةِ، فجاءَ رجلٌ مِنَ المهاجرينَ فتركَهُمْ فدخلوا، وجاءَ آخرونَ فردَّهم، فلما اجتمعوا أتى سعدٌ رسولَ الله ﷺ، فقالَ: قد اجتمعَ لكَ هذا الحيُّ مِنَ الأنصارِ.

فأتاهم رسولُ الله ﷺ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ بالذي هُوَ لهُ أهلٌ، ثم قالَ: يا معشرَ الأنصارِ؛ مقالةٌ بلغتنِـي عنْكُم، وجِدَةٌ وجدتُمُوها في أنفسِكم؛ ألم آتِكُمْ ضُلالاً فهداكُم اللهُ؟ وعالةً فأغناكُم اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِكم؟

قالوا: بلِ اللهُ ورسولُهُ أمنُّ وأفضلُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: ألا تُجيبونَنِـي يا معشرَ الأنصارِ؟!

قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ الله؟ ولله ولرسولِهِ المنُّ والفضلُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أمَا والله، لو شِئتُم لقلتُم فلصَدَقْتُم وصُدِّقْتُم: أتيتَنَا مُكذَّباً فصدَّقناكَ، ومخذولاً فنصرناكَ، وطريداً فآويناكَ، وعائلاً فأغنيناكَ. أوَجَدْتُمْ في أنفسِكم يا معشرَ الأنصارِ في لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليُسلموا، وَوَكَلْتُكُمْ إلى إسلامِكُم؟ أفلا ترضونَ يَا معشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ، وتَرجعونَ برسولِ الله ﷺ في رحالِكُمْ؟

فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً مِنَ الأنصارِ، ولوْ سلَكَ الناسُ شِعباً وسلكت الأنصارُ شِعباً لسلكتُ شِعبَ الأنصارِ.

اللَّـهُمَّ ارحَمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصار.

---

(١) أي: النبتُ الناعمُ أول ما ينبتُ.

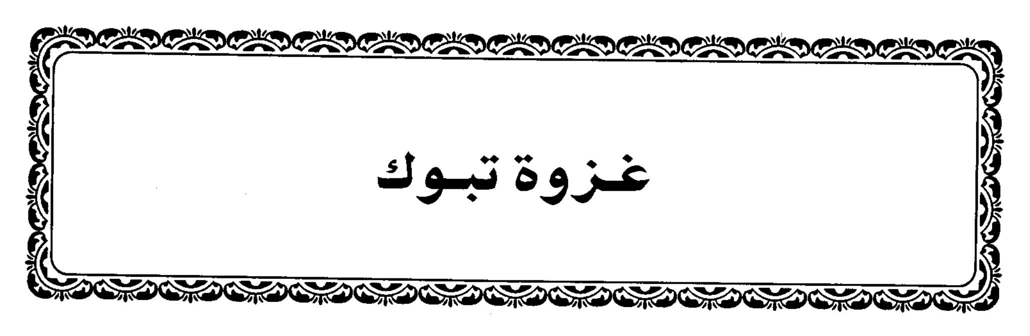
فبكَى القومُ حتَّى أخْضَلُوا لِحَاهُم، وقالوا: رضينَا برسولِ اللهِ قِسماً وحَظّاً.

ثُمَّ انصرفَ رسولُ الله ﷺ وتَفَرَّقُوا.

ثُمَّ توجَّهَ رسولُ الله ﷺ إلى مكةَ فاعتمرَ مِنَ الجِعرَّانةِ حينَ قسمَ غنائمَ حُنينٍ؛ وكان ذلكَ فِي ذي القَعدةِ، وقصَّرَ مُعاويةُ بنُ أبـي سفيانٍ رضي الله عنهما مِنْ رأسِ رسولِ الله ﷺ عندَ المروةِ بِمِشْقَصٍ(١).

* * *

(١) أي: بسهم فيه نصل عريض تُرمى به الوحش.



غزوة تبوك

لما غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك، وهو يريد الروم ونصارى العرب بالشام خلَّف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمدينة!

فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله؛ ما كنتُ أحبُّ أن تخرج وجهاً[١] إلَّا وأنا معك، أتخلفني في النساء والصبيان؟!

فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلَّا أنه لا نبي بعدي.

* * *

وكان رسول الله ﷺ يجمع الصلاة، فيصلي الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، فلما أن أصبح؛ صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الصبح.

ثم إن الناس ركبوا، فلما أن طلعت الشمس نعس الناس على إثر الدلجة[٢]، ولزم معاذ بن جبل رضي الله عنه رسول الله ﷺ يتلو أثره، والناس تفرقت بهم ركابهم على جواد الطريق[٣] تأكل وتسير.

---

(١) أي: جهة.

(٢) أي: السير من أول الليل.

(٣) أي: معظم الطريق.

فبينما معاذ على أثر رسول الله ﷺ ــ وناقته تأكل مرة وتسير أخرى ــ ، عثرت ناقة معاذ، فكبحها بالزمام، فهبت حتى نفرت منها ناقة رسول الله ﷺ، فكشف رسول الله ﷺ عنه قناعه، فالتفت فإذا ليس من الجيش رجل أدنى إليه من معاذ، فناداه رسول الله ﷺ فقال: يا معاذ.

فقال معاذ: لبيك يا نبي الله.

فقال رسول الله ﷺ: ادن دونك.

فدنا منه معاذ حتى لصقت راحلتاهما ــ إحداهما بالأخرى ــ .

فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أحسب الناس منا كمكانهم من البعد!

فقال معاذ: يا نبي الله، نعس الناس، فتفرقت بهم ركابهم ترتع وتسير.

فقال رسول الله ﷺ: وأنا كنت ناعساً.

فلما رأى معاذ بشرى رسول الله ﷺ إليه وخلوته له قال: يا رسول الله، ائذن لي أسألك عن كلمة قد أمرضتني وأسقمتني وأحزنتني.

فقال نبي الله ﷺ: سلني عما شئت.

فقال معاذ: يا نبي الله، حدثني بعمل يدخلني الجنة، لا أسألك عن شيء غيرها؟

فقال نبي الله ﷺ: بخٍ بخٍ بخٍ[1]، لقد سألت بعظيم، لقد سألت بعظيم، لقد سألت بعظيم، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير، وإنه ليسير على من أراد الله به الخير.

---

(١) كلمة تُقال عند الرضى والإعجاب بالشيء.

تؤمن بالله واليوم الآخِر، وتقيم الصلاة، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً، حتى تموت وأنت على ذلك.

فقال معاذ: يا نبـي الله، أَعِدْ لي.

فأعادها له ثلاث مرات.

فلم يحدثه رسول الله ﷺ بشيء إلاَّ أعاده عليه ثلاث مرات، حرصاً لكي ما يتقنه عنه.

ثم قال نبـي الله ﷺ: إن شئت حدثتك يا معاذ برأس الأمر وعموده وذروة سنامه.

فقال معاذ: بلى بأبـي وأمي أنت يا نبـي الله، فحدثني.

فقال نبـي الله ﷺ: أما رأس الأمر: فالإسلام، فمن أسلم سلم: أن تشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

وأما عموده: فإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

وأما ذروة سنامه: فالجهاد في سبيل الله، إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويشهدوا أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك؛ فقد اعتصموا، وعصموا دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها، وحسابهم على الله عزَّ وجلَّ.

أَوَلاَ أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقة وقيام العبد في جوف الليل يكفر الخطايا. وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

أَوَلاَ أدلك على أَمْلَكِ ذلك لك كله؟

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٦.

فقال معاذ: فأقبل نفر، فخشيت أن يشغلوا عني رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قولك: أَوَلَا أدلك على أملك ذلك لك كله؟!

فأشار رسول الله ﷺ بيده إلى لسانه.

فقال معاذ: يا رسول الله، وإنا لنؤاخذ بما نتكلم به؟

فقال رسول الله ﷺ: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلَّا حصائد ألسنتهم؟

* * *

وقد نزل رسول الله ﷺ بالناس الحِجْر، ثم بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل.

ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم.

وقد أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنا.

فقال رسول الله ﷺ: افعلوا.

فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله؛ إن فعلتَ قلَّ الظَّهْر[١]، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك.

---

(١) أي: الدواب، سميت ظهراً: لكونها يركب على ظهرها، أو لكونها يُستظهر بها ويُستعان على السفر.

فقال رسول الله ﷺ: نعم.

فدعا رسول الله ﷺ بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذُرَةٍ، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.

فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم.

فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلاَّ مَلَؤوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة.

فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إلـه إلاَّ الله، وأني رسول الله؛ لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة.

حتى إذا كان يومٌ قال رسول الله ﷺ: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي.

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، فكانت مثل الشِّراك تبض[1] بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: هل مَسِسْتُما من مائها شيئاً؟

فقالا: نعم.

فسبهما النبي ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر، حتى استسقى الناس.

---

(١) أي: تسيل.

ثم قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مُلِـىء جِنَاناً.

* * *

فلما قدم رسول الله ﷺ تبوك قال: سَتَهِبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله.

فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجَبَلَيْ طيء[١].

وقد ذهب رسول الله ﷺ لحاجته قبل صلاة الفجر، فذهب معه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بماء، فجاء رسول الله ﷺ، فسكب عليه ماء، فغسل وجهه، ثم ذهب يخرج يديه من كُمِّ جبته فلم يستطع من ضيق كُمِّ الجبة، فأخرجها من تحت جبته، فغسل يديه، ومسح برأسه، ومسح على الخفين، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بالمسح على الخفين: ثلاثة أيام للمسافر ولياليهن، وللمقيم يوم وليلة.

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: ثم أقبل رسول الله ﷺ فأقبلت معه، فوجدنا الناس قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف فصلَّى لهم، فذهبت لأؤذنه، وأردت تأخيره، فنهاني النبـي ﷺ، وقال: دعه.

فأدرك النبـي ﷺ إحدى الركعتين فصلَّى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن: قام رسول الله ﷺ يتم صلاته، فأفزع ذلك المسلمين، فأكثروا التسبيح.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته: أقبل عليهم، ثم قال: أحسنتم، يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها.

---

(١) أي: جبل أجأ وجبل سلمى، وهما جبلان في طي، وهو المكان الذي كانت القبيلة المذكورة تنزله، ويُقال: إنهما سُمِّيا باسم رجل وامرأة من العماليق.

وبينما رسول الله ﷺ في خباء من أدم[١]، جالس بفناء الخباء؛ إذ جاءه عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: ادخل يا عوف.

فقال عوف: بِكُلِّي يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: بِكُلِّكَ.

ثم قال رسول الله ﷺ: يا عوف، احفظ خِلالاً ستًّا بين يدي الساعة:

إحداهن: مَوْتي.

قال عوف: فوجمت[٢] عندها وجمة شديدة.

قال رسول الله ﷺ:

ثم فتح بيت المقدس.

ثم داء يستشهد الله به ذراريكم وأنفسكم، ويزكي به أعمالكم.

ثم تكون الأموال فيكم، حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً.

وفتنة تكون بينكم لا يبقى بيت مسلم إلاَّ دخلته.

ثم تكون بينكم وبين بني الأصفر[٣] هدنة فيغدرون بكم، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية[٤]، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً.

وقد خطب رسول الله ﷺ الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة، فقال: ما في الناس مثل رجلٍ آخذٍ بعنان فرسه، فيجاهد في سبيل الله، ويجتنب شرور الناس، ومثل رجلٍ بادٍ في غنمه، يقري ضيفه، ويؤدي حقه.

---

(١) أي: جِلْد.

(٢) أي: سكتُّ لشدة الحُزن.

(٣) أي: الروم، لأنهم أولاد الأصفر بن روم بن يعصور بن إسحاق.

(٤) أي: راية.

ألا أخبركم بخير الناس وشرِّ الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه، أو على ظهر بعيره، أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً، يقرأ كتاب الله ولا يدعو إلى شيء منه.

وقد قام رسول الله ﷺ من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه.

حتى إذا صلَّى وانصرف إليهم قال لهم: لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي:

أما أنا؛ فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه.

ونُصِرْتُ على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لمُلِىء منه رعباً.

وأُحِلَّتْ لي الغنائم آكلها، وكان مَنْ قبلي يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها.

وجُعِلَتْ لي الأرض مساجد وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسَّحْت وصلَّيْت، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبِيَعِهِ.

والخامسة هي ما هي، قيل لي: سل فإنَّ كل نبيٍّ قد سأل. فأخَّرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلاَّ الله.

* * *

وقال عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل.

قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فحلف عبد الله بن أُبَـيّ: ما قاله.

فلامني قومي، وقالوا: ما أردت إلاَّ هذه!!

قال زيد: فأتيت البيت ونمت كئيباً حزيناً، فأتاني النبي ﷺ فقال: إن الله قد صدقك.

فنزلت هذه الآية: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

وقد جهد بالظَّهْرِ[٢] جهداً شديداً، فشكى الناس إلى النبي ﷺ ما بظهرهم من الجهد؛ فتحين بهم مضيقاً، فسار النبي ﷺ فيه، فقال: مرُّوا بسم الله.

فمرَّ الناس عليه بظهرهم، فجعل ينفخ بظهرهم: اللَّـهُمَّ احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس، في البر والبحر.

فما بلغت المدينة حتى جعلت تنازع أصحابها أزمَّتها.

ومرَّ رسول الله ﷺ على جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وقد أعيى بعيره، فقال: ما شأنك يا جابر؟

فقال جابر: بعيري قد رزم[٣].

---

(١) سورة المنافقون: الآيتان ٧ ــ ٨.

(٢) أي: الإبل التي يحمل عليها ويركب.

(٣) أي: لا يقوم بسبب هزاله.

فأتاه رسول الله ﷺ من قِبَلِ عجزه؛ فدعا، وزجره؛ فلم يزل يقدم الإبل.

فأتى عليه، فقال: ما فعل البعير؟

قال جابر: ما زال يقدمها.

فقال رسول الله ﷺ: بكم أخذته؟

فقال جابر: بثلاثة عشر ديناراً.

فقال رسول الله ﷺ: فبعني بالثمن، ولك ظهره إلى المدينة.

فقال جابر: نعم.

قال: فلما قدمْتُ المدينةَ خطمْتُه، ثم أتيت به النبي ﷺ، فأعطاني الثمن، وأعطاني البعير.

ولما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد.

فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار؛ إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: قُدْ قُدْ، حتى هبط رسول الله ﷺ.

فلما هبط رسول الله ﷺ نزل، ورجع عمار، فقال رسول الله ﷺ: يا عمار، هل عرفت القوم؟

فقال عمار: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون.

فقال رسول الله ﷺ: هل تدري ما أرادوا؟

فقال عمار: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه.

فقال عمار: أشهد أنهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

فقال رسول الله ﷺ : إني مسرع، فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث.

فخرجوا حتى أشرفوا على المدينة، فقال رسول الله ﷺ: هذه طابة، وهذا أُحُدُ، هو جبل يحبنا ونحبه.

ثم قال رسول الله ﷺ: إن خير دور الأنصار دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير.

فأدركه أبو أسيد سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، خيرت دور الأنصار، فجعلتنا آخراً؟!

فقال رسول الله ﷺ: أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟!

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة قال: إن بالمدينة لقوماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم فيه.

قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟!

فقال رسول الله ﷺ: وهم بالمدينة، حبسهم العذر.

فلما قدم رسول الله ﷺ من تبوك: خرج الناس يتلقونه إلى ثنية الوداع.

وسأل الناسُ النبيَّ ﷺ ــ بعد رجوعهم من تبوك ــ عن الساعة؟

فقال رسول الله ﷺ: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم.

* * *

قصة كعب بن مالك رضي الله عنه والمخلفين:

وتأملوا حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أحد رجالات الأنصار، وهو يذكر ما حدث له إثر تخلفه عن غزوة تبوك؛ مما يوجب العظة والاعتبار.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: كان من خبري في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة.

فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً[١]، واستقبل عدوّاً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظٌ وهو الديوان، فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلاَّ يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله عزَّ وجلَّ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصْعَرُ[٢].

فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت.

فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً.

فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي.

---

(١) أي: فلاة لا ماء بها.

(٢) أي: أميل.

فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة، إلاَّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء!!

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟

قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله؛ حبسه برداه، والنظر في عطفيه[١].

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلاَّ خيراً.

فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك؛ رأى رجلاً مُبَيِّضاً[٢]، يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة.

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بَثِّي[٣]، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي.

فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه.

---

(١) أي: إعجابه بنفسه وملبسه.

(٢) أي: لابس البياض.

(٣) أي: شدة حزني.

وصَبَّحَ رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك؛ جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكَلَ سرائرهم إلى الله.

حتى جئت، فلما سلَّمت: تبسَّم رسول الله ﷺ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: تعال.

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه.

فقال لي رسول الله ﷺ: ما خلَّفَك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟![1].

فقلت: يا رسول الله، إني والله، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عقبى الله. والله؛ ما كان لي عذر، والله؛ ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضيَ الله فيك.

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا فلي: والله؛ ما علِمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجِزتَ أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك.

فوالله؛ ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ، فأكذِّب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟

---

(١) أي: اشتريت راحلة.

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت؛ فقيل لهما مثل ما قيل لك.

قلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي.

فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدراً، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتَنَبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا، وقَعَدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا؛ فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين؛ مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ، فسلَّمت عليه؛ فوالله، ما رد علي السلام. فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله؛ هل تعلمَنَّ أني أحب الله ورسوله؟

فسكت أبو قتادة، فعدت فناشدته؛ فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي، وتولَّيت حتى تسوَّرت الجدار.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام[١]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً؛ فقرأته، فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغنا أن صاحبك[٢] قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نُواسك.

فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتيممت[٣] بها التنور فسجرتها[٤] بها.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي[٥]؛ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها.

فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟

فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن لا يقربنك.

فقالت: إنه والله؛ ما به حركة إلى شيء، ووالله؛ ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

---

(١) أي: الفلاحون.

(٢) أي: النبي ﷺ.

(٣) أي: قصدت.

(٤) أي: فأحيمتها.

(٥) أي: أبطأ.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟

فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟

فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نُهي عن كلامنا.

ثم صلَّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عزَّ وجلَّ منا: قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[١]، يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بنَ مالك! أبشر.

فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء فرج.

فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض رجل إليَّ فَرَساً، وسعى ساعٍ مِنْ أسْلَمَ قِبَلي وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، ووالله؛ ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

فانطلقت أتأمم[٢] رسول الله ﷺ، يتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنؤوني بالتوبة، ويقولون: لتهنِئْكَ توبةُ الله عليك.

---

(١) أي: ينادي من فوق جبل سلع.

(٢) أي: أقصد.

حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني.

والله؛ ما قام رجل من المهاجرين غيره.

فكان كعب لا ينساها لطلحة.

فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك.

فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟

فقال رسول الله ﷺ: لا؛ بل من عند الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك.

فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله؛ إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: أمسك بعض مالك فهو خير لك.

فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

وقلت: يا رسول الله؛ إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلاَّ صدقاً ما بقيت.

فوالله؛ ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله؛ ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١].

والله؛ ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد.

قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢].

قال كعب: كنا خُلِّفْنا أيها الثلاثةُ عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[٣]، وليس الذي ذكر الله ــ مما خُلِّفْنَا ــ تخلُّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

* * *

(١) سورة التوبة: الآيات ١١٧ ــ ١١٩.

(٢) سورة التوبة: الآيتان ٩٥ ــ ٩٦.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٨.



عام الوفود

قد امتنَّ الربُّ جلَّ جلالُهُ على رسولِه ﷺ بجزيلِ عطاياه وخيراتِه، فبعد فتح مكةَ وغزوةِ تبوكٍ التي هِيَ آخِرُ غَزَوَاتِه؛ قَدِمَتْ عليه الوفودُ؛ ليُؤمنوا بهِ ويُعزِّرُوهُ ويَنْصُرُوه ويَتَّبِعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَهُ ويَكُونُوا مِنْ حُمَاتِهِ.

وفـد ثقيـف:

فقـدِمَ وفـدُ ثقيـفٍ علـى رسـولِ الله ﷺ، فـأنْـزَلَهُـمْ المَسْجِـدَ ليكـونَ أرقَّ لقلوبِهِم، فبايعوا رسولَ الله ﷺ واشترطوا عليهِ أنْ لا صدقةَ عليهم ولا جهادَ، فقال النبـيُّ ﷺ: سيتَصَدَّقُونَ ويُجاهِدُونَ إذا أسْلَمُوا.

وكانَ فِـي الوفدِ: عثمانُ بنُ أبـي العاصِ الثقفيُّ رضي الله عنه، فقال للنبـيِّ ﷺ: بِـي وجعٌ قدْ كَادَ يُهْلِكُنِـي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: امْسَحْهُ بيمينِكَ سبعَ مراتٍ، وقُلْ: أعوذُ بعزةِ الله وقُدرتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أجدُ.

قالَ عثمانُ: ففعلتُ ذلكَ؛ فأذهبَ اللهُ عزَّ وجلَّ ما كانَ بِـي، فلمْ أزلْ آمرُ بِهِ أهلي وغيرَهُمْ.

وقالَ عثمانُ بنُ أبـي العاصِ: يَا رسولَ الله؛ علِّمْنِـي القرآنَ، واجْعَلْنِـي إمامَ قومِـي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أنتَ إمامُهُمْ، واقتدِ بأضعفِهِمْ، واتخذْ مُؤذِّناً لا يَأخُذُ على أذانِهِ أجْراً.

وكانَ آخرُ مَا عَهِدَ إليَّ رسولُ الله ﷺ حين بعثَني إلى الطائفِ قولَهُ: يا عثمانُ؛ إذا أمَمْتَ قومَكَ فأخِفَّ بِهِمُ الصلاةَ، فإنَّهُ يَقومُ فيها الصغيرُ والكبيرُ والضعيفُ والمريضُ وذو الحاجةِ، فإذا صلَّيْتَ لنفسِكَ فصَلِّ كيفَ شِئْتَ، حتَّى وقَّتَ لي رسولُ الله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1].

وقَالَ رسولُ الله ﷺ لَهُمْ: الصِّيَامُ جُنَّةٌ كجُنَّةِ أحدِكُمْ مِنَ القِتَالِ، وصِيَامٌ حَسَنٌ: صيامُ ثلاثة أيامٍ مِنَ الشهرِ.

قالَ عثمانُ بنُ أبي العاصِ: لمَّا استعملَنِي رسولُ الله ﷺ على الطائفِ جعلَ يَعْرِضُ لِي شيءٌ فِي صلاتِي، حتَّى مَا أدْرِي مَا أُصَلِّي، فلمَّا رأيتُ ذلكَ رحلتُ إلى رسولِ الله ﷺ.

فقالَ: ابنَ أبي العاص؟

فقال عثمان: نعمْ يَا رسولَ الله.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَا جاءَ بكَ؟

فقال عثمان: يَا رسولَ الله؛ إنَّ الشيطانَ قدْ حالَ بينِي وبينَ صلاتِي؛ وقراءَتِي يُلَبِّسُهَا عليَّ، حتَّى مَا أدْرِي مَا أصلِّي.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: ذاكَ شيطانٌ يُقالُ لهُ خِنْزَبٌ، ادنُهُ.

قال عثمان: فدنوتُ مِنْهُ، فجَلَسْتُ على صدورِ قدمِي.

فضربَ رسولُ الله ﷺ صَدْرِي بيدِهِ، وتفلَ فِي فَمِي، وقالَ: اخرجْ عدُوَّ الله.

---

(١) سورة العلق: الآية ١.

ففعلَ ذلكَ رسولُ الله ﷺ ثلاث مرات، ثُمَّ قالَ: الحَقْ بعَمَلِكَ.

قَالَ عثمانُ: فلعَمْرِي مَا أحْسَبُهُ خالطَنِي بَعْدُ.

* * *

وفاة عبد الله بن أبَـيّ ابن سلول:

ولمَّا تُوُفِـيَ عبدُ الله بنُ أبـيِّ ابنِ سَلُولٍ جاءَ ابنُهُ عبدُ الله رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ، فسَألَهُ أنْ يُعْطِيَهُ قميصَهُ يُكَفِّنْ فيهِ أبَاهُ.

فأعطاهُ رسولُ الله ﷺ.

ثُمَّ سألَهُ أنْ يُصَلِّيَ عليهِ.

فلمَّا قامَ رسولُ الله ﷺ وثَبْتُ إليهِ ليُصَلِّيَ، فتَحَوَّلَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه حتَّى قامَ فِـي صَدْرِ رسولِ الله ﷺ، فقالَ: يَا رسولَ الله؛ أعَلَى عدوِّ الله عبدِ الله بنِ أبـيٍّ؛ وقَدْ قالَ يوماً: كذَا وكذَا وكذ؟! وعدَّدَ عليهِ قولَهُ.

فتبسَّـمَ رسـولُ الله ﷺ، فـأخـذَ عمـرُ بثـوبِ رسـولِ الله ﷺ، فقـالَ: يَـا رسولَ الله؛ أتُصَلِّي عليهِ وقدْ نَهَاكَ اللهُ أن تُصَلِّي عليهِ؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أخِّرْ عنِّي يَا عمرُ.

فلمَّـا أكثَـرَ عليـهِ عمـرُ: قـالَ رسـولُ الله ﷺ: إنَّمَـا خيَّـرَنِـي اللهُ فقـالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1].

وإنِّي خُيِّرْتُ فاخْتَرْتُ، لوْ أعْلَمُ أنِّي إنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ؛ لزِدْتُ عَلَيْهَا.

فقالَ عمرُ: إنَّهُ مُنافقٌ.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٠.

فصَلَّى عليهِ رسولُ الله ﷺ ثمَّ انصرفَ.

ثمَّ جاءَ رسولُ الله ﷺ إلى عبدِ الله بنِ أبـيٍّ بعدَمَا أُدْخِلَ حُفْرَتَهُ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ قَبْرِهِ فَوَضَعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ ريقِهِ وألْبَسَهُ قَميصَهُ.

وكانَ عبدُ الله بنُ أبـيٍّ كسَا عَبَّاساً قميصاً، فألبَسَ النبـيُّ ﷺ عبدَ الله قميصَهُ مُكافأةً لِمَا صَنَعَ يومَ بدرٍ؛ يَوْمَ أُتِـيَ بالأُسَارَى وَأُتِـيَ بالعباسِ، ولمْ يَكُنْ عليهِ ثوبٌ، فنظرَ النَّبِـيُّ ﷺ لهُ قميصاً، فوجَدُوا قميصَ عبدِ الله بنِ أبـيٍّ يُقْدَرُ عليهِ، فكسَاهُ النبـي ﷺ إيَّاهُ، فلذلِكَ نَزَعَ النبـيُّ ﷺ قميصَهُ الذي ألبَسَهُ، فكانَتْ لَهُ عِنْدَ النبـيِّ ﷺ يدٌ؛ فأحبَّ أنْ يُكافِئَهُ.

قالَ عمرُ: فعجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِـي على رسولِ الله ﷺ، واللهُ ورسولُهُ أعلمُ، فلمْ يَمْكُثْ رسولُ الله ﷺ إلاَّ يسيراً حتَّى نزلَتْ هاتانِ الآيتانِ مِنْ (براءةٍ)، فأنزلَ اللهُ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1].

فمَـا صلَّـى رسـولُ الله ﷺ بَعْـدَهُ علـى منـافـقٍ؛ ولا قـامَ علـى قبـرِهِ حتَّـى قَبَضَهُ اللهُ.

* * *

أمره ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بالحج:

أمَّرَ رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه في الحجةِ التِـي قَبْلَ حجةِ الوداعِ، ثُمَّ أردفَ رسولُ الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه، فأمَرَهُ أنْ يُؤَذِّنَ بسورةِ (براءةٍ).

فبينَا أبُو بكرٍ في بعضِ الطريقِ إذْ سَمِـعَ رُغَاءَ ناقةِ رسولِ الله ﷺ القَصْوَاءِ،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٤.

فخرجَ أبُو بكرٍ فَزِعَاً، فظنَّ أنَّهُ رسولُ الله ﷺ، فإذا هُوَ عَلِـيٌّ، فدَفَعَ عليٌّ إلى أبـي بكرٍ كتابَ رسولِ الله ﷺ.

فانطلقَا فحجَّا، فقامَ عليٌّ أيامَ التشريقِ فنادَى: ذمةُ الله ورسولِهِ بريئةٌ مِنْ كلِّ مُشركٍ، فسِيحُوا فِـي الأرضِ أربعةَ أشهرٍ، ولا يَحُجَنَّ بَعْدَ العامِ مُشركٌ، ولا يَطُوفَنَّ بالبيتِ عُرْيَانٌ، ولا يَدْخُلُ الجنةَ إلاَّ مُؤمنٌ.

وكانَ عليٌّ يُنادِي، فإذا عَيِـيَ[1] قامَ أبُو بكرٍ فنادَى بَها.

فنبَذَ أبُو بكرٍ إلى الناسِ في ذلكَ العامِ، فلمْ يَحُجَّ عامَ حجةِ الوداعِ الذي حجَّ فيهِ النبـيُّ ﷺ مُشْرِكٌ.

* * *

وفد بني تميم:

وقَدِمَ ركبٌ مِنْ بنِـي تميمٍ على النبـيِّ ﷺ، وفيهمُ الأقرعُ بنُ حابسٍ، فقالَ أبُو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه: يَا رسولَ الله؛ استعمِلْهُ على قومِهِ.

فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: لا تستعمِلْهُ يَا رسولَ الله.

فكاد الخَيِّرَانِ أنْ يَهْلِكَا، تكلَّما عندَ النبـيِّ ﷺ حتى ارتفعتْ أصواتُهُما، فقالَ أبُو بكرٍ: ما أردتَ إلاَّ خلافِـي؟

فقالَ عمرُ: ما أردتُ خلافَكَ!

فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ

---

(١) أي: عجز.

عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[١] .

فكانَ عمرُ إذا حدَّث النبيَّ ﷺ بحديثٍ بعدَ هذه الآيةِ حدَّثَهُ كأخِي السِّرَارِ لَمْ يُسْمِعْهُ؛ حتَّى يَسْتَفْهِمَهُ النبيُّ ﷺ .

* * *

ونادَى الأقرعُ بنُ حابسٍ رسولَ الله ﷺ مِنْ وراءِ الحُجُرَاتِ، فقالَ: يَا رسولَ الله .

فلَمْ يُجِبْهُ رسولُ الله ﷺ .

فقالَ الأقرعُ: يَا رسولَ الله؛ ألا إنَّ حَمْدِي زينٌ، وإنَّ ذمِّي شَيْنٌ .

فقالَ رسولُ الله ﷺ: ذاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[٢] .

* * *

قال عِمْرَانُ بنُ حُصينٍ رضي الله عنهما: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وعقلْتُ ناقتِي بالبابِ، فأتاهُ ناسٌ مِنْ بنِي تميمٍ، فقالَ النبيُّ ﷺ: اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بنِي تميمٍ .

قَالُوا: قدْ بشَّرْتَنَا فأعْطِنَا؛ قدْ بشَّرْتَنَا فأعْطِنَا .

ثُمَّ دخلَ عليهِ ناسٌ مِنْ أهلِ اليَمَنِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أهلَ اليمنِ؛ إذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بنُو تميمٍ .

قالُوا: قدْ قَبِلْنَا يَا رسولَ الله، جِئْنَاكَ نسألُكَ عَنْ هذا الأمرِ .

---

(١) سورة الحجرات: الآيات ١ ــ ٣ .

(٢) سورة الحجرات: الآية ٤ .

فقالَ النبـيُّ ﷺ: كانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ غيرُهُ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ، وكتبَ فِـي الذِّكْرِ كلَّ شيءٍ، وخلقَ السماواتِ والأرضَ.

قالَ عِمْرَانُ: فنادَى منادٍ: ذهبَتْ ناقتُكَ يَا ابنَ الحُصَينِ.

فانطلقتُ فإذا هِـيَ يقطعُ دونَها السَّرَابُ، وأيْمُ الله؛ لوَدِدْتُ أنَّهَا قَدْ ذهبَتْ ولَمْ أقُمْ.

* * *

وفد عبد القيس:

وأتَى وفدُ عبدِ القيسِ رسولَ الله ﷺ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَنِ الوَفْدُ؟

قالُوا: ربيعةُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَرْحَباً بالقومِ غيرَ خَزايَا ولا نَدَامَى.

فقالُوا: يَا رسولَ الله؛ إنَّا نأتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بعيدةٍ، وإنَّ بينَنَا وبينَكَ هذا الحيَّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرٍ، وإنَّا لا نستطيعُ أنْ نأتِيكَ إلاَّ فِـي شهرِ الحَرَامِ، فمُرْنَا بأمرٍ فَصْلٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وراءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الجنَّةَ.

وسَألُوهُ عَنِ الأشْرِبَةِ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: آمُرُكُمْ بأربعٍ؛ وأنهاكُمْ عَنْ أربعٍ: آمرُكُمْ بالإِيمانِ بالله وحدَهُ. وهلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمانُ بالله؟

قالُوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

فقـالَ رسـولُ الله ﷺ: شهـادةُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمـداً رسـولُ الله، وإقـامُ الصـلاةِ، وإيتـاءُ الـزكـاةِ، وصـومُ رمضـانَ، وأنْ تُعْطُـوا مِـنَ المَغْنَـمِ الخُمُس.

وأنهاكُـمْ عَـنِ الدُّبَـاءِ(١) والحَنْتَمِ(٢) والمُزَفَّتِ(٣) والنَّقيـرِ(٤). احْفَظُوهُنَّ وأخبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ.

فقالُوا: يَا نبـيَّ الله؛ مَا عِلْمُكَ بالنَّقيرِ؟!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: بَلَى، جذْعٌ تَنْقرُونَهُ فتَقْذِفُونَ فيهِ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ تَصُبُّونَ فيهِ مِنَ المَاءِ، حتَّى إذا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ، حتَّى إنَّ أحَدَكُمْ لَيَضْرِبُ ابنَ عمِّه بالسيفِ.

وفـي القـومُ رجـلٌ أصـابَتْـهُ جِـرَاحَـةٌ كـذلِـكَ، وكـانَ يخبـؤهـا حيـاءً مِنْ رسولِ الله ﷺ.

فقالُوا: فَفِيمَ نَشْرَبْ يَا رسولَ الله؟!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: في أسقيةِ الأدَمِ التي يُلاثُ على أفواهِهَا.

فقالُوا: يا رسولَ الله؛ إن أرْضَنَا كثيرةُ الجِرْذَانِ، ولا تَبْقَى بها أسقيةُ الأدَمِ.

فقـالَ رسـولُ الله ﷺ: وإنْ أكَلَتْهَـا الجِـرْذَانُ؛ وإنْ أكَلَتْهَـا الجِـرْذَانُ؛ وإنْ أكَلَتْهَا الجِرْذَانُ.

وكانَ وَفْدُ عبدِ القيسِ لَمَّا قَدِمُوا المدينةَ جعلُوا يتبادرونَ مِنْ رواحِلِهِمْ فيُقَبِّلُوا يَدَ النبـيِّ ﷺ.

---

(١) أي: القرع اليابس، كان يُنتبذ في وعائه ويُخمَّر.

(٢) أي: جرار خضر، كانت تُحمل فيها إلى المدينة الخمر.

(٣) أي: المطليُّ بالقار، وهو الزفت.

(٤) أي: جذع ينقر وسطه، وخُصَّت هذه الأوعية الأربع بالنهي: لأنه يُسرع إليها الإسكار.

وانْتَظَرَ المُنْذِرُ الأشجُّ حتَّى أتَى عَيْبَتَهُ(١) فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ، ثُمَّ أتَى النبيَّ ﷺ.

فقالَ لَهُ النبيُّ ﷺ: إنَّ فيكَ خلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، والأنَاةُ.

فقالَ أشجُّ عبدِ القيسِ: يَا رسولَ الله؛ أنَا أتَخَلَّقُ بِهِمَا أمِ اللهُ جَبَلَنِي عليهما؟

فقالَ النبيُّ ﷺ: بلِ اللهُ جَبَلَكَ عليهما.

فقالَ أشجُّ عبدِ القيسِ: الحمدُ لله الذي جبلني على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ ورسولُهُ.

ثُمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: اللَّـهُمَّ اغْفِرْ لعبدِ القيسِ إذْ أسْلَمُوا طائِعِينَ غيرَ كارِهينَ، غيرَ خزايا ولا مَوْتُورِينَ(٢)، إذْ بعضُ قومِنا لا يُسْلِمُونَ حتَّى يُخْزَوا ويُوتَرُوا.

وابْتَهَلَ وَجْهُ رسولِ الله ﷺ حتَّى اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، ثُمَّ دعا لعبدِ القيسِ، وقالَ: إنَّ خيرَ أهلِ المشرقِ عبدُ القيسِ.

قالتْ أُمُّ سلمةَ رضي الله عنها: سمعتُ النبيَّ ﷺ يَنْهَى عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ بعدَ العصرِ، وإنَّهُ صلَّى العصرَ ثُمَّ دخلَ عليَّ فصلاهُمَا، فقلتُ: يَا رسولَ الله؛ ألَمْ أسْمَعْكَ تَنْهَى عن هاتينِ الرَّكْعَتَيْنِ! فأراكَ تُصَلِّيهِمَا؟!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: يا بِنْتَ أبـي أمَيَّةَ؛ سألتِ عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ بعدَ العصرِ؟ إنَّهُ أتانِـي أناسٌ مِنْ عبدِ القيسِ بالإسلامِ منْ قومِهِمْ، فشَغَلُونِـي عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بعدَ الظُّهْرِ، فهُمَا هاتَانِ.

---

(١) أي: مستودع ثيابه.

(٢) أي: فَزِعِينَ ومُدْرَكِينَ بمكروه.

وكانَ أولُ جمعةٍ جُمِعَتْ بعدَ جمعةٍ جُمِعَتْ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ: هي في مسجدِ عبدِ القيسِ بجُوَاثَى، وهي قريةٌ مِنْ قُرى البَحْرَيْنِ(١).

إسلام سيد أهل اليمامة: ثمامة بن أثال رضي الله عنه:

وكانَ رسولُ الله ﷺ قَدْ بَعَثَ خَيْلاً قِبَلَ نجدٍ، فجاءَتْ برَجُلٍ مِنْ بَنِي حنيفةَ يُقالُ لَهُ: ثمامةُ بنُ أُثَالٍ ـ سيدُ أهلِ اليمامةِ ـ، فرَبَطُوهُ بساريةٍ مِنْ سَوَارِي المسجدِ.

فخرجَ إليهِ رسولُ الله ﷺ فقالَ: ماذا عندَكَ يا ثمامةُ؟

فقالَ ثمامةُ: عندِي يَا محمدُ خيرٌ، إنْ تَقْتُلْ تَقْتُل ذا دَمٍ، وإنْ تُنعِمْ تُنعِمْ على شاكرٍ، وإن كُنْتَ تُريدُ المالَ فسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتَرَكَهُ رسولُ الله ﷺ حتَّى كانَ بعدَ الغدِ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ماذا عندَكَ يا ثمامةُ؟

فقالَ ثمامةُ: ما قُلْتُ لَكَ، إنْ تُنْعِمْ تُنعِمْ على شاكرٍ، وإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ، وإن كُنتَ تُريدُ المالَ فسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتَرَكَهُ رسولُ الله ﷺ حتَّى كَانَ مِنَ الغَدِ، فقال رسولُ الله ﷺ: ماذا عندَكَ يا ثمامةُ؟

فقالَ ثمامةٌ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لكَ، إنْ تُنْعِمْ تُنْعِمُ على شاكرٍ، وإنْ تَقْتُلْ تَقْتُل ذا دَمٍ، وإن كُنتَ تُريدُ المالَ فسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

ثُمَّ بدا لرسولِ الله ﷺ فقالَ: أَطْلِقُوا ثمامَةَ.

فقذفَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي قلبِهِ، فذهَبُوا بِهِ إلى بئرِ الأنصارِ فغَسَلُوهُ، فأَسْلَمَ ثُمَّ دخلَ المسجدَ فقالَ: أشهَدُ أنْ لا إلـه إلَّا اللهُ؛ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ

---

(١) أي: هجر، سُمِّيت بذلك لأن في ناحية قُراها بُحيرة على باب الإحساء.

ورسولُهُ، يا محمدُ؛ والله؛ ما كانَ على الأرضِ وجهٌ أبغضَ إليَّ مِنْ وجهِكَ، فقدْ أصبحَ وجهُكَ أحبَّ الوجوهِ كلِّها إليَّ، والله؛ ما كانَ مِنْ دينٍ أبغضَ إليَّ مِنْ دينِكَ، فأصبحَ دينُكَ أحبَّ الدينِ كلِّهِ إليَّ، والله؛ ما كانَ مِنْ بلدٍ أبغضَ إليَّ مِنْ بلدِكَ، فأصبحَ بلدُكَ أحبَّ البلادِ كلِّها إليَّ.

وإنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وأنَا أريدُ العمرةَ، فمَاذَا تَرَى؟

فبَشَّرَهُ رسولُ الله ﷺ، وأمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ.

قال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: لَقَدْ كَانَ والله فِي عينِي أصغرَ مِنَ الخِنزيرِ، وإنَّهُ فِي عينِي أعظمُ مِنَ الجبلِ.

فلمَا قَدِمَ ثمامةٌ مكةَ قالَ لَهُ قائلٌ: أصَبَوْتَ؟

فقالَ ثمامةٌ: لا، ولكنِّي أسلمتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ، ولا والله؛ لا يأتِيكُمْ مِنَ اليمامةِ حبَّةُ حِنْطَةٍ حتَّى يأذنَ فيها رسولُ الله ﷺ.

فأتَى ثمامةٌ اليمامةَ، فحَبَسَ عَنْ أهلِ مكةَ؛ فضجُّوا وضَجِرُوا، فكَتَبُوا إلى رسول الله ﷺ ليَأمُرَهُ بالصِّلَةِ.

فكَتَبَ رسولُ الله ﷺ إليهِ.

***

وفد مسيلمة الكذاب:

ثُمَّ قَدِمَ مُسَيْلَمَةُ الكذَّابُ على النبي ﷺ المدينةَ، فجَعَلَ يقولُ: إنْ جَعَلَ لي محمدٌ الأمرَ مِنْ بعدِهِ تَبِعْتُهُ.

فقَدِمَهَا مُسَيْلَمَةُ الكذَّابُ في بشرٍ كثيرٍ مِنْ قومِهِ، فأقبلَ إليهِ النبيُّ ﷺ ومَعَهُ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ ــ وهو خطيبُ رسولِ الله ﷺ ــ، وفي يدِ النبيِّ ﷺ قطعةُ جريدةٍ، حتَّى وَقَفَ على مُسَيْلَمَةَ فِي أصحابه.

فقالَ النبـيُّ ﷺ: لوْ سَألْتَنِـي هذهِ القطعةَ مَا أعْطَيْتُكَهَا، ولنْ أتَعَدَّى أمرَ الله فيكَ، ولئِنْ أدْبَرْتَ ليَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وإنِّي لأراكَ الذي أُرِيتُ فيكَ مَا أُرِيتُ، وهذا ثابتٌ يُجيبُكَ عَنِّي.

ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ النبـيُّ ﷺ.

وكانَ النبـيُّ ﷺ قدْ قالَ لأصحابِهِ: بَيْنَا أنا نائمٌ أُتِيتُ خزائِنَ الأرضِ، فوُضِـعَ في يدِي إسْوَارَيْنِ مِنْ ذهبٍ، فكَبُرَا عليَّ وأهَمَّنِـي شأنُهُمَا، فأُوحِـيَ إليَّ في المنامِ أن انْفُخْهُمَا، فنَفَخْتُهُمَا فطَارَا، فأوَّلْتُهُمَا الكذَّابَيْنِ اللذَيْنِ أنَا بيْنَهُمَا، أحَدُهُمَا: العَنْسِـيُّ صاحبُ صَنْعَاء، والآخَرُ: مُسَيْلَمَةُ صاحبُ اليمامة.

وقدْ جاءَ رسولَ الله ﷺ كتابُ مُسَيْلَمَةَ الكذَّابِ، فقالَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم للرَّسُولَيْنِ حينَ قرأ الكتابَ: فما تقولانِ أنْتُمَا؟

فقَالا: نقولُ كمَا قالَ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: والله؛ لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضَرَبْتُ أعناقكُمَا.

وفـد نجـران:

وجاء العاقب عبد المسيح والسيد الأيهم صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يحاجان في أمر عيسى ابن مريم عليه السلام؛ ويريدان أن يُلاعنا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩ ــ ٦١.

فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نُفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا.

فقالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلاَّ أميناً.

فقال رسول الله ﷺ: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حقَّ أمينٍ.

فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: قم يا أبا عبيدة بن الجراح.

فلما قام؛ قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة.

* * *

إسلام ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه:

وبينما النبي ﷺ جالساً مع أصحابه في المسجد؛ إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد؟

والنبيُّ ﷺ متكئٌ بين ظهرانيهم، فقالوا: هذا الرجل الأبيض المتكئ.

فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟

فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك.

فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدِّدٌ عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك.

فقال النبي ﷺ: سل عمّا بدا لك.

فقال الرجل: أسألك بربك ورب من قبلك؛ آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ نعم.

فقال الرجل: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً؛ وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟

فقال النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ نعم.

فقال الرجل: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

فقال النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ نعم.

فقال الرجل: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟

فقال النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ نعم.

فقال الرجل: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟

فقال النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ نعم

فقال الرجل: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟

فقال النبي ﷺ: اللَّـٰهُمَّ نعم.

فقال الرجل: أشهد أن لا إلـٰه إلاّ الله؛ وأشهد أنك رسول الله، آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر، وسأفعل ما أمرتني به، لا أزيد ولا أنقص.

فلما ولّى الرجل، قال رسول الله ﷺ: إن يصدق ذو العقيصتين[1] يدخل الجنة.

---

(١) أي: الضفيرتين من شعر الرأس.

ثم أتى الرجل إلى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى.

فقالوا: مه يا ضمام، اتق البرص والجذام، اتق الجنون.

فقال ضمام: ويلكم إنهما والله لا يضرَّان ولا ينفعان، إن الله عزَّ وجلَّ قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إلـه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

فوالله؛ ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ولا امرأةٌ إلَّا مسلماً، فما سمع بوافد قوم كان أفضلَ من ضمام بن ثعلبة.

* * *

إسلام عدي بن حاتم رضي الله عنه:

قال عدي بن حاتم: لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهة شديدة، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم حتى قدمت على قيصر، فكرهت مكاني ذلك أشدَّ من كراهيتي لخروجه.

فقلت: والله؛ لولا أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذباً لم يضرني، وإن كان صادقاً علمت.

فقدمت فأتيته، فإذا هو جالس في المسجد، قال القوم: هذا عدي بن حاتم.

فجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دُفعت إلى رسول الله ﷺ أخذ بيدي.

وقد كان رسول الله ﷺ قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي.

فلقي رسولَ الله ﷺ امرأةٌ وصبي معها، فقالا: إن لنا إليك حاجة.

فقام معهما رسول الله ﷺ حتى قضى حاجتهما.

ثم أخذ بيد عدي بن حاتم، حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة[١] وسادة، فجلس عليها رسول الله ﷺ، وجلس عدي بين يديه، فحمد رسول الله ﷺ الله وأثنى عليه، ثم قال: يا عدي بن حاتم؛ أسلم تسلم، أسلم تسلم، أسلم تسلم.

فقال عدي: إني على دين.

فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلم بدينك منك.

فقال عدي: أنت أعلم بديني مني؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم، ألست من الركوسية؟[٢] وأنت تأكل مرباع قومك[٣]؟

فقال عدي: بلى.

فقال رسول الله ﷺ: فإن هذا لا يحل لك في دينك.

فقال عدي: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها.

فقال رسول الله ﷺ: ما يُفِرُّكَ أن تقول: لا إله إلاَّ الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟

فقال عدي: لا.

---

(١) أي: الجارية.

(٢) أي: قوم لهم دين بين النصارى والصابئين.

(٣) أي: الرئيس في الجاهلية الذي يأخذ ربع مال الرعية، ويسمى ذلك الربع: المرباع.

ثم تكلم رسول الله ﷺ ساعة ثم قال: إنما تَفِرُّ أن تقول: الله أكبر، وتعلم أن شيئاً أكبر من الله؟!

فقال عدي: لا.

فقال رسول الله ﷺ: فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال، أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب.

فقال عدي: فإني جئت مسلماً.

قال: فرأيت وجه رسول الله ﷺ تَبَسَّط فرحاً.

ثم أمر به رسول الله ﷺ فأُنزل عند رجلٍ من الأنصار، فجعل عدي يغشى رسول الله ﷺ ويأتيه طرفي النهار.

قال عدي: فبينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة[١]، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل.

فصلَّى رسول الله ﷺ وقام فحث على الصدقة، ثم قال: ولو صاع، ولو بنصف صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، يقي أحدكم وجهه حر جهنم أو النار ولو بتمرة، ولو بشق تمرة.

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، وقائل له ما أقول لكم: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى.

فيقول: ألم أعطك مالاً وولداً وأُفْضِل عليك؟ فيقول: بلى.

فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟

---

(١) أي: الفقر والحاجة.

فينظر قدامه وبعده؛ وعن يمينه وعن شماله، ثم لا يجد شيئاً يقي به وجهه حر جهنم.

ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم.

ثم قال النبي ﷺ: يا عدي؛ هل رأيت الحيرة؟

فقال عدي: لم أرها، وقد أنبئت عنها.

فقال النبي ﷺ: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلاَّ الله.

فقال عدي: قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار[١] طيء الذي قد سعروا البلاد.

قال النبي ﷺ: ولئن طالت بك حياة لتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى.

فقال عدي: كسرى بن هرمز؟

فقال النبي ﷺ: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخْرِج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاَّ الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ــ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ ــ الرجل يُخْرِج ملء كفه فلا يجد أحداً يقبله منه.

---

(١) أي: قطاع الطريق.

وفـد دوس:

وقدم رجال من دوس، وفيهم الطفيل وأصحابه، فقالوا: يا رسول الله؛ إن دوساً قد كفرت وأبت، فادع الله عليها.

فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه، فظن الناس أنه يدعو عليهم، فقيل: هلكت دوس.

فقال الرؤوف الرحيم؛ عليه أفضل الصلاة والتسليم: اللَّـٰهُمَّ اهد دوساً وائت بهم، اللَّـٰهُمَّ اهد دوساً وائت بهم.

وفد أهل اليمن:

وكـان ممـن قـدم علـى رسـول الله ﷺ مـن الـودود: أهـل اليمـن، فقـال رسول الله ﷺ: جاء أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية.

وفـد كنـدة:

وقد وَفَدَ وَفْدُ كندة على رسول الله ﷺ، وفيهم الأشعث بن قيس، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من ولد؟

فقال الأشعث: غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة جمد، ولوددت أن مكانه شبع القوم.

فقال رسول الله ﷺ: لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قبضوا، ولئن قلت ذاك: إنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة.

وفد بجلة وتحريق ذي الخلصة:

وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ مبايعاً: جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

فقال: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي، ثم حللت عيبتي، ثم لبست حلتي، ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب، فرماني الناس بالحدق[١].

فقلت لجليسي: يا عبد الله؛ ذكَرَني رسول الله ﷺ؟

فقال: نعم؛ ذكرك آنفاً بأحسن ذكر.

فبينا رسول الله ﷺ يخطب إذ عرض له في خطبته وقال: يدخل عليكم من هذا الباب؛ أو من هذا الفج ذو يمن، ألا إن على وجهه مسحة ملك.

قال جرير: فحمدت الله عزَّ وجلَّ على ما أبلاني، ثم بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة، والنصح لكل مسلم؛ وما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلاَّ تبسم في وجهي.

وكانَ فِي الجاهليةِ بيتٌ يُقالُ له: ذُو الخَلَصَةِ، وكانَ يُقالُ لَهُ: الكعبةُ اليمانيةُ، والكعبةُ الشاميةُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ لجريرٍ: يا جريرُ؛ ألا تُريحُني مِنْ ذي الخلصة؟

قالَ جريرٌ: فانطلقتُ في خمسينَ ومائةِ وفارسٍ من أحْمَسَ[٢]، وكانُوا أصحابَ خيلٍ، وكنتُ لا أثبتُ على الخيلِ، فذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ، فضربَ رسولُ الله ﷺ في صدري حتى رأيتُ أثرَ أصابِعِه في صدري فقال: اللّٰهُمَّ ثَبِّتْهُ واجْعَلْهُ هادياً مهديّاً.

قال جريرٌ: فمَا وقعتُ عن فرسٍ بعدُ.

---

(١) أي: بأعينهم، والحدق: جمع حدقة، وهي سواد العين، وتُطلق على شدة النظر.

(٢) أي: قريش وكنانة وجديلة قيس، سموا حمساً: لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا، والحماسة: الشجاعة، أو لالتجائهم بالحمساء، وهي: الكعبة.

وكانَ ذو الخلصةِ بيتاً ظاهراً لخثعمٍ وبُجَيْلَةٍ، فيهِ نُصُبٌ تُعبدُ يُقالَ له: الكعبةُ، فأتاها جريرٌ فحرَّقَها بالنارِ وكسَّرها.

فلما قدمَ جريرٌ اليمنَ كان بها رجلٌ يستقسمُ بالأزلام، فقيلَ لَهُ: إنَّ رسولَ رسولِ الله ﷺ ها هنا، فإنْ قَدَرَ عليكَ ضربَ عُنقَكَ.

فبينما هو يضربُ بها إذْ وقفَ عليهِ جريرٌ، فقالَ: لتكْسِرَنَّها ولتَشْهَدَنَّ أنْ لا إلـه إلاَّ اللهُ؛ أو لأضْرِبَنَّ عُنُقَكَ؟

فكَسرَها الرجلُ وشَهِدَ.

ثم بعثَ جريرٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فجاء أبو أرطاة حصين بن ربيعة يبشر رسول الله ﷺ، فقالَ: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما جئتُكَ حتى تركتُها كأنَّها جملٌ أجربٌ.

فبرَّكَ رسولُ الله ﷺ على خيلِ أحْمَسِ ورجالِها خمسَ مرَّاتٍ.

إسلام تميم الداري رضي الله عنه وحديث الجساسة:

وقد قدم تميم الداري رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ليبايعه، فأخر رسول الله ﷺ العشاء الآخرة ذات ليلة، ثم خرج فقال: إنه حبسني حديث كان يحدثنيه تميم الداري.

فنادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كلّ إنسان مصلاه، أتدرون لم جمعتكم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن

جمعتكم لأن تميماً الداريَّ كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال.

حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْمٍ وجُذَامٍ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤوا[١] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب[٢] كثير الشعر، لا يدرون ما قُبُلُهُ من دُبُرِهِ من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك؛ ما أنت؟

فقالت: أنا الجساسة.

قالوا: وما الجساسة؟

قالت: أيها القوم؛ انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّيْر[٣]، فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال تميم: لما سمَّتْ لنا رجلاً فَرَقْنا[٤] منها أن تكون شيطانة، فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدَّيْر، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً، وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك؛ ما أنت؟

قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟

قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم[٥]، فلعب بنا الموج شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في

---

(١) أي: قربوا.
(٢) الهُلْبُ: الشعر، أو ما غلظ من شعر الذَّنَبِ وغيره.
(٣) أي: خانُ النَّصارى الذي ينقطعون فيه للتعبد.
(٤) أي: خفنا.
(٥) أي: هاج.

أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يُدرى ما قُبُلُه من دُبُرِهِ من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك؛ ما أنت؟

فقالت: أنا الجساسة.

قلنا: وما الجساسة؟

قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدَّيْرِ، فإنه إلى خبركم بالأشواق.

فأقبلنا إليك سراعاً، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بَيْسَان[١]؟

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

فقال: أسألكم عن نخلها؛ هل يثمر؟

قلنا له: نعم.

فقال: أما إنه يوشك أن لا تثمر، أخبروني عن بحيرة الطبرية[٢].

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

فقال: هل فيها ماء؟

فقالوا: هي كثيرة الماء.

فقال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، أخبروني عن عين زُغَرٍ[٣]؟

قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟

فقال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟

---

(١) أي: قرية بالشام.

(٢) أي: البحيرة التي يطل جبل الطور عليها، وهي من أعمال الأردن.

(٣) أي: بلدة بالشام.

قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

فقال: أخبروني عن نبـي الأميين ماذا فعل؟

قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب.

فقال: أقاتله العرب؟

قلنا: نعم.

فقال: كيف صنع بهم؟

فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

فقال لهم: قد كان ذلك؟

قلنا: نعم.

فقال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني: إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلاَّ هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

ثم طعن رسول الله ﷺ بمخصرته في المنبر، فقال: هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة. ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟

فقال الناس: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا، بل من قبل المشرق، ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، وأومأ بيده إلى المشرق.

حديث الراعي:

وأقبل راعٍ يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزوى غنمه إلى زاوية من زواياها.

ثم أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره أن الذئب عدا على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه.

فأقعى الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مِنِّي رزقاً ساقه الله إليَّ!

فقال الراعي: يا عجبي! ذئب مقعٍ[1] على ذَنَبِهِ يُكلمني كلام الإِنس؟

فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بِأنباء ما قد سبق.

فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعة.

ثم خرج رسول الله ﷺ فقال للراعي: أخبرهم.

فأخبرهم الراعي.

فقال رسول الله ﷺ: صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإِنس، ويكلم الرَّجُلَ عَذَبَةُ سوطه وشِرَاكُ نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده.

إرسال معاذ وأبي موسى رضي الله عنه إلى اليمن ووصيته ﷺ لهما:

وقد بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن، فقال: يسِّرا ولا تعسرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا.

(١) أي: جالسٌ.

فقال رسول الله ﷺ لمعاذ: إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فإذا جئتهم؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه: أن يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله؛ وأن محمداً رسول الله، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها؛ فخذ منهم، وتوقَّ كرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب.

فخرج رسول الله ﷺ مع معاذ يوصيه، ومعاذ راكب؛ ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فقال معاذ: يا رسول الله؛ أوصني.

فقال رسول الله ﷺ: اتق الله حيثما كنت.

فقال معاذ: زدني.

فقال رسول الله ﷺ: أتبع السيئة الحسنة تمحها.

فقال معاذ: زدني.

فقال رسول الله ﷺ: خالق الناس بخلق حسن.

ثم أوصاه رسول الله ﷺ بعشر كلمات، فقال:

لا تشرك بالله شيئاً؛ وإن قُتِلْتَ وحُرِّقْتَ.

ولا تَعُقَّنَّ والديك؛ وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك.

ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله.

ولا تشربن خمراً؛ فإنه رأس كلِّ فاحشة.

وإياك والمعصية؛ فإن بالمعصية يحل سخط الله عزَّ وجلَّ.

وإياك والفرار من الزحف؛ وإن هلك الناس.

وإذا أصاب الناس مَوَتَانٌ[١] وأنت فيهم ؛ فاثبت .

وأنفق على عيالك من طَوْلِكَ .

ولا ترفع عنهم عصاك أدباً .

وأخفهم في الله .

ثم أوصاه رسول الله ﷺ بقوله : إياك والتنعم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين .

فلما فرغ رسول الله ﷺ ، قال : يا معاذ ؛ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري .

فبكى معاذٌ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ .

فقال النبي ﷺ : لا تبك يا معاذ ، إن البكاء من الشيطان ، إني قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم ، يقاتلون على الحق ؛ يقاتلون على الحق ، فقاتل بمن أطاعك منهم من عصاك .

ثم التفت رسول الله ﷺ فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا .

فانطلقا ، فقال معاذ لأبي موسى : كيف تقرأ القرآن؟

فقال أبو موسى : قائماً وقاعداً وعلى راحلتي وأتفوقه تفوقاً .

فقال معاذ : أما أنا فأنام وأقوم ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي .

ولما قدم معاذٌ اليمن صلّى بهم الصبح ، فقرأ في سورة النساء ، فلما قرأ : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[٢] .

---

(١) أي : الموت الكثير الوقوع .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢٥ .

فقال رجل خلفه من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم.

إرسال علي رضي الله عنه إلى اليمن:

وبعث رسول الله ﷺ علياً إلى اليمن، فقال علي: يا رسول الله؛ تبعثني إلى قوم أسن مني؛ وأنا حديث لا أبصر القضاء؟

فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: اللَّـهُمَّ ثبت لسانه؛ واهد قلبه، يا علي؛ إذا جلس إليك الخصمان: فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء.

قال علي: فما اختلف عليَّ القضاء بعد.

وكان رسول الله ﷺ قد بعث خالد بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه ليقبض الخمس، فقال له رسول الله ﷺ: مر أصحاب خالد؛ من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب، ومن شاء فليقبل.

قال البراء بن عازب رضي الله عنهما: فكنت فيمن عقب مع عليٍّ، فغنمت أواقي ذوات عدد.

قال بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه: بغضت علياً بغضاً لم يبغضه أحد قط، وأحببت رجلاً من قريش لم أحبه إلاَّ على بغضه علياً، فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته ما أصحبه إلاَّ على بغضه علياً، فأصبنا سبياً، فكتب إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا من يُخمسه.

فبعث رسول الله ﷺ إلينا عليًا، وفي السبي وصيفة[1] هي من أفضل السبي، فخمَّس وقسم، فأصبح عليٌّ وقد اغتسل ورأسه مُغطًّى، فقال بريدة لخالد: ألا ترى إلى هذا؟

---

(١) أي: أَمَةٌ أو جاريةٌ.

فقلنا: يا أبا الحسن؛ ما هذا؟

فقال عليٌّ: ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي؟ فإني قسمت وخمست، فصارت في الخمس، ثم صارت في أهل بيت النبي ﷺ، ثم صارت في آل علي ووقعت بها.

فكتب عليٌّ إلى نبي الله ﷺ.

فقال بريدة: ابعثني، فبعثه عليٌّ مصدقاً.

قال بريدة: فلما قدمنا قال رسول الله ﷺ: كيف رأيتم صحابة صاحبكم؟

قال بريدة: فإما شكوته؛ أو شكاه غيري.

فرفعت رأسي وكنت رجلاً مكباباً[1]، فإذا النبي ﷺ قد احمرَّ وجهه، وهو يقول: من كنت وليه؛ فعليٌّ وليه.

قال بريدة: فجعلت أقرأ الكتاب؛ وأقول: صدق.

فأمسك رسول الله ﷺ يدي والكتاب وقال: أتبغض عليّاً؟

فقال بريدة: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: فلا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حباً، فوالذي نفس محمد بيده: لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة.

قال بريدة: فما كان من الناس أحد بعد قول رسول الله ﷺ أحب إليَّ من عليٍّ.

ثم بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة

---

(١) أي: كثير النظر إلى الأرض.

نفر: بين عيينة بن بدر؛ وأقرع بن حابس؛ وزيد الخيل؛ والرابع: إما علقمة؛ وإما عامر بن الطفيل.

فقال رجل: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ألا تأمنونني وأنا أمين من في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً؟!

فقام رجل غائر العينين؛ مشرف الوجنتين[١]، ناشز الجبهة[٢]؛ كث اللحية؛ محلوق الرأس؛ مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله؛ اتق الله!

فقال رسول الله ﷺ: ويلك! أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟!

ثم ولى الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله: ألا أضرب عنقه؟

فقال رسول الله ﷺ: لا؛ لعله أن يكون يصلي.

فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقوله بلسانه ما ليس في قلبه؟

فقال رسول الله ﷺ: إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس؛ ولا أشق بطونهم.

ثم نظر رسول الله ﷺ إلى الرجل وهو مُقَفٍّ[٣] فقال: إنه يخرج من ضئضيء هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد.

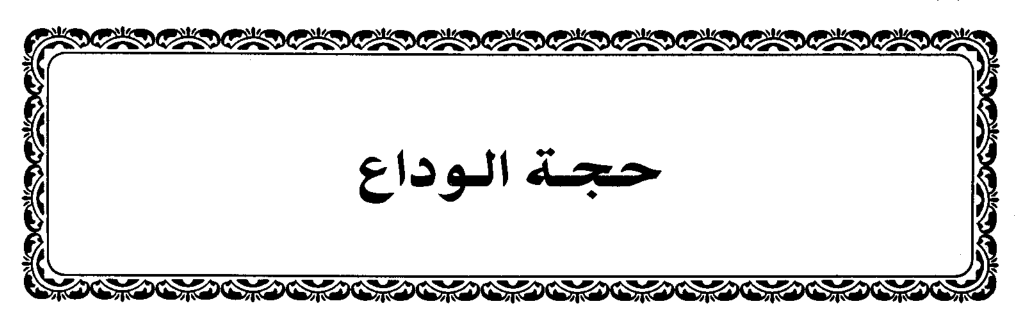
* * *

---

(١) أي: بارزُ العظمين المشرفين على الخدين.

(٢) أي: مرتفع الجبهة.

(٣) أي: مُوَلٍّ؛ كأنه أعطاه قفاه.



حجة الوداع

عمراتـه ﷺ:

اعتمرَ خاتمُ الأنبياءِ والمُرسلينَ، صلَّى وسلَّم عليهِ ربُّ العَالمينَ: أربعَ عُمَرٍ، كلُّهنَّ في ذي القَعْدَةِ، إلاَّ عُمْرَتَهُ التي مع حَجَّتِهِ.

عُمْرَةٌ زمنَ الحُدَيْبِيَةِ، وعُمْرَةٌ مِنَ العامِ المُقْبِلِ، وعُمْرَةٌ من جِعرَّانَةِ حينَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ.

الأذان بالحج:

وقد مكث رسول الله ﷺ تسع سنين لم يحج، ثم أُذِّن في الناس في العاشرة: أن رسول الله ﷺ حاج.

فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

فصلَّى رسول الله ﷺ بالمدينة الظهر أربعاً، ثم صلَّى العصر بذي الحليفة وهو العقيق ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، فقال: أتاني الليلة آت من ربـي: أن صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة.

وقد طاف رسول الله ﷺ في نسائه ثم أصبح محرماً، وقد طيبته عائشة رضي الله عنها عند إحرامه.

ثم انطلق النبـي ﷺ من المدينة بعد ما ترجَّل وادَّهن ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه، فلم ينه عن شيء من الأردية والأزر تلبس، إلاَّ المزعفرة التي تردع على الجلد(١).

ثم دعا رسول الله ﷺ بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، وسلت الدم، وقلدها نعلين، ثم ركب راحلته، حتى إذا استوى على البيداء أهلَّ هو وأصحابه بالحج، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة.

فولدت أسماء بنت عميس رضي الله عنها: محمد بن أبـي بكر رضي الله عنهما، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟

فقال رسول الله ﷺ: اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي.

حتى إذا استوت برسول الله ﷺ ناقته القصواء على البيداء؛ فإذا مد البصر بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهر أصحابه، وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملوا به.

إهلالـه ﷺ:

فأهلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد: لبيك اللَّـهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنِّعمة لكَ والملك، لا شريك لك.

وأهلَّ الناس بهذا الذي يهلون به، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يزيد فيهما: لبيك لبيك وسعديك، والخير بيديك، لبيك والرغباء إليك والعمل.

---

(١) أي: أثر الطيب الذي يُلطِّخ ويُلزق بالجلد.

فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته. ليس ينوي الناس إلاَّ الحج، ليسوا يعرفون العمرة.

فقال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تأمر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية والإهلال.

حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالعَرْج(١)؛ نزل ونزلوا معه، فجلست عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله ﷺ وإلى جنب أبيها رضي الله عنه، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلامٍ لأبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟

فقال الغلام: أضللته البارحة.

فقال أبو بكر: بعير واحد تضله؟!

فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول: انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع؟

حتى إذا كانوا بسرف أو قريباً منا حاضت عائشة، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقالت: والله؛ لوددت أني لم أكن خرجت العام.

فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ لعلك نَفِسْتِ(٢)؟

فقالت: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضي الحاج؛ غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تغتسلي.

---

(١) أي: قرية جامعة على طريق مكة، وسمي العرج: لتعريج السيول به، أو لأنه يعرج به عن الطريق.

(٢) أي: حضتِ.

ثم بات رسول الله ﷺ بذي طوى حتى أصبح واغتسل، ثم دخل مكة من كداء من الثنية العليا التي بالبطحاء، لأربع ليال خلون من ذي الحجة.

دخوله ﷺ المسجد الحرام:

فأتى ﷺ باب المسجد فأناخ راحلته، ثم دخل المسجد، فبدأ بالحجر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء.

ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحجر فقال: والله؛ إني لأقبّلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولو لم أر حبيبي ﷺ قبّلك أو استلمك، ما استلمتك ولا قبّلتك، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، ثم قبّل الحجر والتزمه، وقال: رأيت رسول الله ﷺ بك حفيّاً.

فقال النبي ﷺ: يا عمر؛ إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاسْتَلِمْه، وإلاّ فاسْتَقْبِلْه فهلِّل وكبِّر.

فطاف رسول الله ﷺ بالبيت مضطبعاً وعليه بُرْدٌ، ورمل ثلاثاً ومشى أربعاً، وكان لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحَجَر في كل طوفة، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[2]، فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[3] و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[4]، ثم رجع إلى الركن فاستلمه.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٥.
(٣) سورة الكافرون: الآية ١.
(٤) سورة الإخلاص: الآية ١.

خروجه ﷺ إلى الصفا والمروة:

ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[١]، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء، لا إلـه إلاَّ الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، فقال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبَّت قدماه في بطن الوادي سعى، وكان إزاره يدور به من شدة السعي وهو يقول لأصحابه: اسعوا؛ إن الله كتب عليكم السعي، حتى إذا صعدتا مشى، حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى كان آخر طوافه على المروة.

دخول العمرة في الحج:

ولـم يَحِـلَّ رسـول الله ﷺ مـن أجـل بُـدْنِـهِ لأنـه قلـدهـا، وأمـر النـاس أن يجعلوها عمرة، وأن يحلوا إلى نسائهم، ففشت في ذلك القالة.

فقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: فيروح أحدنا إلى منى وذكره يقطر منياً؟!

فبلغ ذلك النبـي ﷺ، فقام خطيباً فقال: بلغني أن أقواماً يقولون كذا وكذا، والله؛ لأنا أبرُّ وأتقى لله منهم، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

فقام سراقة بن مالك بن جعشم رضي الله عنه فقال: يا رسول الله؛ ألعامنا هذا أم لأبد؟

فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج؛ دخلت العمرة في الحج، لا؛ بل لأبد أبد.

فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة، ومن كان معه هدي فليهل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً، فأمر أصحابه من لم يكن معه بدنة قلدها أن يقصروا من رؤوسهم ثم يحلوا، ومن كانت معه امرأته فهي له حلال، والطيب والثياب.

فأحل الناس بعدما طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم، وأما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة؛ فإنما طافوا طوافاً واحداً، وهم ممن كان معه الهدي، فكان الهدي مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وذوي اليسارة.

فقالت حفصة: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا ولم تحلل أنت من عمرتك؟

فقال رسول الله ﷺ: إني لبَّدت رأسي، وقلَّدت هديي، فلا أحلُّ حتى أنحر.

* * *

وكان رسول الله ﷺ قد نزل بأعلى مكة، ثم الحجون، وهو مُهِلٌّ بالحج، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه بها حتى رجع من عرفة.

ثم خرج بلال رضي الله عنه بوضوء ليصبه على رسول الله ﷺ فابتدره الناس فمن ناضح ونائل، فمن أخذ منه شيئاً تمسح به، ومن لم يجد منه شيئاً

أخذ من بلل يد صاحبه، فجاء أبو جحيفة فأخذ يد رسول الله ﷺ فوضعها على وجهه، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك.

ثم أذن بلال، ورسول الله ﷺ في قبة له حمراء من أدم، فخر بلال بين يديه بالعنزة فركزها، فصلّى رسول الله ﷺ بالهاجرة بالبطحاء الظهر ركعتين، والعصر ركعتين، والعنزة بينه وبين مارة الطريق، يمر من ورائها الكلب والحمار والمرأة لا يمنع، ثم لم يزل يصلي ركعتين حتى أتى المدينة.

وقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حلَّ ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إني أبي أمرني بهذا.

فذهب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبره أنه أنكر ذلك عليها، فقال رسول الله ﷺ: صَدَقَتْ صَدَقَتْ، ماذا قلت حين فرضت الحج؟

فقال علي: قلت: اللّـهُمَّ إني أهل بما أهل به رسولك ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: فإن معي الهدي فلا تحل، ولولا أن معي الهدي لأحللت.

فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة.

فحل الناس كلهم وقصروا إلاَّ النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

وقدم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وهو منيخ بالبطحاء، فقال له رسول الله ﷺ: بم أهللت؟

فقال أبو موسى: أهللت بإهلال النبي ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: هل سقت من هدي؟

فقال أبو موسى: لا.

فقال رسول الله ﷺ: فطف بالبيت وبالصفا والمروة ثم حل.

فلما كان يوم التروية: أمر النبي ﷺ من أحلَّ أن يحرم إذا توجه إلى منى، فأهلوا من الأبطح، ثم توجهوا إلى منى، وركب رسول الله ﷺ فصلَّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

وقوفه ﷺ بعرفات:

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، ثم سار من منى إلى عرفات، فكان يُهِلُّ المُهِلُّ منهم فلا ينكر عليه، ويكبر المكبر منهم فلا ينكر عليه.

وأمر بقبة من شعر تُضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلاَّ أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة فنزل بها.

خطبته ﷺ بالناس يوم عرفة:

حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِّلَتْ له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس، وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع.

ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضع من دمائنا: دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل.

وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع ربانا؛ ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال رسول الله ﷺ بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس: اللّٰهُمَّ اشهد، اللّٰهُمَّ اشهد، اللّٰهُمَّ اشهد.

ثم أذن، ثم أقام فصلّى الظهر، ثم أقام فصلّى العصر، ولم يصلِّ بينهما شيئاً.

وقال النبي ﷺ: خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

ثم سأل رجلٌ رسول الله ﷺ عن الحج بعرفة؟

فقال رسول الله ﷺ: الحج يوم عرفة، ومن أدرك ليلة جَمْعٍ قبل صلاة الصبح فقد تم حجه، وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه.

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى.

وشك الناس يوم عرفة في صيام رسول الله ﷺ، وتماروا عند أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها، فقال بعضهم: هو صائم.

وقال بعضهم: ليس بصائم.

فأرسلت إليه زوجه ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها بحلاب اللبن وهو واقف في الموقف على بعيره، فشرب منه والناس ينظرون إليه، ونهى رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة بعرفات.

وبينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة؛ إذ خرَّ من بعيره فوقص[١] فمات، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه، ولا تخمروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيّاً.

وقال رسول الله ﷺ: وَقَفْتُ ههنا بعرفة، وعرفة كلها موقف، وَقِفُوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم.

فلم يزل رسول الله ﷺ واقفاً بعرفة حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص.

وقد جاء رجل من اليهود في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: يا أمير المؤمنين؛ آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

فقال عمر: أي آية؟

فقال الرجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢].

---

(١) أي: اندقَّت عنقه.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

فقال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة؛ يوم جمعة.

* * *

وقد أردف رسول الله ﷺ خلفه منصرفه من عرفة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام؛ حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: يا أيها الناس؛ عليكم السكينة والوقار، فإن البرَّ ليس في إيضاع(١) الإبل.

فكان كلما أتى حبلاً من الحبال أرخى قليلاً حتى تصعد، فلما بلغ رسول الله ﷺ الشعب الأيسر الذي دون المزدلفة أناخ فبال ثم جاء، فصب أسامة عليه الوضوء، فتوضأ وضوءاً خفيفاً.

فقال أسامة: الصلاة يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: الصلاة أمامك.

نزوله ﷺ المزدلفة:

فركب رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة، فنزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلَّى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلَّى.

فصلَّى رسول الله ﷺ المغرب والعشاء بأذان واحدٍ وإقامتين، ولم يُصَلِّ بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر.

ثم استأذنت سودة بنت زمعة رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ ليلة المزدلفة

---

(١) أي: إسراع.

أن تدفع قبله وقبل حطمة الناس، وكانت امرأة ضخمة ثبطة(١)، فأذن لها.

فخرجت سودة قبل دفع رسول الله ﷺ، وحبس رسول الله ﷺ أزواجه حتى أصبحن؛ فدفعن بدفعه.

قال عائشة رضي الله عنه: ولأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة فأصلي الصبح بمنى فأرمي الجمرة قبل أن يأتي الناس؛ فأكون أدفع بإذنه أحب إليَّ من مفروحٍ به.

ثم صلَّى رسول الله ﷺ الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، فمن قائل يقول: طلع الفجر.

وقائل يقول: لم يطلع الفجر.

ثم قال رسول الله ﷺ: إن هاتين الصلاتين حُوِّلَتَا عن وقتهما في هذا المكان: المغرب والعشاء، فلا يقدم الناس جمعاً حتى يُعْتِمُوا، وصلاة الفجر هذه الساعة.

وجاء عروة بن مضرّس الطائي رسول الله ﷺ في الموقف، فقال: جئت يا رسول الله ﷺ من جبل طيء، أكللت مطيتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلاَّ وقفت عليه، هل لي من حج؟

فقال رسول الله ﷺ: من شهد معنا هذه الصلاة، وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً تم حجه، وقضى تفثه.

إتيانه ﷺ المشعر الحرام:

ثم ركب رسول الله ﷺ القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووَحَّدَه، وقال: وقفت ههنا بجمع، وجمع كلها موقف.

---

(١) أي: ثقيلة.

فلم يزل رسول الله ﷺ واقفاً حتى أسفر جدًّا، وكان المشركون لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أَشْرِق ثَبِير[١]، وإن النبي ﷺ خالفهم: ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس.

وقد أردف رسول الله ﷺ منصرفه من مزدلفة الفضل بن عباس رضي الله عنها، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع رسول الله ﷺ استفتته جارية شابة من خثعم، فقالت: إن أبي شيخ كبير؛ قد أدركته فريضة الله في الحج، أفيجزىء أن أحج عنه؟

فقال رسول الله ﷺ: حُجِّي عن أبيك.

فطفق الفضل ينظر إليها، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر.

فقال العباس: يا رسول الله؛ لِمَ لويت عنق ابن عمك؟

فقال رسول الله ﷺ: رأيت شابًّا وشابةً، فلم آمن الشيطان عليهما.

وقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما غداة جمع[٢]: هلمَّ القَطْ لي.

فلقط له عبد الله حصيات من حصى الخذف[٣]، فلما وضعهن رسول الله ﷺ في يده قال: نعم، بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين.

---

(١) أي: لتطلع عليك الشمس يا جبل ثبير، وهو أعظم جبال مكة.

(٢) أي: مزدلفة.

(٣) أي: ما يُؤخذُ بين السبَّابتين من حصاة أو نواة فيُرمى به.

رمي الجمرات:

فلم يزل رسول الله ﷺ يسير سيرًا ليناً كسيره بالأمس، حتى أتى على وادي محسّر، فدفع فيه حتى استوت به الأرض، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجميرة الكبرى.

فلم يزل رسول الله ﷺ يلبـي حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، وخلفه الفضل بن العباس يستره وهو على راحلته، ومعه بلال وأسامة رضي الله عنهما، أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس يستره من الحر، حتى رمى رسول الله ﷺ جمرة العقبة من بطن الوادي بسبع حصيات ولم يقف، يكبر مع كل حصاة منها، وهو يقول: يا أيها الناس؛ لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم الجمرة فارموها بمثل حصى الخذف.

يوم النحر:

وخطب رسول الله ﷺ الناس يوم النحر بمنى على ناقته، واضع رجليه في الغرز[١]، يتطاول يُسمع الناس، فقال بأعلى صوته: ألا تسمعون؟

فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله؛ ماذا تعهد إلينا؟

فقال رسول الله ﷺ: اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم.

وقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً، ثم قال: إنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ مجدع أسود يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا.

وكان رسول الله ﷺ يقول: لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه.

---

(١) الغرز للناقة: كالركاب للفرس، وهو ما تُوضع فيه الرجل للركوب.

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المنحر، فنحر بيده ثلاثاً وستين بَدَنَة، بعدد سني عمره، وقال: نحرت ههنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم.

ثم أمر رسول الله ﷺ علياً أن يقوم على بُدْنِهِ، وأمره أن يقسم بُدْنَه كلها لحومها وجلودها وجِلالها(١) في المساكين، وأن لا يعطي الجزار منها، وقال: نحن نعطيه من عندنا.

فنحر عليٌّ ما غبر، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بَدَنَة ببضعة، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

ثم حلق رسول الله ﷺ، وقال للحلاق: خذ؛ وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل رسول الله ﷺ يقسم شعره بين من يليه، فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس.

وحلق طائفة من أصحابه، وقصر بعضهم، فقال رسول الله ﷺ: اللَّـهُمَّ ارحم المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: اللَّـهُمَّ ارحم المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

فقال رسول الله: اللَّـهُمَّ ارحم المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: والمقصرين.

فدعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً؛ وللمقصرين مرة.

---

(١) جمع جُلّ، وهو ما يُطرح على ظهر البعير من الكساء ليُصان به.

ثم أتاه رجل فقال: يا رسول الله؛ إني أفضت قبل أن أحلق؟

فقال رسول الله ﷺ: احلق أو قصر ولا حرج.

وجاء آخر فقال: يا رسول الله؛ إني ذبحت قبل أن أرمي؟

فقال رسول الله ﷺ: ارم ولا حرج.

ثم طيَّبت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ حين أحلَّ، فركب فأفاض إلى البيت، فصلَّى بمكة الظهر.

ثم إن رسول الله ﷺ قدم على راحلته وخلفه أسامة إلى السقاية، فاستسقى، فقال العباس رضي الله عنه: يا فضل؛ اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها.

فأتوه بإناء من نبيذ، فشرب رسول الله ﷺ وسقى فضله أسامه، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا.

ثم أتى رسول الله ﷺ زمزم وبنو عبد المطلب يسقون ويعملون فيها، فقال رسول الله ﷺ: انزعوا بني عبد المطلب، فإنكم على عمل صالح، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلواً فشرب منه.

وفي يوم النحر: طهرت عائشة، فأمرها رسول الله ﷺ فأفاضت، وأتي بلحم بقر، فقالت عائشة: ما هذا؟

فقالوا: أهدى رسول الله ﷺ عن نسائه البقر.

الرجوع إلى منى أيام التشريق:

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى منى، فمكث بها ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة،

ويقف عند الأولى والثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ويرمي الثالثة ولا يقف عندها.

وخطب النبي ﷺ الناس بمنى، ونزلهم منازلهم وقال: لينزل المهاجرون ههنا، وأشار إلى ميمنة القبلة، والأنصار ههنا، وأشار إلى ميسرة القبلة، ثم لينزل الناس حولهم، وعلَّمهم مناسكهم، ففُتِحَتْ أسماع أهل منى حتى سمعوه في منازلهم، وقال رسول الله ﷺ: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب شهر مضر، الذي بين جُمَادَى وشعبان.

ثم قال رسول الله ﷺ: أي شهر هذا؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم.

فسكت رسول الله ﷺ حتى ظنوا أنه سيُسَمِّيه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟

فقالوا: بلى.

فقال رسول الله ﷺ: فأي بلد هذا؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم.

فسكت رسول الله ﷺ حتى ظنوا أنه سيُسَمِّيه بغير اسمه، فقال: أليس البلدة.

فقالوا: بلى.

فقال رسول الله ﷺ: فأي يوم هذا؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم.

فسكت رسول الله ﷺ حتى ظنوا أنه سيُسَمِّيه بغير اسمه، فقال: أليس يوم النحر؟

فقالوا: بلى يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعن بعدي كفاراً؛ يضرب بعضكم رقاب بعض.

وقال رسول الله ﷺ: إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق، ولا تسرقوا، ولا تزنوا.

وقال رسول الله ﷺ: إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، والولد للفراش؛ وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله التابعة إلى يوم القيامة، لا تنفق المرأة شيئاً من بيتها إلاَّ بإذن زوجها.

فقيل: يا رسول الله؛ ولا الطعام؟

فقال رسول الله ﷺ: ذلك أفضل أموالنا.

وقال رسول الله ﷺ: العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدَّيْن مقضي، والزعيم غارم.

ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلَّغت؟ اللَّـهُمَّ اشهد.

وداع الرسول ﷺ:

وودع رسول الله ﷺ الناس، وقال: هذا يوم الحج الأكبر.

فقالوا: هذه حجة الوداع.

واستأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له.

وأرخص رسول الله ﷺ لرعاء الإبل في البيتوتة، أن يرموا يوم النحر، ثم يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر فيرمونه في يوم النفر.

ثم نفر النبي ﷺ من منى، ونزل بالمحصب ليكون أسمح لخروجه، وصلَّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

فلما كانت ليلة الحصبة، قالت عائشة: يا رسول الله؛ يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة!

فأمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر فأردفها على جمله.

قالت عائشة: فإني لأذكر وأنا جارية حديثة السن، أنعس فيصيب وجهي مؤخرة الرحل، حتى جئنا إلى التنعيم، فأهللت منها بعمرة جزاء بعمرة الناس التي اعتمروا.

فاعتمرت عائشة، ثم جاءت رسول الله ﷺ بسحر، وكان قد رقد رقدة، ثم قال: هذه مكان عمرتك.

ثم حاضت صفية رضي الله عنها ليلة النفر، فقالت: ما أراني إلاَّ حابستكم.

فقال النبي ﷺ: عَقْرَى حَلْقَى[١]، أطافت يوم النحر؟

فقيل: نعم.

---

(١) أي: عقرها الله تعالى وحلقها، وهي كلمة تقولها العرب من غير إرادة حقيقتها، ومعنى عقرى: جرحها الله تعالى، وقيل: جرحها عاقراً لا تلد، ومعنى حلقى: حلق الله تعالى شعرها وهو زينة المرأة، وقيل: أصابها وجع في حلقها.

فقال رسول الله ﷺ: فانفري.

فأذن رسول الله ﷺ في أصحابه بالرحيل فارتحل، ثم ركب إلى البيت فطاف به، وأمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلاَّ أنه خفف عن الحائض.

وطاف النبي ﷺ طواف الوداع حول الكعبة على بعيره، ويستلم الركن بمحجن[1] معه، ويقبل المحجن، كراهية أن يُضرب عنه الناس.

وقالت أم سلمة: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي.

فقال رسول الله ﷺ: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة.

قالت: فطفت ورسول الله ﷺ حينئذ يصلي إلى جنب البيت، وهو يقرأ بـ: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾[2].

عودته ﷺ إلى المدينة:

ثم خرج رسول الله ﷺ من مكة من الثنية السفلى، وكان قد دخلها من الثنية العليا، وحمل من ماء زمزم.

وقفل رسول الله ﷺ من حجه، وكان يكبر على كل شرف[3] من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شدير. آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

(١) أي: عصا مُعوجَّة الرأس.

(٢) سورة الطور: الآيتان ١ ــ ٢.

(٣) أي: المكان العالي.

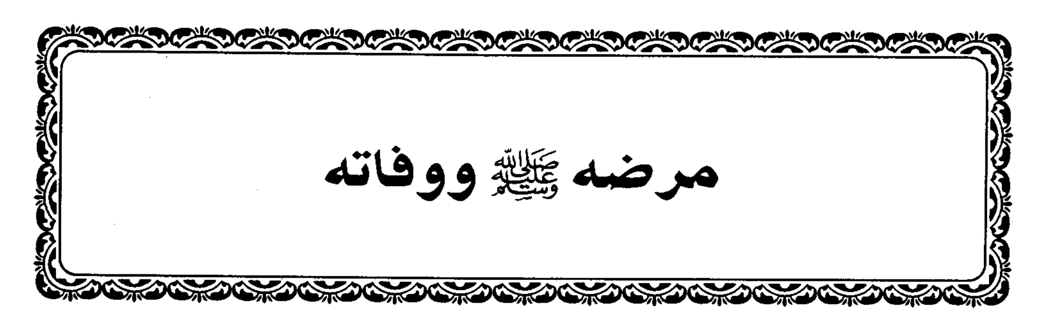
ولما بلغ رسول الله ﷺ غدير خم[١]، قال للناس: أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

فقالوا: نعم يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: من كنت مولاه؛ فإن علياً مولاه، اللَّهُمَّ وال من ولاه، وعاد من عاداه.

* * *

(١) أي: واد بين مكة والمدينة عند الجحفة، به غدير.



مرضه ﷺ ووفاته

وألقى خيرُ الأنامِ ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ عصى الترحال بعد قدومه من حج بيت الله الحرام، ليلقى ـ في آخر الليالي والأيام ـ سكرات الموت وكربات الحِمام.

وذلك أن النفوس؛ قد تنفست واستشعرت قرب رحيل النبي ﷺ وانتقاله للملك القدوس، بما رأته من علامات الرحيل؛ وما سمعته من أمارات دنو أجل الخليل، عليه أفضل الصلاة والسلام والتبجيل.

فمن ذلك ما جاء في التنزيل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[١].

وقول الرب الجليل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٢].

اعتكافه ﷺ آخر رمضان صامه ومقابلته القرآن مع جبريل عليه السلام:

وكان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبض فيه: اعتكف عشرين يوماً.

(١) سورة الزمر: الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

وكان جبريل عليه السلام يُعارضه بالقرآن كل عام مرة، وإنه عارضه به في العام الذي قبض فيه مرتين.

لذا لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]: بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ: ما يُبكيك؟

فقال عمر: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل؛ فإنه لم يكمل شيء إلاَّ نقص.

فقال النبي ﷺ: صدقت.

ولما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[2]: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللَّـهُمَّ ربنا وبحمدك، اللَّـهُمَّ اغفر لي؛ يتأول القرآن.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر، ويسألني مع أصحاب النبي ﷺ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أتسأله ولنا بنون مثله؟

فقال عمر: إنه ممن قد علمتم.

فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما أُريته دعاني يومئذ إلاَّ ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) سورة النصر: الآيات ١ ــ ٣.

وقال بعضهم: لا ندري.

ولم يقل بعضهم شيئاً.

فقال لي: يا ابن عباس؛ أكذاك تقول؟

فقلت: لا.

فقال عمر: فما تقول؟

فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾: فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

قال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تعلم.

لذا قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في ركوعِهِ وسجودِهِ بعدَ فتحِ مكةَ: سبحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبحمدِكَ، اللَّهُمَّ اغفرْ لِي.

ومما يوجب الإيقان والإقناع: ما طرق الأسماع، من قول النبي ﷺ في حجة الوداع: لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه.

وقول النبي ﷺ لنسائه: إنما هي هذه الحجة، ثم الْزَمْنَ ظهور الحصر.

مرضه ﷺ ودنو أجله:

وقد كان رسول الله ﷺ يُعَرِّضُ لأصحابه بدنوِّ أجله المُحتَّم، إذْ جلس ذات يوم على المنبر، فقال: إن عبداً خيَّره الله بين أن يُؤتيه زهرة الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عنده.

فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

فعجب له الناس، وقالوا: انظروا إلى هذا الشيخ، يُخبر رسول الله ﷺ

عن عبد خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده؛ وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

فكان رسول الله ﷺ هو المُخير، وكان أبو بكر أعلمهم به.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر؛ لا تبك، إن أَمَنَّ الناس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإِسلام ومودته، لا تَبْقَيَنَّ في المسجد خوخة[١] إلاَّ خوخة أبـي بكر.

زيارته ﷺ البقيع قبل وفاته:

ولم يقتصر وداع خير البشر؛ ذي الوجه الأنور، والجبين الأزهر؛ لمن حضر، بل شمل بوداعه من مات وغبر.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لما كانت ليلتي التي كان النبـي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلاَّ ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب فخرج ثم أجافه[٢] رويداً.

فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت[٣]، فسبقته فدخلت، فليس إلاَّ أن اضطجعت فدخل، فقال: ما لك يا عائش حشياً رابية[٤]؟

---

(١) أي: بابٌ صغيرٌ بين دارين، وأصله: فتحةٌ في حائط.

(٢) أي: ردَّه.

(٣) أي: العَدْوُ، وهو فوق الهرولة.

(٤) أي: وقع عليك الحشا، وهو الربو والنهج الذي يعرض للمسرع في مشيه والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره.

فقلت: لا شيء.

فقال رسول الله ﷺ: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير؟

فقلت: يا رسول الله؛ بأبي أنت وأمي فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟

فقلت: نعم.

فلهَدَّني[١] رسول الله ﷺ في صدري لهَدَّة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟

فقلت: مهما يكتم الناس يعلمه الله؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم؛ فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

فقلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون.

اشتداد المرض عليه ﷺ:

قالت عائشة رضي الله عنه: عصبت رأسي، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: يا عائشة؛ ما شأنك؟

فقلت: أشتكي رأسي.

---

(١) أي: دفعني دفعاً شديداً.

فقال رسول الله ﷺ: ذاك لو كان وأنا حيٌّ، فأستغفر لك وأدعو لك.

فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تُحِبُّ موتي، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك مُعرساً ببعض أزواجك.

فقال رسول الله ﷺ: بل أنا وارأساه.

فما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: لقد هممت أن أرسل إلى أبـي بكر وابنه، وأعهد، أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبـى الله، ويدفع المؤمنون.

قالت أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها: سمعت النبـي ﷺ يقرأ في المغرب بـ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾[1]، ثم ما صلّى لنا بعدها حتى قبضه الله.

وكان رسول الله ﷺ ليتعذر في مرضه: أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟ يريد يوم عائشة رضي الله عنها.

فلما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، قال: إني قد اشتكيت، وإني لا أستطيع أن أدور بينكن، فَأْذَنَّ لي فلأكن عند عائشة أو صفية.

فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة رضي الله عنها حتى مات عندها.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولم أُمَرِّضْ أحداً قبله.

فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين تخط رجلاه في الأرض، بين عباس بن عبد المطلب وبين علي بن أبـي طالب رضي الله عنهما.

وخرج علي بن أبـي طالب رضي الله عنه من عند رسول الله ﷺ في وجعه

---

(١) سورة المرسلات: الآية ١ إلى تمام السورة.

الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن؛ كيف أصبح رسول الله ﷺ؟

فقال علي: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب، فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ، فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا.

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها؛ لا يُعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

ثم قال النبي ﷺ بعد ما دخل بيت عائشة واشتد وجعه: هريقوا عليَّ من سَبْعِ قِرَبٍ لم تُحْلَلْ أوكيتهن[1]، لعلي أعهد إلى الناس.

وأجلس رسول الله ﷺ في مِخضبٍ[2] لحفصة رضي الله عنها ثم طفقن يَصْبُبْنَ عليه، حتى طفق يشير إليهن أن قد فعلتنَّ.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فمسسته بيدي، فقلت: إنك لتوعك وعكاً شديداً.

فقال النبي ﷺ: أجل؛ كما يُوعك رجلان منكم.

فقال عبد الله: لك أجران؟

فقال النبي ﷺ: نعم، ما من مسلم يُصيبه أذى مرض فما سواه، إلاَّ حط الله سيئاته؛ كما تحط الشجرة ورقها.

---

(١) الوكاء: خيط تُشدُّ به الصُرَّة والكيس، وكون القرب لم تحلل أوكيتهن أبلغ في طهارتها وصفائها لعدم مخالطة الأيدي لها.

(٢) أي: المِرْكَن، وهو المتخذ من الجلد، تغسل فيه الثياب ونحوها.

قالت عائشة رضي الله عنه: كان النبـي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة؛ ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهَرِي[١] من ذلك السم.

وكان رسول الله ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت عائشة رضي الله عنها تنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث، وتمسح بيد النبـي ﷺ عنه.

بعثه ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه أميراً للجيش:

وبعث النبـي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه بعثاً، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنهما، فطعن الناس في إمارته.

فقال النبـي ﷺ: قد بلغني أنكم قلتم في أسامة، وإن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله؛ إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده.

قال أسامة بن زيد رضي الله عنهما: لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ، وقد أصمَتَ فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبها عليَّ، أعرف أنه يدعو لي.

بكاء الأنصار وآخر مجلس جلسه ﷺ:

وقد مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال العباس: ما يبكيكم؟

قالوا: ذكرنا مجلس النبـي ﷺ منا.

فدخل العباس على النبـي ﷺ فأخبره بذلك.

---

(١) أي: عِرْقٌ في القلب، إذا انقطع لم تبق معه حياة.

فخرج النبي ﷺ إلى الناس وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دَسْمَاء(١)، حتى جلس على المنبر، وخطبهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فإن الناس يكثرون ويقل الأنصار، حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فأوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي(٢)، وقد قضوا الذين عليهم، وبقي الذي لهم، فمن ولي منكم شيئاً يضر فيه قوماً وينفع فيه آخرين؛ فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم.

فكان آخر مجلس جلس فيه النبي ﷺ؛ وصلَّى بهم.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: يوم الخميس؛ وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً؛ لن تضلوا بعده أبداً.

وفي البيت رجال فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده. ومنهم من يقول غير ذلك.

فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه.

فكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم.

---

(١) أي: كلَوْنِ الدَّسَم، لونٌ بين الغُبرة والسواد، والمراد: عمامة سوداء.

(٢) أي: خاصتي وموضع سرِّي، ويُكنى عن القلوب والصدور التي هي مواضع السرائر بالعياب: التي يُستودع فيها أفضل الثياب.

وصيته ﷺ قبل وفاته:

وأوصاهم رسول الله ﷺ بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قال عبد الله: فنسيتها.

تحذيره ﷺ من اتخاذ القبور مساجد:

ولما نزل بالنبي ﷺ مرضه الذي لم يقم منه: طفق يطرح خميصة(١) له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك، يقول: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

يحذر ما صنعوا.

قالت عائشة رضي الله عنها: لولا ذلك لأبرز قبره، خشي أن يتخذ مسجداً.

قالت عائشة رضي الله عنه: لددنا(٢) رسول الله ﷺ في مرضه، فجعل يُشير إلينا أن لا تلدوني.

فقلنا: كراهية المريض للدواء.

فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: ألم أنهكم أن تلدوني؟

قلنا: كراهية المريض للدواء.

فقال رسول الله ﷺ: لا يبقى أحد في البيت إلاّ لدّ وأنا أنظر، إلاّ العباس فإنه لم يشهدكم.

---

(١) أي: كساء من صوف مُعْلمٍ، أي: له أعلامٌ.

(٢) اللدود: ما يُسقاه المريض من الأدوية في أحد شقي الفم الذي فيه العلة.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: لا يموتن أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ.

حديثه ﷺ مع فاطمة رضي الله عنها قبل وفاته:

واجتمع نساء النبي ﷺ عنده، فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة رضي الله عنه تمشي كأن مشيتها رسول الله ﷺ، فقال: مرحباً بابنتي، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله.

وثقل النبي ﷺ وجعل يتغشاه، فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أباه!

فقال لها النبي ﷺ: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

ثم إنه أسر إليها حديثاً، فبكت بكاء شديداً.

فلما رأى حزنها سارها الثانية فإذا هي تضحك.

فقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين، وسألتها عما قال؟

فقالت فاطمة رضي الله عنها: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ.

حتى إذا قبض، قالت لها عائشة رضي الله عنها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق؛ لما أخبرتني.

قالت فاطمة رضي الله عنها: أما الآن فنعم، إنه كان حدثني أن جبريل كان يُعارضه بالقرآن كل عام مرة، وأنه عارضه به في العام مرتين، ولا أراني إلاَّ قد حضر أجلي، إنك أول أهلي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك.

فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي؛ سارَّني الثانية، فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟ ـ فضحكت لذلك.

ولما ثقل رسول الله ﷺ قال: أصلَّى الناس؟

فقلن أزواجه: لا؛ وهم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال: ضعوا لي ماء في المخضب.

ففعلن، فاغتسل رسول الله ﷺ ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة.

أمره ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بالصلاة بالناس:

وجاء بلال رضي الله عنه يُؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله؛ إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قرأ غلبه البكاء، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر؟

فقال رسول الله ﷺ: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

قالت عائشة: فراجعت رسول الله ﷺ في ذلك مرتين أو ثلاثاً، وما حملني على كثرة مراجعته، إلاَّ أنه لم يقع في قلبي أن يُحِبُّ الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، ولا كنت أُرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلاَّ تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر.

فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر؟

فقالت له، فقال رسول الله ﷺ: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فأمروا أبا بكر يصلي بالناس.

فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس.

فقال أبو بكر ــ وكان رجلاً رقيقاً ــ: يا عمر؛ صلِّ بالناس.

فقال عمر: أنت أحق بذلك.

فصلَّى بهم أبو بكر تلك الأيام.

ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين: العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما لصلاة الظهر من يوم الخميس، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر.

فأومأ إليه النبي ﷺ: أن لا يتأخر، وقال لهما: أجلساني إلى جنبه.

فأجلساه إلى جنب أبي بكر، وكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ، وأبو بكر يُسْمِعُ الناس التكبير.

فبينما المسلمون وهم في صلاة الفجر من الاثنين، وأبو بكر يصلي لهم؛ لم يفجأهم إلاَّ ورسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك.

فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يُريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ.

فأشار رسول الله ﷺ إليهم بيده: أن أتمُّوا صلاتكم.

فما نظروا منظراً كان أعجب إليهم من وجه رسول الله ﷺ حين وضح لهم، كأن وجهه ورقة مصحف وهو يتبسم.

فحمد رسول الله ﷺ اللهَ على ما رأى من حُسْنِ حالهم، ورجاء أن يخلفه الله فيهم بالذي رآهم، وقال: يا أيها الناس؛ أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة؛ فليتعزَّ بمصيبته بي عن المعصية التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبةٍ بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي.

ثم دخل رسول الله ﷺ الحجرة، وأرخى الستر.

عامة وصيته ﷺ:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاة؛ وما ملكت أيمانكم، حتى جعل رسول الله ﷺ يُغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه.

وفاته ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها:

قالت عائشة رضي الله عنها: إن من نعم الله عليَّ: أن رسول الله ﷺ تُوفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري[١].

وإن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته؛ دخل عليَّ عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما وبيده سواك رطب يستن به، وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدري، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟

فأشار رسول الله ﷺ برأسه: أن نعم.

فقلت: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن.

فأعطانيه، فتناولته فاشتدَّ على رسول الله ﷺ، وقلت: أليِنه لك؟

فأشار رسول الله ﷺ برأسه: أن نعم.

---

(١) أي: ما بين الرئة وموضع النحر، أي: مات وهو مُستندٌ إلى صدرها وما يُحاذي سحرها منه.

فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته، فلينته ثم دفعته إلى رسول الله ﷺ، فاستنَّ به، فما رأيت رسول الله ﷺ استنَّ استناناً قط أحسن منه، ثم ناولنيها، فسقط من يده، فجمع الله بين ريقي وريقه، في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة.

وبين يدي النبي ﷺ ركوة فيها ماء، فجعل يُدْخِلُ يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول: لا إلـه إلاَّ الله؛ إن للموت سكرات.

قالت عائشة رضي الله عنها: كنت أسمع: أنه لا يموت نبي حتى يُخيَّرَ بين الدنيا والآخرة.

وكان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يُقبض نبيٌّ قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير.

فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، وكانت نساؤه تُعَوِّذه بدعاء إذا مرض، فذهبت عائشة تُعَوِّذه.

فلما أفاق النبي ﷺ شخص بصره نحو سقف البيت، ورفع يده إلى السماء ثم قال: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى.

وقال في مرضه الذي مات فيه وأخذته بحة: ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[1].

فقالت عائشة رضي الله عنها: فظننت أنه خير، فقلت: إذاً لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

وسمعته وأصغيتُ إليه قبل أن يموت وهو مسند إليَّ ظهره يقول: اللَّـٰهُمَّ اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى.

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٩.

ثم قبض ومالت يده.

قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما رأس رسول الله ﷺ ذات يوم على منكبي؛ إذ مال رأسه نحو رأسي، فظننت أنه يريد من رأسي حاجة، فخرجَتْ من فيه نقطة باردة فوقعت على ثُغْرة نحري[١]، فاقشعرَّ لها جلدي، فظننت أنه غشي عليه، فسجيته ثوباً.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: مات النبي ﷺ بين سحري ونحري، وفي دولتي، لم أظلم فيه أحداً، فلما خرجت نفسه؛ لم أجد ريحاً قط أطيب منها، فمن سفهي وحداثة سني أن النبي ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ.

وأقسمت عائشة رضي الله عنها بالله: إن رسول الله ﷺ قبض في ثوبين، في إزار غليظ وكساء.

موقف الصحابة من وفاته ﷺ:

ولما فاضت الروح الزكية من جسد خير البرية عليه أفضل صلاة وأزكى تحية: استأذن عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة رضي الله عنها عائشة رضي الله عنها، فأذنت لهما، وجذبت إليها الحجاب.

فنظر عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال: واغشياه! ما أشد غشي رسول الله ﷺ.

ثم قاما، فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر؛ مات رسول الله ﷺ.

---

(١) أي: الهَزْمةُ التي بين الترقوتين، التي يُنحر منها البعير.

فقال عمر: كذبت، بل أنت رجل تحوسك[١] فتنة، إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يُفني الله عزَّ وجلَّ المنافقين.

ثم أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمم رسولَ الله ﷺ وهو مُغشى بثوب حِبَرَة[٢].

فرفعت عائشة رضي الله عنها الحجاب؛ فنظر أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ مات رسول الله ﷺ وربِّ الكعبة.

ثم أكبَّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده؛ لا يذيقك الله الموتتين أبداً، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

ثم أتاه من قِبَلِ رأسه فحَدَرَ[٣] فاه وقبل جبهته، ثم قال: وانبياه!

ثم رفع رأسه ثم حدر فاه وقبل جبهته، ثم قال: واصفياه!

ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبل جبهته، وقال: واخليلاه! مات رسول الله ﷺ.

ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس ويتكلم، ويقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فمكث عن قومه أربعين ليلة، والله؛ إني

---

(١) أي: تُخالطك وتحثك على ركوبها.
(٢) أي: ضَرْبٌ من برود اليمن مُنمَّرٌ.
(٣) أي: حطَّه من عُلوٍ إلى سُفْلٍ.

لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات.

فقال أبو بكر: أيها الحالف؛ على رسلك، اجلس يا عمر.

فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إلى أبي بكر وتركوا عمر، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٢].

فنشج[٣] الناس يبكون.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: والله؛ لكأنَّ الناس لم يعلموا أن الله تعالى أنزل هذه الآية، حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلاَّ يتلوها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنها لفي كتاب الله تعالى ما شعرت أنها في كتاب الله تعالى! والله؛ ما هو إلاَّ أن سمعت أبا بكر تلاها؛ فعقرت حتى

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٣٠ ــ ٣١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٣) النشيج: صوت معه توجُّع وشدة بكاء.

ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض، حين سمعته تلاها: علمت أن النبي ﷺ قد مات.

وقالت فاطمة رضي الله عنها: يا أبتاه؛ أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه؛ من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه؛ إلى جبريل ننعاه.

بيعة أبي بكر رضي الله عنه:

وجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر الغد من يوم توفي النبي ﷺ، فتشهد وأبو بكر رضي الله عنه صامت لا يتكلم، فقال عمر: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدْبُرَنا[1]، فإن يك محمد ﷺ قد مات؛ فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ، ثاني اثنين، وهو ذو شيبة المسلمين، فإنه أولى المسلمين بأموركم، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤم بالناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟

فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

فقال عمر: فقوموا فبايعوه، وقال لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر.

فقال عمر: نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ.

فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس عامة.

غسله ﷺ وكفنه:

فلما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري؛ أَنُجَرِّدُ النبي ﷺ من ثيابه كما نُجَرِّدُ موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟

---

(١) أي: يكون آخِرَنَا.

فلما اختلفوا: ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلاَّ وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت ــ لا يدرون من هو ــ : أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه.

فقاموا إلى النبي ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص؛ ويدلكونه بالقميص دون أيديهم.

قالت عائشة رضي الله عنها: لو استقبلت من أمري ما استدبرت؛ ما غسل رسول الله ﷺ إلاَّ نساؤه.

وكُفِّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب يمانية بيض، ليس فيها قميص ولا عمامة.

دفنه ﷺ في موضع فراشه:

واختلف المسلمون في المكان الذي يحفر له، فقال قائلون: يدفن في مسجده.

وقال قائلون: يدفن مع أصحابه.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته، قال: ما قَبَضَ الله نبياً إلاَّ في الموضع الذي يُحِبُّ أن يُدفن فيه.

فقال أبو بكر: ادفنوه في موضع فراشه.

ثم لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ: اختلفوا في اللحد والشق؛ حتى تكلموا في ذلك وارتفعت أصواتهم، فقال عمر رضي الله عنه: لا تصخبوا عند رسول الله ﷺ حيّاً ولا ميتاً.

فدعا العباس رضي الله عنه رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، وكان يضرح[1] كضريح أهل مكة، وقال للآخر: اذهب إلى

(١) أي: الشق في وسط الأرض.

أبي طلحة، وكان يحفر لأهل المدينة فكان يلحد[١]، ثم قال العباس: اللَّـٰهُمَّ خِرْ لرسولك.

فذهبا، فلم يجد صاحب أبي عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء اللحد لرسول الله ﷺ.

فلما فرغوا من جهازه وُضِعَ رسول الله ﷺ على سريره في بيته، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ أرسالاً يصلون عليه، ولم يؤم الناسَ على رسول الله ﷺ أحدٌ.

ثم دفن رسول الله ﷺ، وكان أحدثَ الناس عهداً برسول الله ﷺ قُثَمُ بنُ العباس رضي الله عنهما، وكان قبر النبي ﷺ مُسنَّماً[٢].

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

فلما دفن رسول الله ﷺ قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أنس؛ أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟!

يوم وفاته ﷺ ودفنه:

قالت عائشة رضي الله عنها: توفي النبي ﷺ يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء.

قال جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: قال لي حبر باليمن: إن كان صاحبكم نبيّاً: فقد مات اليوم.

---

(١) أي: الشق في جانب الأرض.

(٢) أي: كهيئة السنام، وهو خلاف تسطيح القبر.

قال جرير: فمات يوم الاثنين ﷺ.

سِنّه ﷺ يوم توفي:

وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

تركته ﷺ:

توفي ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعاً من شعير، مات وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً؛ إلاَّ بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحَه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة.

وكان رسول الله ﷺ يقول: لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي؛ فهو صدقة.

وكان نبي الله ﷺ ينظر إلى أُحد فيقول: والذي نفس محمد بيده؛ ما يسرني أن أُحداً لآل محمد ذهباً أنفقه في سبيل الله؛ أموت يوم أموت وعندي منه ديناران، إلاَّ أن أُعِدَّهُمَا لدَيْنٍ.

ولما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا نبي الله؛ لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: ما لي وللدنيا؟ وما مثلي ومثل الدنيا إلاَّ كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها.

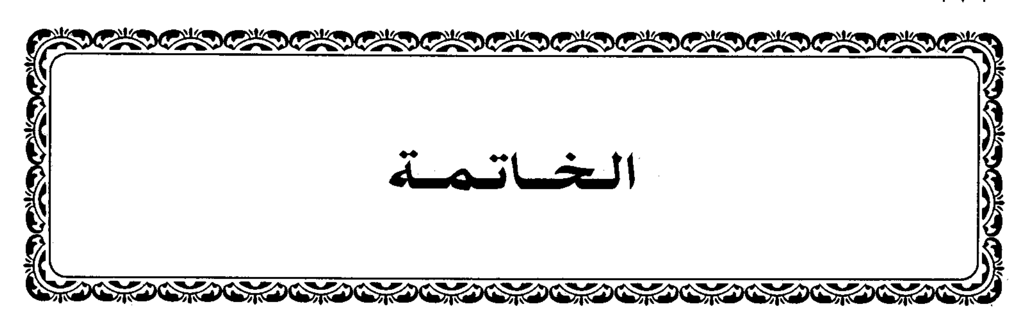
وقال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها.

فلمـا انتهيـا إليهـا: بكـت، فقـالا لهـا: مـا يبكيـك؟ مـا عنـد الله خيـر لرسوله ﷺ.

فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء.

فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

* * *



الخاتمة

وهذا مسك ختام سيرة رسول الله ﷺ الغرَّاء، وعبق طيب سنته السمحاء، فنسأل الله تعالى أن يحيينا على محبة نبيه الكريم؛ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأن يميتنا على اتِّباع سنته ونهجه القويم، وأن يجمعنا به في جنات النعيم، ويا غُنْم من أكثر عليه من الصلاة والتسليم.

قال رسول الله ﷺ: إن من أفضل أيامكم: يومَ الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ. فقالوا: يا رسول الله؛ وكيف تُعْرَض صلاتنا عليك وقد أَرِمْتَ(١)؟

فقال رسول الله ﷺ: إن الله عزَّ وجلَّ حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء.

اللَّـٰهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صلَّيت على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، وبارك على محمدٍ وعلى آلِ محمد، كما باركت على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيم، في العالمين، إنك حميدٌ مجيدٌ.

* * *

---

(١) أي: بليت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم معالي وزير العدل ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية	٥
المقدمة	٨
تمهيد في ضرورة وحاجة البشرية إلى سيرة خير البرية	١١
أهمية السيرة النبوية	١٦
حياته ﷺ قبل البعثة	١٧
نسب النبي ﷺ	١٧
مولده ﷺ ونشأته	١٩
زواجه ﷺ من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها	٢٠
أولاده ﷺ وذريّته	٢١
بعثته ﷺ	٢٧
بين أذى الأقربين وندى الأعجميين	٢٨
قصة إسلام سلمان رضي الله عنه	٣١
الإسراء والمعراج	٣٦
موقف الناس من الإسراء والمعراج	٤٣
ذهابه ﷺ لدعوة أهل الطائف	٤٥
الدعوة في أهل يثرب وبيعة العقبة	٤٧

الموضوع	الصفحة

الهجرة النبوية ٤٩
إذنه ﷺ للمسلمين بالهجرة ٥١
هجرته ﷺ مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٥٢
وصوله ﷺ المدينة ٥٤
إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه وموقف اليهود منه ٥٦
بناء مسجد «قباء» والمسجد النبوي ٥٧
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٥٩
غزوة بدر ٦٤
غزوة أحد ٧١
قصة استشهاد حمزة رضي الله عنه وغيره من المسلمين ٧٧
حكمه ﷺ في الشهداء ٨٠
حادثة الإفك ٨٣
غزوتَيْ الخندق وبني قريظة ٩٢
غزوة الخندق ٩٢
غزوة بني قريظة ١٠١
صلح الحديبية ١٠٥
غزوة خيبر ١٢٣
قصة الشاة المسمومة ١٢٩
زواجه ﷺ من صفية بنت حييٍّ رضي الله عنها ١٣٠
قدوم مهاجري الحبشة ١٣٣
إتيان الحَجَّاج بن علاط رضي الله عنه مكة وجمعه ماله وذهابه به ١٣٤
عمرة القضاء ١٣٧

الموضوع	الصفحة
غزوة مؤتة	١٤٠
كُتب الرسول ﷺ إلى الملوك	١٤٣
كتابه ﷺ إلى هرقل	١٤٣
كتابه ﷺ إلى كسرى	١٤٧
البعوث والسرايا	١٤٨
نعيه ﷺ النجاشي	١٥١
فتح مكة	١٥٢
قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى المشركين	١٥٣
التماس قريش خبر رسول الله ﷺ	١٥٤
خطبة الفتح	١٥٩
تسابقُ الناس والقبائل للإسلام بعد الفتح	١٦٠
الغزوات بعد الفتح	١٦٤
يوم حنين «هوازن وغطفان»	١٦٤
قدوم وفد هوازن مسلمين	١٦٩
غزوة أوطاس	١٦٩
غزوة الطائف	١٧٢
عمرته ﷺ من الجعرانة	١٧٣
غزوة تبوك	١٧٩
قصة كعب بن مالك رضي الله عنه والمخلفين	١٩٠
عام الوفود	١٩٨
وفد ثقيف	١٩٨
وفاة عبد الله بن أبَيّ ابن سلول	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
أمره ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بالحج	٢٠١
وفد بني تميم	٢٠٢
وفد عبد القيس	٢٠٤
إسلام سيد أهل اليمامة: ثمامة بن أثال رضي الله عنه	٢٠٧
وفد مسيلمة الكذاب	٢٠٨
وفد نجران	٢٠٩
إسلام ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه	٢١٠
إسلام عدي بن حاتم رضي الله عنه	٢١٢
وفد دوس	٢١٦
وفد أهل اليمن	٢١٦
وفد كندة	٢١٦
وفد بجلة وتحريق ذي الخلصة	٢١٦
إسلام تميم الداري رضي الله عنه وحديث الجساسة	٢١٨
حديث الراعي	٢٢٢
إرسال معاذ وأبـي موسىٰ رضي الله عنهما موسى إلى اليمن ووصيته ﷺ لهما	٢٢٢
إرسال علي رضي الله عنه إلى اليمن	٢٢٥
حجة الوداع	٢٢٨
عمراته ﷺ	٢٢٨
الأذان بالحج	٢٢٨
إهلاله ﷺ	٢٢٩
دخوله ﷺ المسجد الحرام	٢٣١
خروجه ﷺ إلى الصفا والمروة	٢٣٢

الموضوع	الصفحة
دخول العمرة في الحج	٢٣٢
وقوفه ﷺ بعرفات	٢٣٥
خطبته ﷺ بالناس يوم عرفة	٢٣٥
نزوله ﷺ المزدلفة	٢٣٨
إتيانه ﷺ المشعر الحرام	٢٣٩
رمي الجمرات	٢٤١
يوم النحر	٢٤١
الرجوع إلى منى أيام التشريق	٢٤٣
وداع الرسول ﷺ	٢٤٥
عودته ﷺ إلى المدينة	٢٤٧
مرضه ﷺ ووفاته	٢٤٩
اعتكافه ﷺ آخر رمضان صامه ومقابلته القرآن مع جبريل عليه السلام	٢٤٩
مرضه ﷺ ودنو أجله	٢٥١
زيارته ﷺ البقيع قبل وفاته	٢٥٢
اشتداد المرض عليه ﷺ	٢٥٣
بعثه ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه أميراً للجيش	٢٥٦
بكاء الأنصار وآخر مجلس جلسه ﷺ	٢٥٦
وصيته ﷺ قبل وفاته	٢٥٨
تحذيره ﷺ من اتخاذ القبور مساجد	٢٥٨
حديثه ﷺ مع فاطمة رضي الله عنها قبل وفاته	٢٥٩
أمره ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بالصلاة بالناس	٢٦٠
عامّة وصيّته ﷺ	٢٦٢
وفاته ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها	٢٦٢

الموضوع	الصفحة
موقف الصحابة من وفاته ﷺ	٢٦٤
بيعة أبـي بكر رضي الله عنه	٢٦٧
غسله ﷺ وكفنه	٢٦٧
دفنه ﷺ في موضع فراشه	٢٦٨
يوم وفاته ﷺ ودفنه	٢٦٩
سنُّـه ﷺ يوم تُوُفِّي	٢٧٠
تركته ﷺ	٢٧٠
الخاتمة	٢٧٢
الفهارس	٢٧٣

❑ ❑ ❑